

معالم قرآنك في البناء

الإنسان والحياة

في وقفات مع آيات

أ.د. محمد أديب الصالح



العبيكان
Abekan

الإنسان والحياة في وقفاتٍ مع آيات

أ. د. محمد أديب الصالح

العبركان
Obekan

© مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالح، محمد أديب

الإنسان والحياة في وفقات مع آيات / محمد أديب الصالح . - الرياض ١٤٢٧هـ

٤٧٤ ص ١٦،٥ × ٢٤سم

ردمك: ٥ - ٠٩٩ - ٥٤ - ٩٩٦٠

١ - القرآن - مباحث عامة

أ. العنوان

١٤٢٧ / ٥٣٨٩

ديري ٢٢٩

رقم الإيداع: ١٤٢٧ / ٥٣٨٩

ردمك: ٥ - ٠٩٩ - ٥٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناسر

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع الصربية

هاتف ٤١٩٠٠١٨ / ٤٦٥٤٢٤ فاكس ٤٦٩٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

الناسر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٦٣٢٢ الرمز ١١٥١٧

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناسر.



توطئة

الحمد لله الذي يسجد له ما في السموات وما في الأرض طوعاً،
وكرهاً وظلاً لهم بالغدو والأصال.

والحمد لله عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، القائم على كل نفس
بما كسبت وهو شديد المحال.

والحمد لله الذي له مقاليد السموات والأرض، والذين كفروا بآيات
الله أولئك هم الخاسرون. وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون
للعالمين نذيراً، سبحانه من إله غفور ودودٍ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل
الصالح يرفعه، أنزله بالحق وبالحق نزل، وهو النور المبين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أوحى بهذا الكتاب المبين
إلى خاتم رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبد الله رحمة العالمين؛ مباركاً
ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب، نعم، ونزله تبياناً لكل شيء وهدى
ورحمة وبشرى للمسلمين، ويسره بلسانه ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً
لداً. حيث الغاية الكبرى أن يحصل التذكر وتأخذ الهداية سبيلها إلى
القلوب ﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١).

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله؛ أدّى الأمانة في تبليغ ما أنزل
إليه من تلكم الآيات البينات، ولم يدع أن يبين - وقد أوتي القرآن ومثله
معه - ما يلزم بيانه خير بيان، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ
لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

(١) (الدخان: ٥٨).

(٢) (النحل: ٤٤).

فجزاه الله عن الأمة ونصرة الحق خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك عليه ما اختلف الليل والنهار؛ أداءً لبعض حقه وقد أنقذنا الله به من التهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الهداة المهتدين، الذين أدّوا أمانة نقل الكتاب الكريم وبيانه المحمّدي على خير وجه وأكمّله للعالمين، ومن تبعهم بإحسان واقتضى أثرهم على طريق القرآن المجيد وبيانه من سنة سيد المرسلين.

وبعد؛ فليس من نافلة القول أو مكروره التذكير بواحدة من المسلّمات عند أولي الألباب، وهي أن واحداً من أهل النُصفَة أوتي ولو أثارة من علم، لا يماري في أن من أجل نعم الله على الأمة المحمدية، بل على البشرية جمعاء، هذا القرآن المجيد الذي أنزله الله على نبيّنا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالحق، وبالحق نزل، أنزله عليه - كما تدلّ معالنه - ولم يجعل له عوجاً، ويسره بلسانه ليبشر به المتقين وينذر به قوماً لداً لعلمهم يتذكرون.. هذا الذكر الحكيم - وهو كلام الخلاق العليم - يتبوأ من رفعة القدر وسعة العطاء في كلماته التي لا تنفد، المنزلة التي لم ييلفها كتاب ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِداداً لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِداداً﴾^(١)، كما يتبوأ من عظيم المكانة التي لا تجارى في قيمه وحقائقه ومعانيه الناطقة بها معالنه، ناهيك عن أسلوبه وفصاحته، حيث بلغ من سموه أن الله تبارك وتعالى رقاّه إلى مقام دلّ بعظمته أنه المعجز حقاً، وأنه مع دلالاته القاطعة على أنه من عند الله لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته، ولو بالإتيان بسورة من مثله لعجزوا ولم يقدرُوا ولو تماثلُوا جميعاً على ذلك ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(٢).

(٢) (الإسراء: ٨٨).

(١) (الكهف: ١٠٩).

فسبحان من أنزله تبصرة وذكرى لأولي الألباب، وجعله مهيمناً على ما سبقه من الكتب، وأغزرها علماً للعباد ونفعاً، وأجلها منزلة وقدرًا ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(١).

وهكذا شاء ربنا تبارك وتعالى أن يكون هذا الكتاب الخاتم - وقد أنزل على صاحب الرسالة الخاتمة - ينبوع الحكمة وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، ولم لا وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. ألا إنه الفصل ليس بالهزل، لا يمتري عاقل في أنه كلي التشريع، وعمدة الملة. فهو أصل الأصول، وحبل الله المتين، لا تزيج به الأهواء ولا يخلق على كثرة الرد - أو عن كثرة الرد - ولا تتقضي عجائبه، فهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾^(٢) من قال به صدق، ومن عمل به أجز، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وأنت واجد في معاله النورانية الخيرة، المكي منها والمدني، والتي يطالعك من خلالها عموم هدايته.. نهجاً من البناء الحضاري القويم، على صعيد الفرد والجماعة والأمة بشمول وعمق بالغين، الأمر الذي يرقى بالأمة، أن لو عملت به، إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين، ذلك بأن هذه المعالم - وهي من هذا الكتاب وإليه - حق كلها، ونور كلها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ وَقرآنًا فرقاه لِقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾^(٣) وقوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(٤).

(١) (المائدة: ٤٨).

(٢) (الجن: ١ - ٢).

(٤) (فاطر: ٣١).

(٣) (الأنعام: ١٠٥ - ١٠٦).

أجل، هو الحق وأنزل بالحق، فليس لشيء من الباطل - كائنًا ما كان شأنه وشأن أهله - إلى تلك المعالم من سبيل، مهما افترى المفترون، ومكر الماكرون، ومارى السفهاء والمليسون، وانتحل العابثون المبطلون. وجل شأن رينا السميع القاهر فوق عباده إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَكُنَّا عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١).

فطوبى لمن تحملهم نورانية هذه المعالم إلى أن يكونوا على الجادة يحسنون اصطحاب هذا القرآن تلاوة وتدبراً وتذكراً، يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويدورون معه - وهو كلام العليم الحكيم - حيث دار. وما أعزها ثمرة مخالطة تلك المعالم مخالطة إيمانية واعية، تسمو بأصحابها المهديين إلى حيث السداد في الأقوال والأفعال، والظفر بالسعادة العاجلة، وحسن العقبى يوم الدين، حيث يشهد لهم القرآن بأنهم كانوا في الدنيا لا يدعون أن يدوروا معه حيث دار.

وكم دعا السلف الصالح إلى التحقق بذلك، وكشفوا لمن يقوم به عن أعظم البشريات. روى صاحب «الحلية» عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود: أن رجلاً أتى أباه عبدالله بن مسعود فقال: يا أبا عبدالرحمن، علّمني كلمات جوامع نوافع، فقال رضي الله عنه:

«اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، ودر مع القرآن حيث دار، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً». (٢) وروى الباجي عن ابن وهب قال: سمعت مالكا يقول: «إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً فافعل، فهو الإمام الذي يهدي إلى الجنة» (٣) ورضي الله عن ابن أم عبد إذ يقول: «إنما هذه القلوب أوعية

(١) (فصلت: ٤١-٤٢).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم الأصفهاني: ١ / ١٢٢. «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ١ / ١٦٥. «الريانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ١٢٢.

(٣) ينظر تفسير الثعالبي: ٢ / ٢٥٢.

فأشفلوها بالقرآن ولا تشفلوها بغيره^(١). ولا تعجب ما دام القرآن هو الكتاب المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس على معارضته ولو اجتمعوا وتظاهروا، والذي صرف الله فيه دلائل الهدى ونوعها لتخاطب كل عقل وقلب، وسبحان من أنزله على نبيينا المصطفى ليكون للعالمين نذيراً.

وعلى هذا السنن من اصطحاب اللمة السريعة في هذه العجالة في القول: ما بد من التتويه بوضوح الدلالة على أفضلية هذه المعالم وما تتسم به من الدقة المتناهية، والحكمة - البالغة في وفرة عطائها الذي لا يستثني ساحة من ساحات البناء، ذلك البناء الذي لا ينأى عن العبودية لله والحفاظ على إنسانية الإنسان ونصرة الحق وتوفير ما يثمر الحضارة المثلى، لما أن هذه الحضارة من نور القرآن الذي هو المعجزة الحقبة الباقية إلى يوم الدين، وسداها ولحمته هديه الرياني وبنائه الحق المكين.

وجماع ذلك على صعيد الهداية والبناء الشامل المتكامل للفرد والجماعة والأمة - ناهيك عن البناء الحضاري القويم - قول الله تعالى في سورة الإسراء - وهي سورة مكية - : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّيْ هِيَ أَقْرَمُ وَيُذَكِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(٢)، وأقوم من القوام وهو العدل والاعتدال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٣)، وفلان أقوم كلاماً من فلان: أي أعدل.

فهذا الكتاب المبين يهدي ويرشد العباد على خير منهج في دينهم ودنياهم وآخرتهم لأقوم الحالات وأصوبها، وأفضل الطرق وأسدها، وأوضح السبل وأعدلها؛ فالهداية به قائمة أبداً للحالة التي هي أسد وأعدل

(١) «الريانون قدوة وعمل» ١٧١، وانظر «الحلية» ١ / ١٣١.

(٢) (الإسراء: ٩).

(٣) (الفرقان: ٦٧).

وأصوب، ويمكن أن نقول: يهدي للملة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق. وهذا مبني على أن كلمة (أقوم) نعت لموصوف محذوف ذهب كثير من العلماء إلى تقديره على الوجوه التي ذكرنا أو بعضها. ومثل هذه الكناية كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾^(١). أي بالخصلة التي هي أحسن. فكان أفعال التفضيل (أحسن) صفة لكلمة الخصلة المقدرة.

ولا علينا أن نذكر أن فريقاً من العلماء ذهب إلى أن (أقوم) ليست للتفضيل؛ فالمنى: يهدي للتي هي قيمة أي مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾^(٢)، وكما قال سبحانه: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾^(٣)، أي مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

هذا: ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه على كلا الوجهين في كلمة (أقوم) فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يأتي على وجه الإطلاق في تقرير أن هذا الكتاب الكريم يرشد للطريقة التي هي أسدّ وأعدل فيمن يهديهم وفيما يهديهم له، فيشمل الهدى - كما يقول صاحب الظلال - أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلّ منهج وكل طريق، وكلّ خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي ما أوضحه الزمخشري من عظمة الإعجاز ورفعة الذوق البلاغي في حذف الموصوف بقوله تعالى: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال في «الكشاف»: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها، أو للملة أو الطريقة، وأيما قدرّت لم تجد مع الإثبات - أي إثبات الموصوف - ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقد مع إيضاحه.

وهي خاتمة المطاف: لقد قدمت هذه اللمحة الوجيزة من القول الذي هو في سموّ موضوعه عن القرآن ومعاليه الخيرة قليل قليل من كثير كثير،

(٢) (البينة: ٢).

(٣) (البينة: ٥).

(١) (فصلت: ٢٤).

قدمتها وأنا بسبيل الإشارة العجلى إلى أن الصفحات القادمة هنا ثمرة من ثمرات رحلة ميمونة طالت بعض الشيء، من الله بها عليّ - وهو ذو الفضل العظيم - صحبت من خلالها عدداً وافراً من المعالم القرآنية المكي منها والمدني، الهادية إلى كل ما هو أسدّ وأعدل في مختلف الأحوال والشؤون، لما أنها من محكم التنزيل وإليه.

وقد كنت حريصاً - من خلال التدبّر المستطاع - على تناولها بأمانة علمية منهجية والكشف قدر الطاقة عن معانيها ومنازل الهداية في كل منها حسب موقعه على الصعيد المطروق في ساحة البناء الشامل المتكامل بمعناه الإسلامي الحضاري، البناء الذي تناول - مع العقيدة والعبادة والأخلاق - شؤون الحياة بأكملها، لما أن جذور حضارتنا الإسلامية تكمن في هذه المعالم الخيرة وبيانها من السنة المحمدية، ثم فهوم أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان. وأينما وجدت المصلحة في عرف هذه الحقيقة: فتمّ شرع الله ودينه.

والله أسأل أن يتقبل بقبول حسن هذا العمل النير بجوهره وعطائه، المتواضع يتناوله والكلام فيه، وأن ينفع به قارئه والناظر فيه، وأن يتفضل بالعمو عما يكون من زلل. إنه سميع مجيب الدعاء، لا ربّ غيره ولا خير إلا خيرُه، منه التيسير والعون وإليه المرجع والمآب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وأزكى تسليماته على إمام الهداة وصفوة الله من خلقه سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الهادين المهتدين؛ أجمعين.

أ. د/ محمد أديب الصالح

أستاذ ورئيس قسم السنة وعلومها في جامعة الإمام محمد بن سعود، وأستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة بجامعة دمشق سابقاً
رئيس تحرير مجلة حضارة الإسلام



يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام

« ١ »

في ظلال شهر رمضان المبارك بأيامه المعدودات؛ الشهر الزاخر بالإحسان والعطاء، الوافر بالبر والنعماء ومنها العتق من النار.. شهر القرآن كتاب الهداية والنور، شهر الصيام والقيام وليلة القدر.. شهر الجهاد الخالص قتالاً لأعداء الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، وجهاداً للنفس بتزكيتها والتسامي بها إلى مراقبة مولاها، والأمانة في أداء الطاعة وصديق التوجه إلى بارئها الحكيم، شهر الارتفاع بالمؤمن إلى تربية الإرادة، وتصفية القلب من الأكدار، وتوكيد الأخوة الإيمانية، على ساحة سداها ولحمتها التقوى على نور من الله...

في ظلال تلك الأيام والليالي والساعات التي يقدرها حق قدرها الموفقون، يهضو قلب المؤمن إلى الاستتارة بواحد من المعالم القرآنية الذي تشرق به آيات الصيام في سورة البقرة وما فيه من كريم عطاء الله وفضله فيما شرع ويسر من أبواب الخير والقرب منه سبحانه لعباده المؤمنين.

ذلكم قول الله جلّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٢ - ١٨٦]، إلى آخر الآيات المباركات التي كلها بناء على الطاعة والتقوى، وحماية للبناء، وتزكية متجددة للأنفس عند من رزقوا أن يكونوا الترجمان العملي لهذا البناء القرآني.

وأود الإشارة إلى أنني لست بسبيل أن أقصر هذه الآيات، ولكنني بسبيل التذكير بالقاعدة التي ينبثق منها خطاب التكليف بأحكام هذا الدين — ومنها أحكام الصيام — أعني قاعدة الإيمان.

فالمؤمن يخاطب بشرائع الإسلام بوصفه مؤمناً — ذكرأ كان أو أنثى — متصفاً بأهلية التكليف.

وأنت واجد هنا — كما هو الأعم الأغلب في نصوص ذلك الخطاب — أن الآية الأولى من الآيات الأنفة الذكر: قد بدئت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وكان ذلك سبيل إعلام المؤمنين بأن الله قد فرض عليهم صيام شهر رمضان — وهو ما قررته الكلمة القرآنية فيما بعد.

أجل بدئت بهذا النداء العلوي المشغل بالندى والحنان، الفيّاض بالود والرحمة، المشرق بنور الهداية والخير.

وإنه لنداء من شأنه أن يحرك في القلوب كوامن الحب لله ولرسوله، ويبعث كوامن اليقين ودواعي الاستجابة الندية بالاطمئنان، وحوافز المسارعة التي تتخطى عقبات النفس الأمارة بالسوء، والجنوح إلى طلب المافية والإقامة على الرغبات الأرضية والشهوات، وهي المسارعة إلى القيام بكل ما فيه طاعة الله وتقواه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نداء من الله الكريم في عليائه وجبروته لعباده الذين صدّقوا كمال التصديق، بلا واسطة ولا حجاب.

ولكم تكرر هذا النداء الرياني في الكتاب الكريم إشعاراً بالأساس الذي بُني عليه التكليف ليكون المؤمن على سنن الطاعة والتقوى ويفوز — إن هو استقام على سواء الصراط — بسعادة الدارين.

فقد بلغت مواطن ذلك في السور المدنية زهاء أربع وثمانين آية تجدها منتشرة في سور البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والحجرات، والحديد، والمجادلة، والحشر، والمتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتفاين، والتحریم.

وهذا — كما ذكرت آنفاً في الأعم الأغلب، وإلا فقد جاء التكليف بصور أخرى في العديد من الآيات؛ ولكن يظل الإيمان هو أساس البناء القويم — بعمقه وشموله — في المنهج القرآني وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام. ومن ذلك ما يكون من الأحكام التي يطلب العمل بها فعلاً أو تركاً.

ومن شأن صدق الإيمان أن يستجيب المؤمنون لدعوة الله في طاعته واجتتاب معصيته، فيأتمروا بأوامره ويجتنبون مناهيه؛ فلا يفقدون حيث أمرهم، ولا يراهم حيث نهاهم، وتجيء الطاعة بمد الطاعة، فيكون ذلك عامل تنمية لبواعث الخير، ومحبة الله عز وجل، والفرح بفضله ورحمته!.

ويا لها من صياغة يصاغ عليها المؤمن، فيكون امتثاله للأمر واجتتابه للنهي: سياحة متجددة تجعله موصول القلب بمولاه، وقوة تزينها التقوى — على فعل كل ما يرضي ربه عز وجل مهما غلا الثمن، ويقربه إليه زلفى، كائنة ما كانت مشقة التكاليف.

وسبحان من دعا نبيه ﷺ — وهو الأسوة الحسنة لأهل الإيمان — إلى أن يكون دائماً على سنن العمل المتجدد في طاعة الله، كلما فرغ من طاعة نصب طاعة غيرها بالمعنى الأشمل لهذه الكلمة المباركة وأن يكون المقصود مرضاة الله والرغبة إليه. ذلكم قوله جل شأنه في سورة الانشراح خطاباً له صلى الله وسلم وبارك عليه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح: ٧ — ٨).

ومما ورد في تفسير الآيتين ما أخرج شيخ المفسرين عن زيد بن أسلم والضحاك ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي من الجهاد ﴿فَانصَبْ﴾ أي في العبادة ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ قال النووي: (اجعل نيتك ورجبتك إلى الله عز وجل). وقال الحافظ ابن كثير: (أي إذا فرغت من

أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطاً فارغ البال وأخلص لربك النية والرغبة). ألا إن البرهان الذي ما بعده برهان، والحجة التي لا تدانيها حجة على صدق الإيمان وتذوق حلوة الطاعة: أن يكون هذا المؤمن على المحجة في المسارعة إلى امتثال منبهث من القلب لحكم الله تبارك وتعالى في العسر واليسر والمنشط والمكره.

وهي هذه المسارعة التي ينمو معها تذوق الطاعة، وحب الاستجابة لدعوة الله ورسوله: سواده تميز على الوصف، وطمانينة لا تعدلها طمانينة، وهنيئاً لأهل الطاعة المتقين: ما يفرهم من الفضل الإلهي جزاء إقبالهم الصادق على الله، وتسامهم على الموفقات، وانتصارهم بالإيمان على العقبات التي تعترض السائكين إليه سبحانه.

وفي صود على بدء؛ هنا في آيات الصيام يقول الحكيم الخبير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أرايت أيها المؤمن: فرض عليكم الصيام — وهو الإمساك عن المفطرات من طعام وشراب ونكاح من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس أياماً معدودات هي شهر رمضان المبارك؛ وترى أن الإمساك مطلوب عن الحلال المفطر، وهو إمساك تتجدد لذته عند المؤمن لحظة بعد لحظة، حتى يعين غروب الشمس. ويفرح بفطره المشروع آنذاك. وما أعظم الفرحة الثانية يوم لقاء مولاة الكريم المنان؛ فقد جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري ومسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قول النبي ﷺ: «... والذين تقم معهم محمد بيده لخُلُوف هم الصائم أطيب من ريح المسك». «للصائم فرحتان يفرحهما؛ إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بصومه». هذا لفظ رواية البخاري وفي رواية لمسلم: «...للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه». «ولخُلُوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك». ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

فالحذي أوجب هو الله الخالق البارئ الذي نحن به مؤمنون ويكتابه مصدقون؛ أجل: كتب عليكم الصيام؛ والذي فرض هذه الشعيرة التي جعلها النبي ﷺ - وهو المبلّغ عن الله ما أراد - رابع أركان الإسلام: هو سبحانه صاحب الأمر والنهي الذي يعلم ما فيه خيرية الهدى لعباده، وما يحقق المصلحة الشرعية النافعة لهم؛ الأمر الذي يضمن لهم - إن هم أحسنوا العمل واتقوا - سعادة الدارين.

وما أجمل أن يستذكر المؤمن دائماً أن عليه - وهو يقوم بهذه الفريضة - أن يصوم إيماناً واحتساباً، لا يبتغي سوى مرضاة ربه، وذلك ما ينيله - بفضل الله - المغفرة والعق من النار.

فمن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً، عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه، أخرجه البخاري ومسلم».

هذا ما ينبغي للمسلم أن يفعله كيما يكون في عداد من تقبل طاعتهم وتغفر ذنوبهم - بفضل الله وكرمه - إنك تراه وهو الضريح بهذه الشرعة المباركة، يصوم - يوم يصوم - عملاً بدين الله: إيماناً واحتساباً فهو لا يصوم رياضة، ولا يصوم نظاماً، ولا يصوم صحة أو لفرض كذا وكذا... وعدد ما شئت من حُكم الصيام وما أكثرها؛ ولكنه يصوم لأن الله تعالى أوجب الصيام وجعله على لسان نبيه ﷺ رابع ركن من أركان الإسلام.

وهو - كذلك - يحمد الله أن أكرمه وأعظم له العطاء حين شرح صدره للإسلام وهداه للإيمان وزينه في قلبه، وكلفه بشرعة تتبني على هذا الإيمان.

أن يستشعر المؤمن إيمانه الذي خالطت بشاشته القلب، ويكون على تذوق صادق لحلاوة هذا الإيمان - شأن الأتقياء الأصفياء - ويحسُّ بالرباط الوثيق بين الإيمان وبين ما كلف به من أحكام فعلاً أو تركاً: ذلكم هو اللبنة الأولى في الإعداد الصحيح للمسلم الحق على ساحة البناء المنشود، والتي من ورائها يكون - بعون الله - الالتزام المرضي، والانقياد الموصل على صعيد الجماعة والأمة، إلى التمكين في الدنيا، وأكرم عاقبة يوم الدين.

القاعدة الإيمانية.. والبناء.. يا أيها الذين آمنوا

« ٢ »

من الحكم البالغة في الكتاب المعجز: ما ازدان به الأسلوب القرآني – في الأعم الأغلب – من اتخاذ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» مبتدأ خطاب التكليف للمؤمنين بما افترض الله عليهم من الأحكام، لما أن في هذا الخطاب الندي الثري بالرحمة والود: إثارة للعقل المسلم كما يعمل عمله في البعد عن التناقض المردى في عدم الاستجابة لدعوة الله، واتخاذ أمر الشارع ونهيه ظهرياً، ناهيك عما تعمله تلك الكلمات الهاديات في القلب، من إثارة لكوامن الإيمان، وشحن للهمم في المسارعة إلى السمع والطاعة، لأن ذلك مقتضى الإيمان، ويريد المؤمن إلى أن يكون من أهل الصدق المتقين.

وقد أشرت فيما سبق من القول إلى أن افتتاح آيات الصيام في سورة البقرة بقول الله جل ذكره: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ تُقْوَى ﴿١٨٣﴾» [البقرة: ١٨٣] حيث صدر خطاب التكليف هذا ب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» ذلك النداء العلوي الكريم – كما هو الشأن في أكثر آيات الخطاب للمكلفين في كل شأن من شؤون الفرد والجماعة، عقيدةً وشريعةً وسلوكاً وأخلاقاً، بل كما هو طابع الآيات في العهد المدني على العموم – دليل واضح على أن الركيزة الأولى التي يوليهها المنهج القرآني تلك الأهمية البالغة في بناء الإنسان المسلم بناءً يضمن قدرته على الفاعلية والتأثير في مواجهة الحياة، وينمي في عقله وقلبه حوافز العمل الخير المثمر: إنما هي الإيمان..

وأن القاعدة النورانية التي ينبني أن يقوم عليها البناء في العقيدة والأحكام ونظام السلوك والأخلاق، وكل ما يتصور من ضوابط العلاقة بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين ربه جل وعلا، وبينه وبين الآخرين، بدءاً من أسرته وانتهاءً بالمجتمع والأمة، ومن تدعو الحاجة إلى التعامل معهم فيما وراء ذلك: إنما هي الإيمان كذلك.

ولقد يأخذك المصعب من إحاطة تلك الكلمات المشرقات، بياناً وهداية: إحاطة اتسمت لخطاب المكلفين في الأمة بهذا الأسلوب المميز كي يكونوا على المستوى اللائق بما عهد الله إليهم أن يأخذوا أنفسهم بمنهج الرسالة الخاتمة التي شرّفهم الله بها، فتتحقق الموازنة الدقيقة بين الإيمان، وبين ما شرع لهم من تكاليف متنوعة هي صورة عملية للمنهج الرباني في شموله وعمقه وتكامله.

ولنتعرف على بعض النصوص — على سبيل المثال لا الحصر — لنرى سعة الأفق في تناولها وتنوع التكليف الذي يخاطب به المؤمنون والمؤمنات في ظل تعاليم الإسلام التي لا تتحسر هدايتها عن جانب من جوانب الحياة.

ها نحن أولاء نقراً في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُحِبْ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَ رِجْلَيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ونقرأ في سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ يَالْتُونَكُمْ خَلَاءً﴾ [آل عمران: ١١٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وتطالعنا سورة النساء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

ونقرأ في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]. كما نقراً قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١].

وتسمعنا سورة الأنفال بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُرُوا﴾ [الأنفال: ٤٥].

ونقع في سورة التوبة على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٢]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُطِيعِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ونقرأ في سورة النور قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ [النور: ٢٧]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١].

وهيما اشتملت عليه سورة الأحزاب نقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزاب: ٩]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وفي سورة الحجرات نقع على قول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١٠].

وهذه سورة الحشر تطلعننا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَلَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

ونقرأ في سورة الممتحنة قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

كما نقرأ في سورة الصف قول الحكيم العليم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

ونقرأ في سورة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

وتشرق علينا سورة التحريم بقوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

ولو أننا بسبيل الكلام على خطاب التكليف من حيث هو — وليس بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فحسب — لأوردت العديد من الأمثلة كان التكليف بها بغير هذه الصيغة ولكنها على نهج إحكام العلاقة بين إيمان المؤمن — أو ما هو منه بسبب — وبين تكليفه بما يقول أو يفعل.. أو يمت إلى ذلك بصلة.

وعلى سبيل الاجتزاء اليسير: أذكر بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وقوله في سورة الأنفال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَافُ الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. والكلام على أحكام الفنائم.

ويقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿اتَّخَفَتْنَهُمْ ظَالِمُ اللَّهِ أَحقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢]. ويقول جل شأنه في سورة النور: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

وما أكثر الصور المشرقة وأوفر الأساليب في ذلك: دليل الحكمة في وضع كل قضية موضعها على سلم الهداية كما أراد ذلك الحكيم الخبير.

وفي متابعة للماضي القريب: لا يرتاب ذو بصيرة في أن الله تبارك وتعالى عندما يخاطب كل مؤمن ومؤمنة في كل زمان وبيئة بهذا الخطاب المثقل بندى الخير الناطق بسمو مرتبة الإيمان وأهله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ حاملاً إليهم التكليف بالصيام، وأنه فرض حتم كتب عليهم كما كتب على الذين من قبلهم — من حيث المبدأ لا من حيث عدد الأيام ووقتها — يكون ذلك إيذاناً بالارتباط الوثيق — كما أشرنا من قبل — بين القاعدة — وهي الإيمان — وبين ما يقوم عليها من تشريع وأحكام.

وقل مثل ذلك عن صلة هذه القاعدة التي هي الأساس المتميز المكين بهذه الفريضة، فريضة الصيام التي جعل الله أدامها احتساباً على الوجه الذي ينبغي: طريق المؤمن إلى أن يكتب في عداد المتقين الذين يخافون الله واليوم الآخر، ويخلصون النية فيما يأخذون وما يذرون، وكل همهم أن يكون الله راضياً عنهم سواء

أكان العمل من كمسب الجوارح أو كان من عمل القلوب ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وغير خاف أن الله مع المتقين، وأن الله ولي المتقين، وأنه سبحانه يحب المتقين، ومطلوب من المؤمنين أن يسارعوا إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

وإذا كانت هذه الكلمات الحبيبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التي لها أجمل وقع في نفس المؤمن والتي تتادي المؤمنين بالتكليف والعمل والجهاد: فيأضه بالكرم والمطاء والتذكير؛ إنها في الوقت نفسه ناظم المسؤولية الذي يعرف المؤمن مكانه من البناء في نفسه وفي المجتمع.

وكلما تكررت وتكررت: زادت معطيات المؤمن وقدرته على الحركة نماءً واتساعاً.

لذا كان من الواضح أن من حكم افتتاح الآية بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ — وقد أشرق بها الكتاب العزيز أريماً وثمانين مرة — عند الخطاب بأمر من الأمور: استعاشة قلوب المؤمنين وعقولهم، وتحريك همهم وتقوية عزائمهم على الاستجابة بكل رضى وطمأنينة دون أن يجدوا في أنفسهم أي حرج، وتذكيراً لا يحتمل شيئاً من اللبس أو الاحتمال المضاد: بأن من مقتضى الإيمان ومستلزماته: أن يكون المؤمن — بوصفه مؤمناً — وقافاً عند حدود الله، مستمسكاً بما جاء عن الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام في أي شأن من الشؤون دقاً أو جل.

انظرها يا أخي المؤمن، تدبرها، دقق في جنباتها، تخرج بمطيم النتائج، وموجبات التنبه العقلي واليقظة القلبية التي تسعف في تجاوز عقبات الفكر والعمل واقتحام معاقل الدعة والخمول.

إن هذا الارتباط المحكم بين التكليف والإيمان: قضية أكبر مما يتصوره الكثيرون، وينبغي أن تعمل عملها في واقعنا من جديد، على أي ساحة من الساحات التي اعترى الأمة نقص أدائها ونماء ما فيها من الخير، أو تقاوم ما ابتليت به من التخلف والضعف والوهن.

والفد الأفضل مرهون - بمون الله - بقراءة ذلك قراءة جديدة يشارك فيها العقل والقلب مشاركة حقيقية فاعلة، تثمر ما يتطلع إليه المصلحون من اقتحام عقبة التخلف المزري عن الإسلام، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .



البناء.. وشرعة الصيام

« ٣ »

كانت طويلة رحلة الإنسان على أرض الحيرة قبل أن يتأذن الله بالرسالة الخاتمة وحيأ على نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ولقد كان بيانه ﷺ للقرآن الذي أنزل عليه: بأقواله وأفعاله وتقريراته هادياً للأمة، مما بها إلى أن تكون معالم هذا الكتاب العزيز في العقيدة والعبادة وكل ما يكون من ضوابط التعامل بين العبد وربه وبينه وبين الآخرين، وبين الدولة المسلمة والدول الأخرى في حالات السلم والحرب، وكل ما يمت إلى ذلك بسبب: واضحة مستبيرة، وتفتح الباب للاجتهاد فيما لا نص فيه.

ولقد كان من توكيد النبي ﷺ لهذه الحقيقة قوله عليه الصلاة والسلام فيما روى أحمد وابن ماجه: «تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك». قال أبو الدرداء: «صدق والله رسول الله ﷺ تركمنا والله، على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء».

وهي واحد من المعالم القرآنية رأينا من قبل بعضاً من عطاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَقْوَنَ﴾ [البقرة: ٢١].

وأنت واجد أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه – وهو يؤدي الأمانة في إعداد المسلم الحق، ويربي الأمة على الوجه الأكمل فيما شرع لها من أحكام في العبادات وغيرها – لا يني يوجه المسلمين بعظيم بيانه إلى حيث يكون الصيام يريد أن تكون التقوى صفة ملازمة للمؤمن وسجية لا تفقد أثرها في جانب من جوانب السلوك وهو يمارس شؤون الحياة، وتلكم هي التقوى بمعناها الحقيقي الذي يتجاوز أن تكون دعوى بلا دليل.

كما يوجه — عليه الصلاة والسلام — إلى أن تكون فريضة الصوم عاملاً متجدداً في حياة المسلم يشده إلى القرب من الله دون مشقة أو عنت، ويُنمي في نفسه طاقة البناء ومشاعر الرغبة الصادقة في العمل المثمر في إطار من الأخوة الإيمانية — على تنائي الديار واختلاف الألسنة والألوان — كما يحسن صلته بكتاب الله صلة قادرة على إحداث النقلة — أن لو صدقت المزام — إلى ما هو الأفضل والأرضى لله تبارك وتعالى، خصوصاً وأن الصيام في بعض إشراقاته لون بارز من ألوان جهاد النفس، والدربة على أخلاق المجاهدين في ميادين القتال، أولئك الذين تترى إرادتهم على ترك المأكوف، والتنازل عما يحب أحدهم ويشتهي، إلى ما يحبه الله ويرضاه مهما كانت الرغبة عارمة والشهوة آخذة بالنواصي من هنا وهناك.

ولقد كان من البيان النبوي الكريم ما أوضح رسول الله ﷺ، من أن الصيام الحقيقي المرضي لله ليس أمراً آلياً قوامه الإمساك عن المفطرات الظاهرة من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس مع النية فحسب؛ فهذا الصيام يسقط الفريضة ويخرج من العهدة والله أعلم.

ولكن الصيام المقبول وراء ذلك، وبيان هذا: أن الصيام الذي يطلب أن يكون بريد التقوى، فتكون مرجوة التحقيق بالقيام به. هو قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ والذي يجعل من الصائم قوة بانية على صعيد الذات والمجتمع تسهم في تنمية عناصر الخير ومقومات الطمأنينة والاستقرار وكل ما هو من ذلك بسبب... هذا الصيام لا بد له من سياق كريم يصونه ويحول دونه ودون أن يُردَّ على صاحبه؛ ذلكم هو إمساك الجوارح عن كل ما يناهض أخلاق الإسلام وآدابه في العلاقات الاجتماعية وغيرها، ناهيك عن مراقبة الله عز وجل، وأن يحسب لكل تصرف حسابه كما هو في ميزان الهداية والحق.

وانتهاك حرمة هذا السباج ربما أدى إلى ضياع الصوم حقيقة عند الله، وإن كان قد استوفى شرائطه وأركانها في الظاهر. ألم تر إلى قول النبي ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح: «ليس الصيام من الأكل والشرب، وإنما الصيام من اللغو والرفث؛ فإن سبَّك أحد أو جهل عليك؛ فقل: إني صائم إني صائم، رواء الحاكم وصححه ووافته الذهبي».

وهي توعد لأولئك الذين يمسكون عن الطعام والشراب وغيرهما من المفطرات الظاهرة. ولا يصومون عن الأذى وإحداث القلق في المجتمع، ويسهمون في تمزقه وإضعافه: يقول الرسول ﷺ كما روى البخاري وأصعاب السنن: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» وفي رواية: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، رواء البخاري وأصعاب السنن».

وبعد: فهذا الهدي النبوي في ظل المعلم القرآني: يقفنا على صورة من صور البناء المتين المتكامل للإنسان والمجتمع في وقت معاً؛ لأن المفترض أن يصوم المكلفون كافة إذا انتفى المنذر من مرض أو سفر، وأن يكون كل منهم عند هذا الذي وجه إليه من لا ينطق عن الهوى، والمؤتمن على بيان الكتاب عليه الصلاة والسلام.

ولنتصور مجتمعاً تقوده عبادة الصيام إلى هذا النسيج المتماسك الذي ترتبط الأخلاق فيه بالمقيدة والعبادة الخالصة لله، كيف يكون؟!



شرعة الصوم.. والبناء

« ح »

كان من عطاء الله في صيام هذا الشهر المبارك أن نسيه - جل شأنه - إلى نفسه وأنه هو الذي يجزي به، مع أن العبادات كلها لله سبحانه وهو الذي يجزي بها، فلا عبادة إلا له، ولا توجه إلا إليه، وهو جل وعلا بيده العطاء والمنع ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]. ولكن حكمة عظيمة تكمن وراء هذه الخصوصية لصيام شهر رمضان، ما أحوج الأمة إليها، وهي تحاول أن تقهر الصعاب، وتحشد ما أعطاه الله من إمكانات على كل صعيد، كي تواجه مرحلة التخطي إلى ما هو الأفضل والأكرم إن شاء الله.

فالمسلم الذي سلم له صومه كما بين النبي عليه الصلاة والسلام بشره ربنا تبارك وتعالى ببشارة عظيمة هي ما سلفت الإشارة إليها. وذلك ما جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري من رواية أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال: قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة. فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب. فإن سابّه أحد، أو قاتله، فليقل إني صائم. والذي نفس محمد بيده تملأ من الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما؛ إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه».

الواقع أنني أذكر الحديث، وأعلم أن الكثرة الكثيرة من المسلمين يقرؤونه ويسمعون عن دلالته الكثير المبارك في هذه الأيام، ولكن حسبي الإباحة السريعة إلى الخصوصية التي نجدتها في تلك الكلمات النورانية لكل عمل ابن آدم له إلا الصوم

فإنه لي وأنا أجزئي به، فيم كان ذلك؟ وكل الأعمال التي يقوم بها المسلم — في مجال العبادة — كما ذكرنا في صدد هذا الكلام —: هي لله عز وجل وهو سبحانه الذي يجزي بها.

الواقع أن الصوم لا يقع فيه الرياء؛ فكل عمل من أعمال البر باعتبار أن له صورة إيجابية ظاهرة يمكن أن يدخله الرياء، والرغبة في الظهور أمام المخلوقين بمظهر التبتل والنسك. أما الصوم: فإنه إمساك وليس عملاً يظهر، فهو أقرب إلى عمل القلب منه إلى عمل الجوارح، إنه بالنية التي تخفى على الناس ولا يعلمها إلا الله عز وجل.

والصوم — كذلك — أمانة؛ فهو أمر بين العبد وخالقه الذي يعلم السر وأخفى، وفي مقدور كل امرئ أن يكون غير ممسك عن المفطرات ثم يدعي غير ذلك. والذي يعلم سره ومكتون نفسه وما توسوس به: هو الله الذي قال في كتابه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسِّسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. من أجل أن الصيام أمانة وأنه بعيد عن الرياء.. إلى وجوه أخرى ذكرها بعض العلماء. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الصَّوْمُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ﴾، فما دام لا يطلع على الصوم إلا هو سبحانه: فلتكن الإضافة إلى نفسه سبحانه. وقد جاء في بعض روايات الحديث «يدع شهوته من أجلي».

أما إذا لو فتحنا البصائر على نور هذه الحقيقة وحاولنا أن نفيد منها لواحقنا، لألفينا ثورة لا تنفد من الخير إن الأمانة والبعد عن الرياء زاد لا بد أن يصحب كل عامل على طريق هذه الأمة، مهما كان شأنه وتخصصه، وكم تعاني الأمة اليوم من فقدان الأمانة، ومن الرياء وحب الظهور.

أما ونحن نبصر هذه الخصوصية في رمضان من منظور جماعي: نجد لزماً أن تكون الأمانة والإخلاص لله نسخ الحياة في جيل نُعده لحمل أمانة البناء وتنمية الوجود الذاتي للأمة والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.



شرعة الصوم.. والبناء

« ٥ »

هي ظل المعلم القرآن من آيات الصيام، رأينا فيما سبق بعضاً من توجيهات النبي التي تجعل من الصيام عبادة مقبولة، ينعكس أثرها على الفرد والمجتمع، حين دعا عليه الصلاة والسلام - وهو المبين عن ربه ما أراد - إلى إمساك الجوارح عن كل ما ينافي أدب الإسلام وأخلاق البررة المتقين.

ويزيد الهدي النبوي هذه القضية بياناً، فيقول عليه الصلاة والسلام متوعداً أولئك الذين تتفصل العبادة عندهم عن السلوك، فيكون صيام النهار وقيام الليل عملاً مبتوراً عن خشية القلب، ومراقبة الله عز وجل، حتى تجد إمساكاً عن المفطرات هو بالتقليد الآلي أشبه، وحركات ليس فيها ندى الطاعة ولا حرقة الخاشعة... فيقول صلوات الله وسلامه عليه فيما روى أحمد وغيره: «رباً صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر».

إن هذا الإنسان غريب على بنية المجتمع المسلم كما أراد الله له أن يكون، وكما عانى بناءه المبلّغ الصادق عليه الصلاة والسلام، فهو يجوع ويظمأ وتحاصره شهواته نهاراً، وقد ينصب في القيام ليلاً، ولكن ليس له - ويا للحرمان - إلا جوع النهار وسهر الليل، إنه في واد، وقبول عمله في واد آخر.

ولا عذر لمعتذر بعد البيان الأمين ممن قال الله في شأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. تُرى أي صيام هذا الذي يدعيه الظالمون الطفافة، والمظاهرون لأعداء الله على المسلمين،

وأكلوا الحرام والمؤذون لعباد الله!! إنه - والله أعلم - صيام الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۚ﴾ (٤٢) مُهَيِّئِينَ مُقَنَّبِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْجَتْهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٣].

وهكذا تأخذ العبادات - ومنها فريضة الصوم - مكانها في عملية البناء الفريدة في تاريخ بني الإنسان؛ فليست هذه العبادة رسوماً وأشكالاً مقطوعة النصب عن الاستقامة في التعامل والسلوك، وليست امتاً أمة ملقوس وزخارف ورسوم، تهمل القلب وتُمنى - فحسب - بما تبصره العينان من الفن والشكليات، ولكنها أمة تحمل رسالة العبودية الصادقة لله عز وجل في إطار من البناء عماده الإنسان، ومحوره إعداد هذا الإنسان بدءاً من داخل النفس، وتنمية مشاعر الإنسانية ودواعي الفطرة فيه. والواجب في شرعة الإسلام أن ينمكس ذلك على تصرفاته وطريقته في السلوك؛ ليهتم التواؤم بين العلم والعمل وبين العبادة والسلوك.

فالتزام الشرعة في الوقت، والحركة، وطريقة العبادة: عبادة. وانتظام هذه الأمور ضمن دائرة من التكامل الذي يقوم على يقظة القلب ومراقبة الله عز وجل: عبادة أيضاً، فالمسلم - على سبيل المثال - يلتزم بالمدد المطلوب من الأيام في رمضان حسب رؤية الهلال، مع المجال الزمني للإمساك، لأن العمدية في تجاوز الفجر عند الإمساك أو الفطر قبل الغروب بأي زمن متصور: قاضية على صوم ذاك النهار، وهو درس في الأمانة والنظام ما بعمده درس، ولكن ذلك كله ليس منقطعاً - كما أسلفنا - عما توجبه سلامة البنية في المجتمع، وضمان استقراره في ظل أحكام الإسلام. والسعيد السعيد من انبعثت أعماله عن قلب يقظ، يفيض على الجوارح - وهو موئل التقوى - استقامة سلوك وإخلاص دين، وإذا صلحت حال الفرد وفق هذا المنهج المتكامل: صلحت - بمون الله - حال المجتمع. والبررة الأطهار الذين كتبوا تاريخ بدر، والفتح في رمضان، هم أولئك الذين أحسنت يد محمد ﷺ الصنّاع بناءهم، فكان ما كان على يدهم من النصرة والتمكين.

ولكم نكون على قدم الصدق والكرامة. حين نتخذ من شهر رمضان جسراً يصلنا بأولئك البناة الأمناء الذين عبدوا الله صائمين مجاهدين، صادقين ما عاهدوا الله عليه، وكانوا بذلك الترجمان العملي للإسلام الذي آمنوا به، وآمنوا بمن حمله إلى الدنيا وحيأ من عند رب العالمين.



شرعة الصوم.. والبناء الأمناء

« ٦ »

حين نفيض في الحديث عن قضية موضوعية برأسها، لا يجوز أن يصرفنا ذلك عن سير أولئك البناة الأمناء الذين كانوا في عملهم وسلوكهم الترجمان العملي لتلك القضية المطروحة؛ وما قلناه من مكان فريضة الصوم في البناء، وعن التوجيه النبوي الذي يجعل من الصيام عبادة مقبولة معبوءاً بها عند الله يجدها الصائم في ميزانه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وينظر المرء أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر قدأه فلا يرى إلا ما قدم..!!

أجل: ما قلناه في هذا الباب حريّ أن يحملنا على التعرف إلى بعض من أولئك الذين عمل التوجيه النبوي – والسنة بيان للكتاب – في نفوسهم عمله، وكانوا الترجمان العملي لما ينبغي أن تكون عليه العبادة، وجعل الله منهم أعلاماً في تاريخ الإسلام، يجد المسلم الواحد منهم صورة العمل المتصل بإرث النبوة، والدليل النير الواضح، على أن ما يهدي إليه القرآن ويؤنه الرسول عليه الصلاة والسلام: ليس أفكاراً تجريدية تستعصي على التطبيق، ولكنها توجيهات قيّمة جدٌ قيّمة في حدود واقع الإنسان في فطرته وقلبه وعقله وغرائزه ومشاعره كما خلقه الله.

وليس لقائل بعد هذا أن يقول: هذه أمور فوق طاقة البشر، وليست للعمل والتفكير، وإذا حصل ذلك من البعض: كان دليل التكاسل والقعود، وطلب العافية من العبادة ومستلزماتها. كما أن هذه التوجيهات المباركة – كما قلنا – غير مقطوعة النسب عن عملية البناء المتجددة في المجتمع وتنمية طاقاته كلها في ظل شرعة الحكيم الخبير، التي من عيون سماتها: وجوب التكامل بين عمل القلب وعمل الجوارح.

مر الحسن البصري - وهو من سادة التابعين رضي الله عنه - يقوم لاهين يضعكون ضحك غفلة في رمضان فقال لهم: «إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالمعجب كل المعجب للمضحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وغاب فيه المبتلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته» فالمحسن يشتغل بفرحته بما كان من فضل الله عليه بالقبول - كما أخبر النبي ﷺ - والمسيء يشغل عن طيب الثمرة حمرته وندامته لما ضيّع على نفسه من نفحات الخير في رمضان.

والأحنف بن قيس وهو من هو جهاداً وحصافة وتبصراً للأمور -: يقفنا على بقطة المسلم التي تحمل على الخشية والتطلع إلى حسن العاقبة والقبول. كان ذلك حين كان صائماً - صيام نافلة فيما يبدو فقالوا له: إن الصوم يضغفك، فقال: «إني أعدة لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه».

إن الذين استغنوا عن الشهوات والحطام هم الذين قدروا على أن يزینوا تاريخ هذه الأمة ويسهموا في بناء حضارة الإسلام.

وإذا شئنا أن تعود أمتنا إلى مسيرتها الأولى من خلال بقطة تواجه ما تواجه من التحديات والمعوقات: كان لزاماً أن نضع نصب أعيننا وعلى شكل منهجي نصدق في تنفيذه: أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وإذا توازر ذلك، وترجم إلى حركة داعية في دنيا الواقع: فحدث ولا حرج عما يكون من وافر الخير للفرد والجماعة، والأمة، وإنه ليرزق إلهي ماله من نفاذ!!



آيات الصيام منهجية البناء.. والتقوى

« ٧ »

إن الذي جلّى الوجه الحضاريّ لأمتنا على المستوى اللائق في ميادين الفكر والسياسة والاجتماع وغيرها .. هم أولئك الأفواج من جند الله عبر القرون المتطاولة. الصفوة الذين أحكمت الدعوة المحمدية بناءهم ظاهراً وباطناً؛ فوضعوا طاقاتهم وإمكاناتهم على طريق البناء المتميز للأمة، حتى أصبح أيُّ لون من ألوان النماء في تلكم الطاقات والإمكانات رافداً من روافد الخير والفلاح لمجتمعهم الكبير، وكان لهم من الوعي والإخلاص في الحركة، ما استطاعوا معه أن يدركوا ما عليه واقعهم، بعيداً عن التجربة والخيال، يأخذوا بيده إلى حيث الاحتكام إلى شريعة الإسلام ترعى بنورها شؤونهم كافة، ولمفاهيم الإسلام ترسم له منهج النظر والتفكير.

كما استطاعوا – وهم يُمنون بمخالطة المعارف الإسلامية في البناء وتنمية حوافز الرقي – أن يتلقفوا بكثير من الأمانة والوعي ما زخرت به أعصارهم من صنوف العلم والمعرفة، ومن ثمرات التجارب الإنسانية، وأن يهضموها ثم يقدموها – على صعيد النفع للأمة – من منظور إسلامي، ويجعلوها من رصيدها روافد لهذه الأمة تسهم في تشييد معقل الهداية والبر. وتمدّها بما يمود على قوتها بالنماء والإطراد، كيما تؤدي رسالتها في المالمين.

وليس من مكرور القول الإشارة إلى أن جند الله هؤلاء كانوا كذلك، وأعلى ما يميزهم تقوى الله عز وجل؛ فهم أحباب الله الاتقياء الأنقياء في كل ما ذكرنا – وهو قليل من كثير – والتقوى عندهم، وكما هي في المفهوم الإسلامي الصحيح: اجتناب

للمعاصي وأداء للفرائض واستكثار من النوافل، وجهاد في سبيل الله، مع إخلاص في العمل ومراقبة لله عز وجل في السر والعلن؛ كل في موقعه وإطار عمله وتخصصه، والشكر الذي أقامه الله عليه.

وهذا ما يذكرنا بما ختمت به أول آية من آيات الصيام في سورة البقرة من قول الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَقْوَى ﴿١٨٧﴾﴾

﴿لَكُمْ تَقْوَى﴾ هذه جعلها الله غاية سامية للمؤمنين ترتجي وتطلب من خلال صيام شهر رمضان إيماناً واحتساباً.

فلينظر المسلم في عظمة كل من الغاية والوسيلة؛ أرايت! لا لعلكم تتصفون بمنقبة التقوى فتكون سجية لكم، فتصبحوا وتمسوا والتقوى نور يضيء تصرفاتكم، وقوة باعثة على استقامتكم ونصرتكم لدين الله في أنفسكم وفيمن ولاكم الله أمرهم صادقين مخلصين.

إننا ونحن نسعد بالنظر في آيات الصيام من سورة البقرة نستنير بعطائها على ساحة البناء والمبتغى؛ يستوقفنا هذا الوجه من وجوه الهداية في هذا المعلم القرآني؛ لما أن التقوى ضمان أي ضمان لاستقالة الفرد، ولسلامة الحركة في خلايا المجتمع، عبادة، وتاملاً بين الناس، وتعاوناً على الخير، وتناصلاً أميناً بين الحاكم والمحكوم.

وعندما قال أحد الرعية للخليفة الثاني عمر رضي الله عنه: «اتق الله يا عمر» وقال بعض الحضور: المثل عمر يقال هذا الكلام؟ – يعني كيف يقال له ذلك وهو من هو في صدق إيمانه وعدله الذي أصبح مضرب المثل – قال الخليفة الراشد – في حرص على هذه الضمانة وترسيخ لمفهوم فذ من مفهومات الإسلام على الصعيد الحضاري – .. قال له: «دعه يقلها فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها» يعني سماع رضى يبعث على التطبيق والإنفاذ.

لقد كان عمر رضوان الله عليه – وهو يعلي على التاريخ هذا الموقف المشرق بوعي الحاكم المؤمن وقوته في الله – يتجه صوب الأحكام في البنية الحضارية وسلامتها. وأن يكون في عداد أحياء الله المتقين يقيم عدل الله في الأرض، ويحفظ التوازن بين حقوق الحاكم والمحكوم.

نقول هذا وعبير ليالي الشعر الميمون وأيامه يملأ على المؤمنين جنابات قلوبهم، ونور الطاعة صيماً وقياماً، وتلاوة وتدبراً لكتاب الله العزيز، يريح نفوسهم ويسمو بها إلى معالي الأمور والحرص على فعل ما من شأنه أن يقربهم إلى الله زلفى.

فليكن وراء ذلك صدق العزيمة في أن يكون شهر رمضان – بحق – رحلة بناء على قوة الإرادة في طاعة الله والجهاد في سبيله، ومصدر تنمية لأخلاق الصبر والأمانة والمراقبة، والحس المشترك بين المؤمنين في ظل العبودية لله عز وجل، والإخلاص في تلقي الخطاب الثري الندي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وما أجمل أن يبلغ صدق العزيمة مبلغه، فتصحب رحلتنا في الحياة أخلاق الصيام ومشاعر الصائمين الصابرين المقربين.

وإذا صدقت الوجهة وسلم للمؤمن التوكل، وأخذت النفس بأخلاق الفارين إلى الله، المشوقين إلى مرابع عطائه في جنات عدن: أمنت العاقبة – بفضل الله – وتحقق الفوز في الدارين.



القرآن.... وحراسة البناء

« ١ »

سبحان ربنا العلي الأعلى الوهاب، ما نظر المؤمن في واحد من معالم كتاب الله العزيز، إلا ازداد يقينه بسمة الآفاق التي ذكرت في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. والتي لا يرقى إليها مبلغ علمنا المحدود.

وهي ظل شهر الله المبارك، شهر القرآن، نتابع رحلتنا مع الحكمة التي تبدو - والله أعلم - من وراء عناية الكتاب الكريم بواقعة أولئك الأعراب الذين استسلموا خوف القتل والسيبي - كما توهموا - وطمعاً بالمغنم المادي، وزعموا أنهم قد آمنوا، ثم جاء الرد عليهم بأوضح بيان ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

ولقد كان الوجه الأول للحكمة كما أدى إليه اجتهادنا: التحديد الموضوعي للمواقف وأصعابها، بحيث يتضح على طريق الدعوة المثقل بالأعباء والمسؤوليات: من هم المؤمنون حقاً ومن هم الذين لم يرقوا إلى هذا المستوى؛ كما يوحى به قوله جل وعز: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وهي نظرة تتجاوز الأولويات إلى شبرها: نجد أن من الأمور المتعلقة بالحكمة أيضاً: إعطاء الأولوية لقضية البناء الكبرى التي بدأها رسول الله ﷺ من أول يوم أشرقت فيه جنبات مكة بالوحي، وأذن الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، أنه المؤمن على رسالة الله للناس، ثم تعليم المسلمين قيمة هذه القضية على سلم الأولويات، وما هي المؤشرات التي تؤهل لحمل العبء والقدرة على البناء؟.

من أجل هذا: كان طبيعياً أن يصعب عملية البناء حرصاً على مضمون الرسالة أن يساء فهمه ويلتبس منهج النفاذ إلى تطبيقه، أو أن يتلون بالترغبات والأهواء تصوُّره، الأمر الذي يمرق المسيرة، ويموق أطراد النماء في صلة المؤمنين بالرسالة ويكل ما فيه من الطاقات لتحويل المبادئ والقيم إلى وجود عملي يتحرك في ميادين العلم والتشريع والأخلاق، والترجمة عن ذلك بمنهج، وخطط مرحلية تؤذن بالمخالطة العقلية والقلبية للرسالة، والإحاطة بالواقع كما هو، والصدق في التنفيذ.

أجل: إنها قضية البناء الفريدة في تاريخ البشرية؛ فالقرآن - وقد ائتمن رسول الله على بيانه - يهدف إلى بناء الإنسان في قلبه وعقله وجسمه ومشاعره بناءً يحمل كل سمات التكامل والتوازن والعمق، كيما يكون على مستوى حمل الرسالة، كما يهدف القرآن كذلك إلى بناء المجتمع على النهج الذي رسمته تلك الرسالة الريانية الهادية، على الوجه الذي يصل بالمسلمين إلى أن تكون منهم أمة صادقة الانتماء إلى ما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام، جديرة أن تبرز إلى دنيا البشرية بوجه حضاري يتالق بالإيمان ولا يهمل المعرفة، ويضع الإنسان حيث كرمه الله ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وتبدو الحاجة ملحةً إلى تأكيد ما سبقت الإشارة إليه من تلك البهدية التي تقوم على أن الإيمان هو قاعدة البناء في كيان الأمة وخصائصها الذاتية، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسعة المدلول لكل منهما، وفي إطار ما لهما من أبعاد عميقة وشاسعة لا تحجز عن ميدان من الميادين في المفهوم الإسلامي الصحيح: هو حراسة ذاتية من قبل الفرد والجماعة لقيم الإسلام التي تحكم الفرد والمجتمع والدولة، ورعاية تتبع من داخل النفس لبنية المجتمع أن يطولها الأذى، ويحول دونها ودون أن يلازمها أطراد النماء.

إن جيلاً يصل ما انقطع بين الأمة وبين منهج البناء الذي كانت به خيراً أمة
أخرجت للناس، هو الذي يجب أن تتضامن جهود العاملين في كل المستويات على
وجوده الذاتي في إدراك لطبيعة المتغيرات وتمدد وجوه التحديات.



القرآن.. وحراسة البناء

« ٢ »

ما سبق في كلمات قريبات له رافد لا بد منه؛ خصوصاً حين نكون حريصين على أن نهتدي بهدي الكتاب الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام من أجل واقع الأمة، وتحويل مشاعرنا نحو الإسلام إلى عمل ينطق بسلطانة الإسلام والاحتكام إليه على كل صعيد.

ذلك الرافد: هو أن ما ألمحت إليه من حراسة المجتمع من الداخل: قائم على أن كل ما عرفه الشرع والعقل وكان موضع الاستحسان: فهو معروف، وكل ما أنكره الشرع والعقل: فهو منكر، ولا تخالف بين حكم الشرع وبين العقل السليم، وإذا حصل التخالف ففتش عن سلامة العقل أو عن وجود العلم.

هذه واحدة: وأما الثانية: فهي إيضاح لما أشرت إليه من أن أبعاد كل من المعروف والمنكر لا تحجز عن ميدان من الميادين، أي أن عملية البناء الفريدة في تاريخ البشرية، التي كانت – كما تدل النصوص والوقائع من عطاء الرسالة المحمدية – لم تفرق بين ساحة وساحة، أو بين ميدان، وميدان، في تناسق فريد بين الفاية والمنهج؛ ذلك بأن شمول الإسلام لكل شؤون الحياة على النهج الذي يسعد الإنسان في دنياه وآخرته، تجعل المعروف معروفاً ضمن هذا الشمول حين يتسع ويتسع، فيجعل إمطة الأذى عن الطريق واحدة من شعب الإيمان، تلك الشعب التي بلغ من وفرتها في بيان النبي عليه الصلاة والسلام أن تكون بضماً وستين أو بضماً وسبعين شعباً، كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعباً أعلاها كلمة لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»، كما تجعل المنكر منكراً ضمن هذا الشمول أيضاً حين يتسع ويتسع، فيجعل الجناية

على حيوان ضعيف كالهرة سبباً في دخول النار، ذلكم ما أخبر به النبي ﷺ كما ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم – من أن امرأة ممن كان قبلنا دخلت النار بهرة حبستها لا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض ولا هي أطعمتها .

وإذا كان بنو إسرائيل قد لُعِنوا بأنهم كانوا لا يتأهون عن منكر فعلوه، فإن هذه الأمة – وهي تنفق من الجهد والوقت والمال الكثير الكثير في مواجهة فتن اليهود وأعدائهم – جديرة أن تحدد مسيرة تجديد بنائها الذاتي في مواجهة التحدي على هدي مفهومات الإسلام – كما هي في معالم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ثم ما فهمه أئمة الهدى منهما – وعندها لا ينحسر مفهوم المعروف حتى يلتصق بزاوية لا تُرى في المجتمع، كما لا ينحسر مفهوم المنكر حتى يصبح كأنه من القضايا المنسية، أو التي تتعلق بجانب واحد من جوانب الدين – كما يفهم أصحاب الأهواء – لا تتعداه.

إن صورة مشرقة من صور الشجاعة الأدبية تنقص الكثير منا في مختلف الميادين – حيث يحملنا حب العافية – غالباً – على أن نتهاون – ونحن نُعدُّ لبنات البناء أو دعائم صيانتها – بما هو عنوان أصالتنا، والسمة المميزة لوجودنا عبر التاريخ.

وما أحسبني بحاجة إلى مزيد من البيان: فالوقائع ناطقة بالأحداث شهود.

وهي خاتمة المطاف: لئن كانت الحراسة القوية للمجتمع المسلم تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأبعاد التي أشرنا إليها: إن الحراسة القوية المتميزة من الخارج: كائنة بالجهاد في سبيل الله. وكل ذلك مرتبط بالقاعدة الأولى للبناء وهي الإيمان وتقوى الله في العمل بمقتضاه، وحين يصوغ المؤمنون مقتضيات الإيمان ومستلزماته عملاً ينتج، وحركة تدفع بالأمة إلى ما هو الأفضل مع الحراستين الداخلية والخارجية، تطمئن النفس إلى البناء وضمان استمراره وتعاظمه كما يشاء الله، والنماء في هاعلية أبنائه.

هل لي بعد هذا أن أقول: إن فريضة الصيام من عيون الركائز في بناء الإنسان المسلم على القوتين الروحية والجسمية وتنمية الحس الجماعي عند المسلمين؟ وهل نعمل على أن لا تكون الأمة حبيسة المناسبة كل عام وكفى؟.

صورة أخرى من العهد المكي.. الترغيب الأخروي

من إجاز القرآن الكريم: أنه لا يدع باباً من أبواب الخير يوصل إلى المبتغى في شأن قضية من قضايا العقيدة، أو الشريعة، أو الأخلاق والسلوك – أمراً أو نهياً، ترغيباً أو ترهيباً، من طريق العبارة في القصة أو المثل أو غير ذلك – إلا ولجه، وكل ذلك بأسلوب فذ يتناسب كل التناسب مع القرض الذي من أجله كان الكلام، ويتسق كل الاتساق شكلاً ومضموناً، وفي الأحوال كلها، مع الهدف الكبير وهو الهداية بمعناها الاصطلاحي الأعم، فالقرآن الكريم كتاب هداية يهدي للتي هي أقوم.

أقول هذا بعد أن عرضنا – في مناسبة سبقت – لمجموعة من الآيات المباركات التي تنزلت في العهد المكي في مواجهة ما كان يعانيه المجتمع من مظالم تسيء إلى بنيته، وتعمق قدرة الفرد والجماعة فيه عما يفترض من المعطاء ومنها ما جاء في سورة الماعون.

كان ذلك بجانب المعركة الكبرى معركة التوحيد في مواجهة الوثنية والطواغيت، والأعراف الجاهلية الناجمة عنها. وقد رأينا هنالك ألواناً من وجوه الهداية في أسلوب القرآن الكريم: دلت – مع الإعجاز – على أن المجتمع الذي يقوده الإسلام قادم – بمون الله – وتأهيل بُناته حاصل على سلم الهداية.

بقي أن نذكر أن القرآن سلك – فيما سلكه – لتجفيف تلك المستنقعات الآسنة التي كان من مظاهرها: قهرُ اليتيم وعدمُ الإحسان إليه، وانصرافُ المجتمع عن أن يبحث بعض أفرادها بعضاً على طعام المسكين، لأنهم لا يفعلون ذلك فضلاً عن أن يطعموه، والتقصير في صلة ذوي القربى وأداء حلالهم من حقوق... إلخ، سلك لذلك

سبيل الترغيب بعمل الخير: إحساناً إلى اليتيم، وحصناً على طعام المسكين، ليكون لأولئك العاملين على هذه الشاكلة — بإيمان — ما لأولئك الأبرار عند الله من النعيم المقيم في الجنة التي لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ففي سورة الدهر: ذكرت الآيات ما للأبرار من نعيم الجنة، ثم أتت على زمرة خيرة من الأعمال الصالحة التي قدموها بين يديهم زاداً للأخرة، فكانت نوراً يسمى بين أيديهم وبإيمانهم: ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَنَّا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝﴾.

ثم تذكر الآيات أن هذا الذي صنعوا كان لوجه الله، لا لغرض يبتغونه من أغراض الدنيا... إنهم يخافون الله واليوم الآخر ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَمًسًا قُمْطَرِيرًا ۝﴾ وكان الإكرام الإلهي بوقايتهم شر ذلك اليوم، وإدخالهم الجنة ﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝﴾ [الإنسان: ١١].

وإذا علمنا أن سورة الدهر سورة مكية أيضاً، أدركنا غرضاً من أغراض القرآن بهذه العناية المبكرة في عمر الدعوة بشؤون المجتمع، والكشف عن الشوائب، وإعطاء المؤشرات لقضية البناء الكبرى، وتحويل الإمكانيات المبعثرة هنا وهناك، إلى طاقات فاعلة مؤثرة، وعدم حرمان المجتمع من أية قوة مهما كان شأنها.

وفي رحلتنا عبر السورة التي ذكر فيها الماعون وما ولي ذلك من مراحل مقررة ومؤكدة — كان منها الترغيب الأخروي في سورة الدهر —: ما يؤكد ضرورة تعميق المشاعر الإيمانية عند الفرد، وتنمية الحوافز الذاتية عند، بحيث يجمع إلى بذل الجهد والمنهجية في العمل: تطلماً صادقاً إلى ما عند الله الكريم المنان، وما وعد عباده المتقين في الآخرة، ولا يخفى أنه إذا حصل ذلك: هانت الصعاب وانحلت العقدة الكبرى.

وإشارة لا بد منها.. إلى العهد المدني

لقد كنت عازماً على أن أتوقف عند الذي رأينا من تباشير الوجهة الإسلامية في بناء المجتمع من خلال عدد من معالم الكتاب المميز في العهد المكي وفي العهد المدني، وأترك الكلام على الخطوط العامة في العهد المدني بعد أن أصبح للدعوة سلطان تسوس به المجتمع بأحكام الإسلام إلى فرصة أخرى، ولكن الرغبة في التكامل حملتني على أن أعاود الإشارة – ولو بإيجاز لأن الأمثلة تكاد تميز على الحصر – إلى هذا الذي حارب فيه الإسلام تلك المظالم الاجتماعية التي كانت جاثمة على صدر المجتمع في الجاهلية، وما أرسى من قواعد أحسنت إحكام العلاقة بين الحقيقة وبين رحلة البناء في حركة الفرد والجماعة، وبث الحياة في كثير من الطاقات التي عطلها الظلم الاجتماعي وفساد العلاقات بين الناس في تلك المجتمعات التي كانت ترزح تحت سلطان الجهالة والضياع.

وما نحن أولاء ننظر في هذا الجسر المبارك الممتد زمنياً بين السورة التي ذكر فيها الماعون وما جاء في سُورِ الإسراء، والروم، والقلم، والحاقة، والمدثر، والفجر بشأن الفقراء واليتامى والمسكين، وما يتصل من ذلك بسبب، وبين الآيات المدنية لنرى ما جاء حول ذلك الأمر الجلل في تلكم الآيات التي تنزلت في العهد المدني، وكيف أن ما جاء في العهد المكي ومع بداية التحرك الإسلامي: كان بداية الطريق، طريق الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي وغيرهما في ظل هداية الكتاب المميز ومعالمه المضيئة المباركة.

ولعل من الخير أن أذكر بما قلته سابقاً من أننا عندما نتحدث عن معالجة القرآن للمظالم التي كانت تنزل بالفقير والمسكين واليتيم ومن على هذه الشاكلة، لا يعني ذلك حرص الإسلام على بقاء المسكين – مثلاً – على حالة لا يريم فيها عن الفقر والموز!! لا – بل العكس هو الصحيح – ولكنه علاج الواقع بدافع من الحقيقة وامتنال المكلفين لأوامر الشريعة التي كرمت الإنسان.

وإذا كانت شريعتنا توجب أداء الحقوق لأصحابها من ذوي الحاجات، لأن ما يملونه حق في المال وليس تفضلاً؛ فلأن يجري العمل على تضيق هذه الدائرة ورفع مستوى المعوزين بحيث تدفع حاجتهم، ويسهمون في بناء المجتمع وهم كذلك؛ يكون أولى، وأحرى بمرضاة الله عز وجل، والتناسق مع أهداف الإسلام الإصلاحية في البناء.

أولم يحصل في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز - يرحمه الله - وقد تولى الخلافة بعد ثورات وهنات - أن نقرأ من عماله شرعوا يشكون إليه أنهم لا يجدون فقيراً يملونه الزكاة، لما أن الأمور سارت سيرها الطبيعي، وبلغ الاستمساك بأحكام الشريعة وأدابها في التعامل مع من هم بحاجة إلى المعاونة والإحسان؛ أن لا يظل في المجتمع من هم على هذه الحال من الفاقة والمعوز، وتحولوا بفعل التعاون المجدي ابتغاء مرضاة الله إلى طاقات طاعلة تأخذ مكانها في مجتمع العقيدة وأخوة الإسلام^٩.

وأنه عندما خاف بعض عماله على نقص الموارد بسبب دخول كثير من غير المسلمين في الإسلام أجابه بعزم منور بنور الدعوة إلى الله: «إن الله أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جابياً»^{١٠}.

وهي عود على بدء: علماً بأن المقام ليس مقام تفصيل - فلذلك مواطنه ومطانه، ولكن بإشارة سريعة لا غنى عنها، ونظرة عجل - يرجى أن تؤدي غرض التنبه إلى ما بين العهد المكي وبين العهد المدني من صلة امتداد وتكامل فيما نحن بسبيله من قضية البناء الكبرى - نرى في الآيات المدنية عدة شعب كريمة تتعلق ببنى المجتمع وإقامتها على صورة تضمن القوة والاستمرار، وفي هذه الشعب ما هو وثيق العلاقة بتلك الأصناف من أبناء المجتمع من حيث الرعاية الدائمة، والعمل على تأهيلهم للخروج إلى مستوى العطاء والقدرة على الإسهام في البناء المطلوب.

فمن شعبة ترتبط بتشريع الزكاة، وشعبة تكشف عن تشريع الغنائم والفيء، وما إلى ذلك، وأخرى ترتبط بتشريع الكفارات وما إليها، ناهيك عن تلك التي عبّادها القرض الحسن، وإنظار المعسر، والإنفاق في سبيل الله وإغاثة الملهوف، ومعاونة من تجب معاونتهم، على اختلاف العناوين والأوصاف. ولا تسئل عن تلك الشعب التي تتعلّق بصنوف من أعمال الخير التي منها صلة الرحم، وأداء الحقوق، وتلمس طرق الخير هنا وهناك؛ كل أولئك بباحث من الإيمان والتصديق بما وعد الله عباده المنفقين المحسنين.. وهكذا ولست بسبيل الاستقصاء^{١١}.

ففي سورة «التوبة» — مثلاً — تحدّد مصارف الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام ومن هذه المصارف: الفقير والمسكين وابن السبيل؛ ذلكم قول الله جلّت قدرته: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٩٠ ﴾.

وهي شأن الغنائم وأصحاب الحق فيها: نقرأ في سورة «الأنفال» قول الله جلّت حكمته: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أُنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْنَا يَوْمَ الْقُرْآنِ يَوْمَ تَتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤١ ﴾. أرايت إلى موقع اليتامى والمسكين على هذه الساحة؟.

وهي شأن الفيء وسعة مساحة العطاء حتى لمن يأتون من بعد: تطالعنا سورة الحشر بقول الله سبحانه: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧ ﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَبْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ٨ ﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ قَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٩ ﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠ ﴾.

إنها الأحكام التي تخالف الحياة، فتعمل بمنهجية لا يميزها التكامل على إنشاء واقع تحكمه ضوابط رسالة الإسلام وأخلاق الإسلام؛ فيكون المجتمع الأمثل الذي يجمع إلى إحكام البنية الحضارية: روح الطاعة الخالصة لله.

وليس من مكرور القول التقبیه على ما يجد الناظر في كل من أحكام الزكاة، وأحكام الغنائم والفيء: من أن ما يعطاه الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل – كما هو في الغنائم والفيء – حق لازم ينأى عن التفضل والاختيار ﴿وَلِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (١٦).

ولا يخفى ما لارتباط هذه الأحكام بكلام الله عز وجل: من أثر في طمأنينة الفرد وإحساسه بكرامته، وفي تميته حوافز العمل الخير في أعماق نفسه، كما لا يخفى انعكاس ذلك على بُنى المجتمع الثقافية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية.

ثم إنه ما بد من تذكر أنه مع تطور الحياة والأعراف: تنوعت الحاجات ومواقعها وأساليب سدّها؛ والمهم أن تكون لدينا العزيمة الصادقة في أن تأخذ الحقيقة التي ندندن حولها، مكانها الطبيعي في بنية الحياة الاجتماعية محسنيين تصور ما لذلك من أثر على البنية الاقتصادية وغيرها.

والشريعة بحمد الله يسرّ ويعد عن الحرج؛ ففي شأن الزكاة مثلاً أي صنف من الأصناف المذكورة في الآية وجد: يُعطى، وإن لم يوجد: ففي غيره خير وبركة، وعلى سبيل الإيضاح: تنص الآية على واحد من مصارف الزكاة – وهو المؤلفة قلوبهم – أولئك الذين كان يتألفهم رسول الله ﷺ والدعوة لم يشتد ساعدها بعد: فالآية تنص على أن يعطى هؤلاء جزءاً من الزكاة وفي عهد عمر رضي الله عنه، توقف هذا المصروف من مصارف الزكاة: لأن عمر – ومعه أهل الحل والعقد – لم يجد ما يسمى «بالمؤلفة قلوبهم» ولا تلتفت إلى المستغلين والمتجاهلين الذين يزعمون أن الفاروق رضي الله عنه عطّل النص وهو من ذلك براء، وما فعله كان الفقه كله، والتدين الصادق كله في هذه المسألة والحمد لله.

البناء.. والتنبيه المبكر وسورة الماعون

« ١ »

بداية التحرك الإسلامي، تطل تباشيرها على أرض الجزيرة العربية – وسمركة العقيدة هي الممركة – والدعوة جادة في هدم الوثنية واستئصال آثارها المدمرة من النفوس، والتمكين لعقيدة التوحيد التي راحت تواجه – مع عبادة أوثان لا تضر ولا تنفع – خضوعاً لموروثات جاهلية تعمل عملها – على كل صعيد – في إفساد العقول والقلوب، وعكوهاً على شتى الصور من الكهانة والمرافة والخرافة، وتقليداً أعمى للأباء والأجداد ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؛ الأمر الذي يعطل عمل العقل ويبعث على الكسل الفكري والاسترخاء النفسي، ويلقي على الفطرة ستاراً كثيفاً من الموقفات.

والوحي يتنزل على رسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه، والآيات المكية لا تتي تدعو المشركين إلى إعمال عقولهم ونبذ التقليد الأعمى، وأطراح الأعراف التي تحل وتحرّم وفق الأهواء الجاهلية، والتفكر في آيات الله في الأفاق وفي أنفسهم، والنظر إلى حكمة الخلق في الكائنات من حولهم، وتوجيه أنظارهم إلى ما حصل للأمم السابقة مع رسلهم؛ حيث فاز المصدقون المستجيبون للدعوة الهادية برضوان الله، وأصاب الأخرين القوارع، ونزلت بهم صنوف العذاب والتنكيل جزاءً بما كانوا يصنعون، والوعيد بما سيكون مصير الكافرين يوم القيامة، وإقامة الأدلة على أن هذا اليوم واقع لا محالة، والرد على تغرصات المتنتين حول إمكان وقوعه.

ومن المهم حقاً: أنه مع بداية هذا التحرك – والحال كما وصفنا بعضاً من مظاهرها وصورها – وجدنا نثارات من الضياء تهدي فيما تهدي إليه: أن الاهتمام بآمر العقيدة الريانية وإزالة الركام الوثني من نفوس الأفراد وبنية المجتمع: إنما كان

بداية الطريق لبناء مجتمع فاضل أمثل على أساس من هذه العقيدة، يتسم بالتراحم والتعاون على الخير بعيداً عن أوضاع الجاهلية، ويمنى شديد العناية بتنمية طاقات أبنائه في ضوء مقاييس الهداية والبر التي تطرحها الكلمة الطيبة، «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ألم تر إلى ما تشرق به سورة «الماعون» التي تنزلت على قول الأكثر في هذا العهد المبكر من عمر الدعوة: من تنديد بمن يكذب بالمعاد والجزاء والحساب، ويتخذ موقفاً ناهياً من التعاون على البر والإحسان إلى الضمفاء؛ فهو يدعُ اليتيم: يدفعه بعنف عن حقه بدل أن يواسيه ويحسن إليه ولا يقتصر على عدم إطعام المسكين، بل لا يحضُّ على ذلك إن لم يتوافر له القدرة على الإطعام.

ثم انتقلت السورة — على وجازة كلماتها وهذا من الإعجاز — إلى التنديد والوعيد بالويل لأولئك المصلين الساهين عن صلاتهم الذين يراؤون، ويغفلون أيديهم عن فعل الخير وتقديم المعونة لإخوانهم في المجتمع.

ذلكم قول الله جل وعز: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۚ﴾ (١) ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ (٢) ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (٣) ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٥) ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ﴾ (٦) ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٧) ﴿﴾.

وحصول هذا الذي نوميء إليه من الاهتمام بحسن التعامل بين أبناء المجتمع، ووجوب أن لا يكون اليتيم أو المسكنة سبباً في عزلة نفسية قاهرة، وحرمان لهذا المجتمع من عطاء هذا اليتيم أو ذلك المسكين.. إن حصول هذا الاهتمام — مقترناً بقضية كبرى من قضايا العقيدة وهي الإيمان بالجزاء والحساب، وفي عهد مبكر من عمر الدعوة، والفتنة عن الدين تطارد كل من آمن بالدين الجديد، وكلمة الحق مضطهدة محاصرة.. — ذو دلالة بعيدة المدى، ومغزى عميق يشعر بهذه الوحدة بين العقيدة والسلوك وبين إحكام بنية المجتمع على قوة الحق والعطاء في منهج الإسلام.

فمن أول يوم تمهّد الأسس – وحيأ من عند الله – لا لبناء الفرد فحسب، ولكن لبناء الجماعة والمجتمع وإن كان الوقت لم يعن لبروز هذا المجتمع إلى حيز الوجود، ومع البناء إشعار الفئة القليلة المؤمنة: أنها بإيمانها وصبرها على تمثّل الدعوة التي تدمى الأقدام على طريقها، إنما تتجه نحو إنشاء ذلك المجتمع الأمثل القدوة، طال الزمن في تحقيق ذلك أو قصر. وكل حركة في هذه الحقبة المبكرة اليوم سيكون لها الصدى المؤثر في قادمات الأيام إن شاء الله. وهذا ما حصل ولله الحمد والمنة.

وهكذا لم يكن بعيداً عن التصور في عقل المسلم وقلبه: أن الحال التي كانت عليها الفئة القليلة المؤمنة، هي مرحلة على طريق طويل بدءاً بالإيمان والصبر على مقتضياته، وسوف ينتهي ببناء المجتمع المسلم والدولة المسلمة في الدنيا، وبالظفر بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين في الآخرة.

من أجل هذا كان مطلوباً في ظل الدعوة الخيرة التي يصيرون ويصابرون تحت رايتها أن تحافظ الجماعة على الطاقات الفاعلة كلها، كيما تكون في خدمة الفرد والمجموع على حد سواء، وهذا لا ينافي أن الإنسان هو المحور دائماً في موضوع كهذا. وكون القاعدة التي يراد أن يبنى عليها المجتمع: هي الإيمان بنوره الوضأ وفعالته البانية المؤثرة: أمر واضح ينفي أي واحد من تلك التفسيرات المادية التي تحاول أن تخضع ما حصل قبل قرون وقرون، لضوابط لا تمت إلى الإيمان القلبي والروحانية بصلة. وفي ذلك ما فيه من الطاعة للهوى والجهل بطبائع الأشياء.

ثم إن جعل المادة هي المحور في مثل هذا الموضوع العميق الجذور المتشعب الأطراف، وما كان له من أثر في التبدل الحضاري: يدل على انتماء التفسير المادي للتاريخ والوقائع: إلى اليهودية والفكر اليهودي.

ولنا عودة إلى المعلم القرآني الذي نسمع بالرحلة معه، وما يحمل من الدعوة المبكرة إلى بناء المجتمع بناءً متكاملأً، وتنمية طاقاته البشرية والمادية في ظل عقيدة التوحيد.

البناء.. والتنبيه المبكر وسورتا الماعون والضجر

« ٢ »

نعود – والعمود أحمد – إلى السورة التي يذكر فيها الماعون، والتي رأينا – ونحن نجمل القول في معناها العام: أنها – على وجازة كلماتها – تؤذن بالبداية المبكرة لعملية البناء الكبرى؛ فقد طلعت علينا – وهي سورة مكية عند الأكثر – بالمعلم القرآني الذي يوحي بأن التمهيد لبناء مجتمع أمثل يتكافل أبناؤه ويتضامنون على أساس من عقيدة التوحيد: ظهرت تباشيره منذ العهد المكي أي في حقبة مبكرة من عمر الدعوة، وقبل أن يكون للفئة القليلة المؤمنة سلطان يخضع معه المجتمع لعقيدها وتسوسه بشريمة تنتمي انتماءً جزئياً إلى تلك العقيدة، وأنى لها ذلك في تلك الحقبة والأذى يطارد أفرادها من هنا وهناك، ومحاولة الفتن عن الدين بوسائل لا تمت إلى المعنى الإنساني بصله قائم صباح مساء! وهذا نص السورة المباركة مرة أخرى.

يقول الله جل وعز: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ ﴿٦﴾ وَيَتَّبِعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

إن هذه السورة بآياتها القصار الست: تجعل الذي يكذب بالدين وهو يوم الميعاد والجزاء والحساب: هو الذي يقهر اليتيم، ولا يطعمه، ولا يحسن إليه؛ وليس هذا فعسب: بل يظلمه حقه ويؤذيه. والمراد باليتيم: الصبي الذي مات أبوه، وتعريفه هنا للجنس أي يدع اليتامى، وكذلك تعريف المسكين كما سيأتي.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد من استبدال الأذى والظلم بالعطف والإحسان: بل إن هذا المكتوب بيوم الحساب والجزاء: يبلغ من نكده وسوء تعامله أن لا يقتصر على عدم إطعام المسكين، بل لا يحضُّ على ذلك أيضاً، علماً بأن هذا المسكين تبلغ به الحاجة أن يكون من القمر بحيث لا شيء له يقوم بأوده وكفايته. على أن نفي الحض على إطعام المسكين: نفي لإطعامه بطريق الأولى.

والذي نراه في هذه السورة المباركة من التنديد بهاتين الخصلتين عند بعض الجاهليين يذكرنا بالنظير في قوله تعالى في سورة «الفجر» — وهي سورة مكية أيضاً —: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَعَاوَنُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٨)﴾.

ففي هاتين الآيتين: خطاب واضح للمشركين بأنهم لا يكرمون اليتيم ولا يأمر بعضهم بعضاً — عن طريق الحض — بالإحسان إلى الفقراء والمساكين.

وما قلناه من قبل عن إرادة الجمع باليتيم والمسكين: يقال هنا: لأن المراد جنس اليتيم، وجنس المسكين: فليس المقصود يتيماً بعينه، ولا مسكيناً كذلك، ولكن المراد تبيان هذه الحقيقة وهي أن عند هؤلاء المقصودين: هذه الخليقة السيئة الهابطة في التعامل مع اليتامى والمساكين.

ومن بديع النظم في الكتاب المميز الذي تؤدي بلاغته المعجزة وظيفة إثارة الاهتمام بما سيُلْقَى، وإشعار القارئ والسامع بالأهمية البالغة للموضوع الذي تتناوله الكلمات، وشده إلى التعجب من صنيع من يقع في المساءة ويجترح ما يتنافى مع العقل السليم والحق.. أقول: من بديع النظم في هذا القرآن: أن السورة بدئت بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾ خطاباً للنبي ﷺ بهذا الاستفهام المثير المشوق.

فأنت واجد أن الاستفهام — كما يقول العلماء — في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ مستعمل في التعجب من حال المكذبين بالمعاد والجزاء، وما أورثهم هذا التكذيب من سوء الصنيع في تعاملهم مع اليتامى والمساكين؛ فالتعجب واقع من تكذيبهم بالدين وما تفرَّع عليه من قهر اليتيم وظلمه حقّه، وعدم إطعامه والإحسان إليه، وعدم الحض على طعام الفقير الذي لا شيء يقوم بأوده وكفايته.

وقد صيغ هذا التعجب من حال هؤلاء المسيئين - اعتقاداً وسلوكاً - مع الآخرين: في نظم مشوق؛ لأن الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول وهي «يَدْعُ الْيَتِيمَ» ﴿١﴾ ولا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٢﴾. يذهب بذهن السامع مذاهب شتى في تعرف المقصد بهذا الاستفهام الذي صُنِّرَ به الكلام.

وإنما كان ذلك: لأن التكذيب بالمعاد والجزاء شائع فيهم - وما أكثر ما حجَّهم القرآن الكريم ببراهين وقوعه - فلا يكون هذا التكذيب مثاراً للتعجب، وبذا يترقب السامع ماذا يرد بعده، وهو قوله: «فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ» ﴿١﴾ ولا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٢﴾.

ولا يخفى أن في الكلمة القرآنية الهادية في هذه السورة المباركة: تنبيهاً على فساد ما عليه أولئك المكذبون بالمعاد، وأن هذا التكذيب حملهم على ما يقترفون من سوء الصنيع مع من تجب معاونتهم والإحسان إليهم، لأنهم من أولى الناس بذلك. إنه السلوك المشين، وفقدان الحس الجماعي بمعل الخير، مع أن حال كل من اليتيم والمسكين يستدعي غير الذي كان يصنع هؤلاء المكذبون بيوم الدين.

هكذا تكشف سورة الماعون عن بعض مظاهر الفساد والظلم في المجتمع الجاهلي، بهذا الأسلوب الرائع المثير للسليم من العقول.

وقد سبقت الإشارة إلى ما يؤكد وجود تلك المظاهر من سورة «الفجر»، غير أن الكلام في هذه السورة سورة الماعون جرى مجرى الحديث - كما أسلفنا - عن جنس الذين يكذبون بالدين، ويسيهئون للهِتَامِ والمساكين في الطابع العام، فجاء اللفظ مفرداً «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ» ﴿١﴾...

وهي سورة الفجر خوطب القوم جماعة وبأسلوب رادع زاجر «كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ» ﴿١٧﴾ ولا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ ولكن في السورتين: اللفظ مفرد والمراد الجنس.

ومهما يكن من أمر: فالافتقار واضح بين التكذيب بيوم الدين، وبين تلك الأخلاق الذميمة التي هي عنوان التخلخل في المجتمع، وعدم قابليته للنماء؛ وإذا فقد جعل الكفر من التسرييلين بظلماته مخلوقات تجف بداخلها - في الأعم الأغلب - نوازع الخير، وتتمو على حسابها نوازع الظلم والشر وهذا لا ينافي وجود جزيرة مضيئة أحياناً في بحر الظلمات.

وحين يسلك المجتمع هذه الطريق، ولا تتمم وجوده أبناؤه لموامل التفكك وخلاتق الأذى، يخسر مرتين: أولاًهما: ما خسره من وقع عليهم الظلم وجوبهوا بالإساءة، وهو أنفسهم عندما حرموا من المعلنة الكريمة والأخذ بأيديهم إلى ما هو الأكرم من رفهم إلى المستوى الذي يجعلهم أقدر على العطاء. الثاني: خسارة ما يمكن أن يقدمه هؤلاء على صعيد البناء والإنماء عندما يعيشون أسوياء لا تثبط همهم العقد النفسية والتشاؤم.

إنها الجاهلية التي تموق مسيرة الخير، وتعطل إمكانات النمو الإنساني والمادي في المجتمع وذلك ما أنكره الإسلام من أول يوم.

وليس من مكرور القول أن نمود إلى تأكيد أن هذا كله يدل أوضح الدلالة على وجهة الإسلام الإنسانية المثمرة في بناء المجتمع، كيما يقوم هذا المجتمع على أسس سليمة تضمن - مع الإيمان - التعاون والتكافل بين من يضمهم هذا المجتمع، بحيث يأخذ القوي بيد الضعيف، والفني بيد الفقير، والعالم بيد الجاهل.. إلى آخر السلسلة.

وهكذا نرى أن مجتمعاً كهذا لا يهان فيه يتيم ولا مسكين، ولا تفقد فيه الجماعة بواعث التعاون على كل ما يعود على الفرد والجماعة بالعمة والمنعة والنماء، وأن بعض الناس بعضهم بعضاً على فعل الخير، فيحصل القيام بالإحسان إلى الفقير، والأخذ بيد الضعيف حتى ينال كل ما يقوم بأوده وكفايته، بل يتحول ذلك - بمنهجية - إلى تغيير حال أولئك الفقراء والضعفاء والمحرومين، ويضمون إلى التحسن في أحوالهم، أن يصبحوا لبنات قوية في جسم المجتمع لا تتي تعطي وتقدم - بعون الله - المزيد.

وجميل ما فهمه بعض العلماء من أن في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧) أمراً بالإحسان إلى اليتيم، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

البناء.. والتنبيه المبكر سورقا الماعون.. والفجر

« ٣ »

إن الذي أخذته الآيات الكريمات في السورة التي يُذكر فيها الماعون، على المشركين من التظالم الاجتماعي الذي يضاعف خسارة المجتمع على صعيد البناء والبناء، كان مقترناً - كما رأينا فيما سبق من القول - بالتكذيب بيوم الماد والجزاء والثواب يوم الدين.

والمفهوم الواضح النير لذلك، أن الإسلام: من صُلب دعوته القائمة على التوحيد: الإيمانُ بيوم الدين؛ فله وجهة أخرى في بناء الفرد والمجتمع، بيني الفرد على العقيدة التي تتواءم مع فطرته، ويوضح له مجال القدرة على العطاء، وفي الوقت نفسه بيني المجتمع على أسس سليمة تضمن التعاون والتكافل، ومُجتمعٌ كهذا، لا يُهان فيه يتيم، ولا تفقد فيه الجماعة سمة التعاون على الخير، وأن يحث الناس بعضهم بعضاً على فعله، صورةٌ عن نمو الحسّ الجماعي، وأن الفرد في خدمة المجتمع، وأن المجتمع في خدمة الفرد، والكل تسيّرهم من الأعماق مُثلٌ كريمة، تحملهم إلى استمرار البناء وتماظمه، ونمو إمكانات الفرد والجماعة في الدنيا، والفوز بمرضاة الله في الآخرة، في ذلك اليوم الذي آمنوا به من أول الطريق.

ومن ثمرات ذلك: أن يحصل عكس ما هو واقع في المجتمع الجاهلي؛ فلا يتقهر يتيم ولا يظلم فقير، ومن لا يستطيع معاونة المموز الفقير: يحض غيره على ذلك، وعندها لن تجد ذلك الفقير الذي لا يتسنى له ما يقوم بأوده وكفايته، وترى طاقات المجتمع وقد برزت إلى الوجود، وأعطت عطاءها على كل صعيد.

ومن الخير أن نذكر - ونحن نقول ذلك - ما سبقت الإشارة إليه من أن علمائنا فهموا من قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿كَلَّا بَلْ لَّا تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧) أمراً بالإكرام له، كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام البخاري من رواية سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة، هكذا وقال بإصبعه السبابة والوسطى [الفتح: ١٠/٤٣٦]. قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك.

والحديث رواه أبو داود بلفظ: «وقرب بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام» [٢٥٦/٥]. كما رواه الترمذي بلفظ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين» وأشار بإصبعيه يعني السبابة والوسطى وقال: قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح [٢٢١/٤].

وأنت واعد أن منهج الإسلام في مواجهة المجتمع الجاهلي - بما كان يحمل من التناقض والمظالم -: يضمن ربح المجتمع مرتين: المرة الأولى حين لا يُشعر من قعدت بهم أسباب الحياة لأمر معين من يتم، أو فقر أصيبوا به أو معوق نالهم: أنهم دون المستوى في الجماعة؛ وهذه صورة من سلامة البناء والقدرة على النمو في المجتمع. المرة الثانية حين يتحقق تكافؤ الفرص لهذا اليتيم وذاك المسكين ومن كان على شاكلتهما، فيتاح لهم أن يثبتوا وجودهم فيكونوا قادرين على العطاء، وكم في ذلك من إسهام في نمو المجتمع على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، ناهيك عن الاستقرار النفسي الذي له ما له - بعد الإيمان - من أثر في وضع المواهب والإمكانات موضعها.

ولا ننفي هنا - في هذه المجالة - ونحن نتحدث عن سورة الماعون - أن يكون من قعدت به أسباب الحياة في موضع تلقي المون دون أن يعمل، بل إن المجتمع المسلم مطالب أن يقدم المستطاع - تتهيجاً وعملاً - ليكون لكل فرد من أفراد

فاعلية في ظل حياة كريمة تستعلي فيها إنسانيته لأن الله أعطاه ذلك. وقد رأينا في كلمات سلفت، من خلال الإطالة الإنسانية في سورة الضحى: تذكير النبي ﷺ بما أنعم الله عليه عند اليتيم والحاجة والتطلع إلى الحقيقة، وكيف جاءت التوجيهات من بعدُ درساً للمسلمين في التسامي الذي يحقق الحياة الأكرم والأفضل في مجتمع المقيدة ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ ﴿الذي يسألك عن أمور دينه ودينه﴾ ﴿فَلَا تَنْهَرْ ١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾.

وهي خاتمة المطاف: كان لا بد من الإشارة — ونحن نسعد بالرحلة مع سورة الماعون: إلى سورة الفجر وسورة الضحى وهي لمحات تدل على ما وراءها إن شاء الله.



البناء.. والتنبية المبكر وسورة الماعون

« ٤ »

هذه السورة الكريمة التي تنزلت في العهد المكي بآياتها القصار الست التي لم تتجاوز ستة وعشرين كلمة منها الواو في «وَيَمْتَعُونَ» قد أعطتنا بشكل مبكر صورة تقرب ما يراد للمجتمع المسلم أن يكون عليه من سمات التكامل، بعد تنزيهه عن شوائب الجاهلية وأخلاق المكذبين بالدين.

ولقد رأينا في آياتها الأولى إنكاراً لما كانت عليه الجاهلية من تظالم في المجتمع يتمثل في قهر اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين، وارتباط ذلك بالتكذيب بيوم المعاد يوم الدين، وأن الذي يكتب بيوم الدين هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه، ولا تتحرك في نفسه نوازع الخير فيحث على طعام الفقير الذي حرم حتى مما يقيم أوده وكفايته.

وكان ذلك مؤشراً هادئاً إلى وجهة الإسلام فيما يجب أن يكون عليه المجتمع ضماناً لقابلية النماء واستمرار البناء سليماً معافى.

ونحن واجدون بعد ذلك: تهديداً ووعيداً بالويل للمصلين الذين يقعون في السهو عن القيام بعبادة الصلاة بالكلية، أو عن فعلها على ما ينبغي في الوقت المقدر لها شرعاً، أو عن وقتها الأول، هيؤخرونها إلى آخره دائماً أو في الأعم الأغلب، أو يتهاونون في أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، أو عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها. تلك أقوال للعلماء واللفظ يشمل ذلك كله، ولكن من اتصف بشيء من ذلك فله قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم له نصيبه منها — كما يقول الحافظ ابن كثير — وكمل له النفاق العملي، يشهد

لذلك ما ثبت في الصحيحين – والكلام على صلاة العصر – من رواية أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».

وهؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون يفعلون ما يفعلون مراعاة للناس لا ابتغاء لوجه الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وأي خير يؤمل في هؤلاء لأنفسهم أو للمجتمع؟ إنهم عناصر هدم لا عناصر بناء، وهم دائماً معوقون لمسيرة الفلاح التي تتشدها الأمة. وهم يضمنون إلى ذلك كله: أنهم يمنعون الماعون؛ فهم على حال لا أحسنوا فيها عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، فتعاونوا مع الآخرين تعاوناً يعود عليهم وعلى المجتمع بالخير، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم بعد أن ينتفع به الآخرون.

وإذا كان الأمر كذلك في الإعارة، فهم لنزع الزكاة وأي نوع من أنواع البذل والقربات في المال أو النفس أولى – والعياذ بالله –

ومهما تعددت أقوال العلماء بالمقصود من الماعون: فهذا الخلق في هؤلاء المعوقة قلوبهم صورة عن جفوة الخير، وفقدان المسؤولية الجماعية، والחסن المشترك بين أبناء المجتمع الواحد. وهذا مرفوض في مجتمع المقيدة في الإسلام – كما يؤمل أن يكون –

وهكذا تتكامل الصورة: المكذب بيوم الدين، يقهر اليتيم ولا يحض على طعام المسكين. الساهون عن صلاتهم يراؤون ويبخلون بتقديم أبسط لون من ألوان التعاون مع الآخرين، وكل ذلك من دواعي الفساد والإفساد وتمويق البناء والسفاه.

وعندما يذكر القرآن ذلك بمرض الذم والنقمة – وفي العهد المكي – حيث الشدة الشادة على الفئة القليلة المؤمنة، وحيث تقضي الضرورة بناء وتشبث عقيدة التوحيد.. يكون هذا دليلاً على سمة البناء المجدي والحرص على التتمية عند الفرد

والجماعة في الإسلام؛ إذ لم تصرف شؤون العقيدة عن مؤشرات لسمات المجتمع الذي يجب أن يكون نتاج هذه العقيدة. ولا بدع في ذلك، ودعوة الإسلام هي دعوة الحياة للفرد والمجتمع والأمة.

وجميل ما كان من صاحب «الكشاف» من تجليته لمعطاء هذه الآيات الكريمات تجليةً تزيد من القدرة على تبين مراميها وأبعادها على الوجه النافع الذي نحن بصدد الوصول إليه. ذلكم قوله: (هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه «فذلك الذي» يكذب بالجزاء هو الذي «يدعُ الهتيم» أي يدفعه دفعاً بجفوة وأذى ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة وقرىء «يدعُ» أي يترك ويجفو. «ولا يحض» ولا يبيت أهله على بذل طعام المسكين).

ثم قال رحمه الله: (جعل علمُ التكذيب بالجزاء: منعُ المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف، يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشي الله تعالى وعقابه، ولم يقدم على ذلك!! فحين أقدم عليه: علم أنه مكذب).

فما أشدُّ من كلام، وما أخوفه من مقام، وما أبلغه في التعذير من المصيبة، وأنها جديرة بأن يستدلُّ بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين.

ثم وصل به قوله: «فويل للمصلين» كأنه قال: فإذا كان الأمر كذلك: فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلةً مبالاةً بها حتى تقوَّتْهم، أو يخرج وقتها ولا يصلُّونها، كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف، ولكن ينقرونها نقرأ من غير خشوع وإخبات، ولا اجتناب فيها لما يكره من المبت باللعبة والثياب، وكثرة التثاؤب، والالتفات؛ لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف، ولا ما قرأ من السور؛ كما ترى عادة من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم، ومنع حقوق أموالهم.

والمعنى: إن هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة التي هي عماد الدين والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك، ومنعُ الزكاة التي هي شقيقة الصلاة، وهتطرة الإسلام: علماً على أنهم مكذبون بالدين، وكم ترى من المتسمين بالإسلام، بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة فيا مصيبتاه! الكشاف: [٢٣٦/٤].

البناء.. والتنبية المبكر.. سورة الماعون وأختاها

« ٥ »

في واحد من مؤشرات الحرص في المنهج الإسلامي في البناء، على تجنب البنية الاجتماعية – بل والاقتصادية – عوامل الضعف والتغلغل: قدمت لنا السورة التي ذكر فيها الماعون، وآيتان من سورة الفجر في العهد المكي قبل أن يكون قياد المجتمع لدعوة الإسلام، كما حصل – بحمد الله – في العهد المدني.. قدمت لنا الكلمات الهاديات في السورتين ما يكشف عن مدى الارتباط بين التكذيب بيوم الدين، يوم المعاد والجزاء والحساب، وبين الانحراف المخزي في السلوك الاجتماعي السليم، وما يكشف عن الأثر السيء للانقسام بين العبادة والسلوك؛ وكان لذلك صورتان:

أولاهما – صورة ذلك المكذب بيوم الجزاء؛ فهو يمثل عنصر الخيبة، والتسبب بتعطيل عدد من الطاقات والفاعليات في نفسه وفي المجتمع؛ لما أنه فاقد الرحمة، خشن التعامل مع الضعفاء، عديم التعاون مع الآخرين، ذلك التعاون الذي يعود عليه وعليهم بالنفع وإحكام البنية في شتى وجوهها وصورها.

إنه يدور في تلك الأنانية ناسياً أن الأرزاق بيد الله، وأن المال مال الله، وأن الإنسان الضعيف أو المعوز له حق طبيعي في مال المعافى من العوز والضعف.

من هنا كان من العدل الإلهي المطلق إنزال العقوبة الصارمة يوم القيامة، وهي عقوبة تشعر بأن الجزاء من جنس العمل، ذلكم ما جاء في سورة الحاقة في شأن من أحاطت به خطيئة وأوتي كتابه بشماله من قول الله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابَهُ ۖ وَلَمْ أَدْرَ مَا حِسَابُهُ ۖ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ الْقَاضِيَةَ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۖ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۖ خَذَرُوهُ فَلَوْهُ ۖ ثُمَّ الْجَحِيمُ صَلْوُهُ ۖ﴾ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۖ (٢٨) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۖ (٢٩) خَذَرُوهُ فَلَوْهُ ۖ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمُ صَلْوُهُ

﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سَبِيلَةِ ذَرْعِهَا سَحُونٌ ذِرَاعًا فَاَسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْغَاطِقُونَ ﴿٣٧﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٧].

ومن بديع النظم القرآني أن كلمة «إنه» أشعرت بالتعليل لما قضى عليه من العقاب، وهو تعليل على طريق الاستثناف وهو أبلغ؛ كأنه قيل: ما له يمتدح هذا المذاب الشديد؟ فأجيب بذلك.

وتستوفك البلاغة القرآنية الفذة حين ترى أن هي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ﴿٣٤﴾ دليلين قويين على عظم الجرم في حرمان المسكين: أحدهما - عطفه على الكفر وجعله قريناً له ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ الثاني - ذكر الحض دون الفعل؛ ليُعلم أن ترك الحض بهذه المنزلة - كما يقول صاحب الكشف - فكيف بتارك الفعل؟.

أما الصورة الثانية: فهي صورة أولئك الذين هم عن صلاتهم ساهون؛ فالويل لهم: إنهم مراؤون في عبادتهم وأعمالهم، أعداء لأنفسهم ظالمون لها - في الحقيقة - وللناس، إنهم لا يبضون بقطرة خير، حتى لو كانت إعارة الماعون، وهم أشبه بالطفيليات في جسم المجتمع، تمتص خيراته، وتموق نماءه، وتعرض بنيته لمخاطر الانقراض، وترى فيهم أنموذج التخالف بين العبادة والسلوك، الأمر الذي يذكر بقول الشاعر:

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

ومعلوم أن الحفاظ على المتع من الثغرات التي يمكن أن تدب إليه لسبب أو لآخر، وضمان نجاح العملية التنموية فيه: لا بد لهما من الانبعاث الذاتي إلى الخير في كل المهادين والأنشطة. كما لا بد من الشعور بأن الإنسان الفرد لهم وحده في المجتمع الذي يتفأ ظلاله، ولكنه لبنة في لبنات الجماعة التي يشركها بوجوده فيه.

وكل أولئك مطلوب لتحقيق الإفادة من الطاقات والفاعليات على اختلاف التخصصات والاتجاهات، وإلا كان ذلك عبثاً على المجتمع بدل أن يكون قوة دفع، وتطوير إلى ما هو الأفضل والأقوم مادةً ومعنى.

أما هؤلاء الذين ذكرتهم الآيات في سور الماعون والفجر والحاقة: فهم أنانيون يطوفون حول ذواتهم ويطوفون، حتى كان الحسُّ الإنسان معطَّل في أعماقهم.

وليس بالأمر الهين أن ينزل الله في هذا الصنف وأمثاله من الناس — وما تزال الدعوة تخطو خطواتها الأولى وهي مغلوقة على أمرها — قرآنًا يتلى إلى يوم الدين، وبأساليب متنوعة.

على أن هذا لا بد أن يذكر بما يزيد الأمر وضوحاً على ساحة الاهتمام الذي ينبىء عنه التنزل القرآن في هذه القضية؛ إذ يمد قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧) وَلَا تَحَاضِرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّا (١٩) وَتُحِبُّونَ أَمْوَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴿ فكان هذه من تلك «وسبحان منزل هذا الكتاب العليم يخبايا نفوس عباده، القادر على أن يكون الخطاب في هدايتهم على أفضل مستوى من مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

مرة أخرى: إن على المسلمين — وعلى شفاه الكثيرين منهم في مشارق الأرض ومغاريها إعلان الولاء لكتاب الله وما تخط معالمه وبيانها من السنة من سبل الهداية — أن يدركوا بمدى دلالة هذا المؤشر الذي ندندن حوله في المهد المكي، وما يعنيه من أن هداية القرآن: لم تضرط — من أول الطريق — في شيء من أمر البناء الذاتي الذي يراد في ضوئه دعوة الإسلام للفرد والمجتمع والأمة، وأن عنوان وعي الأمة وصدق ولائها للدين، وصحة انتماء أبنائها إلى شريعة سيد المرسلين: أن تكون — تصوراً وعملاً — عند الذي تشرق به هداية القرعان الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا بد أن تخرج القضية بمنهجية عن ساحة الموعظة المجردة، إلى ساحة يكون فيها أخذ هذا الكتاب بقوة في المقدمة من سلم الاهتمامات والأولويات؛ بحيث يتاح – منهجياً وعملياً – لكلمة الله أن تصوغ حياة الأمة، وتقيم المجتمع على أرسخ الجنور؛ الأمر الذي يضمن – بمون الله وتوفيقه – سلامته من اختراق عوامل التخلخل والضعف، وقدرته على العطاء سليماً معافى من بواعث الميوعة والانحلال التي أصابت تلك المجتمعات التي أسقطت من حسابها سلطان الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله، فشققت وأشقت، وأحل أصحاب النفوذ فيها قومهم دار البوار جهنم يصلونها ويثنى القرار.

إنها مسؤولية كل مسلم يملك الأهلية، وبخاصة أولئك القادرين على إحداث النقلة من حيز الموعظة – مع أهمية هذا الحيز – إلى ميدان الصياغة العملية التطبيقية، وترجمة المبادئ إلى حركة فاعلة يبتغى بها وجه الله، وبناء براد له أن يكون بناء خير ورشد يُسعد أهله في الدنيا ويوم الدين.



ولم نك نطعم المسكين البناء.. والبدائية المبكرة وسورة المدثر

« ١ »

الذين يُقدرون الأهمية البالغة لعملية البناء السليم للمجتمع، وما ينبغي لذلك من الإحكام ومراعاة الأسس السليمة، كيما ترتفع قواعد هذا البناء على الصورة المطلوبة، كما يقدرّون تمتين الروابط بين أبناء المجتمع كيما يكونوا – وهم يكدحون في بناء الحياة – عناصر نمائه في مختلف المجالات، وملاقات الرقي به إلى ما هو الأكمل والأفضل.

الذين يقدرّون ذلك كله بإحاطة وإدراك: يشاركوننا الحكم بأهمية نظرة الإسلام المبكرة – التي أسعدنا اصطحابها من قريب – إلى جانب من جوانب هذه العملية، قبل أن توسد إلى هذا الدين سياسة المجتمع بكل شؤونه ليُحكّم بما أنزل الله، وما لذلك من دلالة لا تقبل الشك، على أن القرآن الحكيم الذي يهدي للتي هي أقوم: هو كلام ربنا العليم الخبير، نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله ﷺ ليكون من المنبرين، وأن شرعة الإسلام هي شرعة مالك الملك سبحانه وتعالى، وهو أعلم بما يصلح عباده، وما هو خير لهم في دنياهم ويوم يبعثون. وليست هذه الشرعة – على ما يزعم أهل التفسير المادي للتاريخ – تمخضات أرضية لأوضاع اجتماعية واقتصادية معينة، نادى بها مصلح في الأرض كان من المجنيّ عليهم في تلك الأوضاع، نداءً مقطوع الصلة بالسما، وأن ما طرحه من مقولات وأفكار تتصل بالدين: إنما هي عناوين مناسبة لما أراد من ذلك الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي. وهي عناوين ومصطلحات اقتضتها بيئة وظروف معينة.

أجل: ليست هذه الشرعة المباركة كذلك: وإنه لزعم تسقطه النصوص والوقائع جملة وتفصيلاً، وقد ظهر عواره أكثر وأكثر عند التطبيق العملي. وجل شأن ربنا القوي العزيز إذ يقول في محكم كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٢﴾ وآخرين مِنْهُمْ لَا يُلْقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ٤﴾ [الجمعة: ٢ - ٤].

هذا: ومن أيجديات ما يقتضيه الإيمان: اعتقاد أن كتاب الله يهدي لأقوم السبل، ويسلم الأمة إلى أفضل وأكرم المناهج؛ ذلكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلْأَيِّ هِيَ أَقْرَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠].

وهي حديث موصول بما سلف من القول فيما دلت عليه آي الكتاب - وبخاصة ما أشرقت به سورتا الماعون والفجر - من تبشير الإصلاح الاجتماعي الذي له كبير الأثر في ميدان الاقتصاد، وتوفير الانتفاع بالطاقة البشرية.. أود أن أشير إلى أن ما ذكر - على سبيل الإنكار والتعجب لوجوده - من صفات لتلك العناصر المهلهلة التي تززع البناء وتموق النماء: لا بد لاستجلاء الحكم عليها بما لها من سوء الأثر في المجتمع، والمخالفة عن صيغة التعامل الإنساني بين الإنسان وأخيه الإنسان.. من الاستتارة بما ورد في شأنها من سوء العاقبة لأصحابها يوم العرض الأكبر على رب العالمين.

ففي كلام طيب مبارك على مسؤولية كل نفس بما كسبت، وما تكون عليه حال المجرمين في نار السمير سقر: نقرأ في سورة المدثر - وهي من أوائل ما نزل في المهدي المكي من القرآن - أن واحداً من أسباب شقوة هؤلاء الذين يتقلبون في الجحيم: أنهم كانوا لا يطمعون المسكين؛ ذلكم قول الله جل وعز: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ٢٨﴾ إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ٢٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ٣٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٣١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ٣٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ٣٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ٣٤﴾ وَكُنَّا نَخُوشُ مَعَ الْخَاطِئِينَ ٣٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ٣٦﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ٣٧﴾ [المدثر: ٢٨ - ٤٧].

قال الحافظ ابن كثير: أي ما عبدنا ربنا ولا أحسننا إلى خلقه من جنسنا [٢٩٨/٨]. هكذا أجاب المجرمون بذكر أسباب إلقاءهم في النار؛ لأنهم ما ظنوا إلا ظاهر الاستفهام — كما يقول صاحب «التحرير والتنوير» فذكروا أربعة أسباب هي أصول الخطايا وهي: أنهم لم يكونوا من أهل الصلاة، فحرموا أنفسهم من التقرب إلى الله. وأنهم لم يكونوا من المطعمين المساكين؛ وذلك اعتداء على ضعاء الناس بمنهم حقهم في المال.

وأنهم كانوا يخوضون خوضهم المهود الذي لا يمدو عن تأييد الشرك وأذى للرسول ﷺ وللمؤمنين.

وأنهم كذبوا بالجزاء. فلم يطلبوا ما ينجيهم. وهذا كناية عن عدم إيمانهم، سلخوا بها طريق الإطنا ب لتمام التحسُّر والتلف على ما فات؛ فكانهم قالوا: لأن لم تكن من المؤمنين؛ لأن أهل الإيمان اشتبهوا بأنهم أهل الصلاة، وبأنهم في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وبأنهم يؤمنون بالآخرة وبيوم الدين، ويصدقون للرسول. وقد جمعها قول الله تعالى في فواتح سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝﴾.

ويلاحظ هنا ارتباط هذه الخصال الذميمة التي اعترف بها أصحابها من أهل النار، موثقين أنها من أسباب ما يلحقون من العذاب المهين في سقر.. يلاحظ ارتباطها بالتكذيب بيوم الدين ارتباطاً يشي بالتلازم بينها كالذي رأينا — من قبل — في السورة التي يذكر فيها الماعون.

ولما كانت الحقيقة تذكر بأختها؛ فلنذكر هنا ما جرت الإلماحة إليه فيما سبق: من يكون من شأن من يؤتى كتابه بشماله — كما تحدثت سورة الحاقة — وكيف أن ماله شر أنواع العذاب في الجحيم؛ إذ نجد من أسباب شقوته أيضاً: أنه كان — مع ما هو متسريل به من ظلام الكفر نسال الله السلامة — لا يحض على طعام المسكين.

ولنعمد إلى ذكر الآيات الكريمات في ذلك. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ۖ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ۚ﴾ (٢٦) ﴿إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۚ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ﴾ (٢٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۚ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ۚ﴾ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۚ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٧].

قال علماؤنا في تذكير بروعة الأسلوب القرآني في الدلالة على المراد: بأن جملة ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۚ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ﴾ (٢٤) في موضع العلة للأمر بأخذ هذا الذي أوتي كتابه بشماله وإصلاؤه الجحيم.

ومن بديع النظم القرآني: ووصف الله تعالى هنا بالعظيم: إذ في ذلك إيعاء إلى مناسبة عظيم العذاب للذنب، لأن الذنب كان كثراناً بمظلم؛ فكان جزاءً وفاها.

والملاحظ أن نفي حضه على طعام المسكين يقتضي بطريق الفحوى — كما جرت الإشارة من قبل — أنه لا يطعم المسكين من ماله؛ فالمعنى: لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه.

وقد كان أهل الجاهلية مع ما يتصفون به من الكرم في المناسبات: لا يطعمون الفقير إلا قليلاً منهم. وقد جعل عدم الحض على طعام المسكين — وهو من ذمهم الخصال في التعامل مع الضعفاء — مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين حتى بمال غيره، وكناية عن الشح عنهم بماله.

قال العلامة ابن عاشور: (وإذ قد جعل عدم حضه على طعام المسكين جزءاً علة لشدة عذابه: علمنا من ذلك موعظة للمؤمنين زاجرة عن منع المساكين حقهم وهو الحق المعروف في الزكاة والكفارات وغيرها). «التحرير والتتوير» [١٣٨/٢٩ - ١٣٩]. وبما سبحان الله كيف جعل الجزاء من جنس العمل؛ فالاستهانة بطعام المسكين أو الحض عليه في الدنيا: جعلت الفسليين طعام ذلك الجاني في الآخرة.

هل لي بعد هذا أن أقول: إن أبواب الخير مفتحة على مصاريمها أمام المسلم — أن لو عقل من بيدهم التتهيج ومن بيدهم التنفيذ — لبناء المجتمع التكافل المتعاون على أساس من الإيمان بالله واليوم الآخر، وأكرم بمنهج القرآن منهجاً يجمع بين العقيدة والأخلاق، وبين الدنيا والآخرة.

خطوة أخرى.. مع البداية المبكرة وسورة الإسراء والروم

« ٢ »

خطوة أخرى في العهد المكي، حيث لم يكن للدعوة سلطان أو مؤيد تنفيذي، وفي ضوء المؤشرات المبكرة للإصلاح الذي ينشده الإسلام في المجتمع، تمهيداً لإقامة بناء الاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغيرها على نهج مبره من أوضاع الجاهلية وأعراف الجاهليين، وذلك بإحكام ارتباطه بمقيدة التوحيد التي تكرّم الإنسان، وتوجهه وجهة ما مثلها من وجهة في تحقيق ما من أجله خلق الإنسان.

ويعد الذي رأينا من إنكار القرآن لظاهرة الظلم الاجتماعي في المجتمع الجاهلي، وتمجيده منها، ولانمزالية الفرد عن التعاون على الخير ممثلاً في تقديم المون لمن قدمت بهم الأقدار عن الحاق بركب الآخرين، وفي الإسهام بتنمية الطاقات الخيرة في المجتمع؛ الأمر الذي ذكر القرآن من خلاله العاقبة السوء والمذاب الأليم لأولئك الذين يستبدلون الإساءة إلى من هم أهل للمعاونة والبر: بالإحسان والأخذ بأيديهم إلى مستوى الكرامة الإنسانية والقدرة على العطاء، حيث يحمل ذلك ما يحمل من الخير لهم وللمجتمع».

أقول: خطوة أخرى في العهد المكي، وفي ضوء ذلك كله تأخذ بأيدينا — في نقلة من مساحة الإنكار والوعيد — إلى تقميد قواعد ورسم مبادئ يظلمها المنهج الرباني؛ وذلك ما نجده في الأمر بإيتاء ذوي الحقوق حقوقهم، بمبدأً عن كل تصرف فيه مظلمة لأحد، أو إضاعة للمال بالسرف والتبذير وغيرها، وأن يكون تحرك الفرد في المجتمع: تحرك أداء الحقوق مصحوباً بالإحسان والعمل الصالح، مع التعاون على كل ما فيه خير الفرد والجماعة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، نقرأ في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من سورة الإسراء – وهي سورة مكية – قول الله جل ذكره: ﴿وَأَتِذَا الْقُرُوبَىٰ فَهُوَ وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ۖ ﴿٦٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۖ ﴿٦٧﴾﴾.

أرأيت إلى هذا المنهج الإصلاحى الفريد منذ بداية الطريق؟ الحقوق مصونة، والفرد مطمئن – حسب الأسباب المتخذة – إلى يومه وغده بكلمة الله، وإيتاء كل من ذي القربى والمسكين وابن السبيل ما هو له من الحقوق واجب بأمر الله عز وجل، والمخالف عن ذلك مخالف عن أمر الله متبع لخطوات الشيطان! ويا لها من مخالفة سوء واتباع أسوأ!!

وإذن فإداء هذه الحقوق لأصحابها الذين تلفُّهم حالة من الضعف: يلس تفضلاً من أولئك الأغنياء الأقوياء، ولكنه واجب أوجب الله تبارك وتعالى الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، والمال ماله، والرزق من عنده سبحانه.

وتلك هي ضماننة الاستقرار في المجتمع من هذه الناحية، وهي طاعة لا يشي بها حقد ولا ضغينة، ولكن ييمث عليها امتثال أمر الله واجتناب نهيه اتقاء له وطلباً لمرضاته جل شأنه.

ثم إن تبذير المال – الذي توعد الله عليه بعد أن أمر بالإنفاق وأداء الحقوق – خصلة منهى عنها بنهى الله تبارك وتعالى – والنهي يقتضي التحريم؛ فالوقوع في حماة التبذير بالتزديد المذموم، والإنفاق غير المنضبط بالضوابط السليمة – عدا عما فيه من إضاعة المال والإساءة إلى اقتصاد الفرد والمجتمع –؛ وقوع فيما نهى الله عنه وهو ارتكاب المحرم والمعياذ بالله، وانسلاك في أخوة الشياطين؛ فالمبذرون إخوان الشياطين، وهم يرضون ذلك لأنفسهم، مع أن الشيطان كفور لربه ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۖ ﴿٦٧﴾﴾.

ومن بلاغة القرآن: أن ما ختمت به الآية يوجب الحذر من متابعة الشيطان والتشبه به في الفساد والإفساد، وفي ذلك ما فيه من بعث القوة النفسية والإرادة الإيمانية بامتثال ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه من التبذير الذي يمل ما يحمل منه التشبه بالشيطان واتباع خطواته.

قال الحافظ ابن كثير: «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ» أي: في التبذير والسفه، وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا» أي جحوداً، لأنه أنكر نعمة الله ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفة أمره [تفسير القرآن العظيم] (٦٦/٥).

ولا يخفى أن العلاقة وثيقة بين التبذير والإسراف؛ فكما أن المبذرين إخوان الشياطين، فإن الله تعالى لا يحب المسرفين وكفى بذلك وعيداً أي وعيداً يقول الله تعالى في سورة الأعراف – وهي سورة مكية – «يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (٣١) ﴿٣١﴾.

وإذا كان الإسراف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان؛ فهو في الإنفاق أشهر، ونهى الله عن ذلك – كما نرى – شديد النهي.

وقد جاءت السنة بما يقرر ذلك ويؤكد؛ من ذلك ما روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَابْتَسِمُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سُرْفٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ أَنْ يَرَى نَعْمَتَهُ عَلَى عِبْدِهِ»^(١) ورواه النسائي وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ – واللفظ للنسائي – قال: «كُلُوا وَابْتَسِمُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ»^(٢) ولفظ ابن ماجه «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَابْتَسِمُوا مَا لَمْ يَخَالِفْهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَةٌ»^(٣). والمخيلة: الخيلاء.

(١) «المسند»: (١٨٢/٢) وانظر: (١٨١/٢).

(٢) «سنن النسائي» – المجتبى: – (رقم ٢٥٥٩).

(٣) «سنن ابن ماجه»: (رقم ٣٦٠٥).

وهكذا تجد أن مما تهدي إليه المعالم القرآنية في الآيات الأنفة الذكر: صيانة التمتع بنعم الله تعالى عن التبذير والإسراف، الأمر الذي يتصل بالناحييتين الاجتماعية والاقتصادية أوثق اتصال.

وفي سورة «الروم» — وهي سورة مكية أيضاً عدا الآية الأخيرة منها — يأخذ الترغيب في أداء الحقوق المنوء عنها في سورة «الإسراء» مدام، حين يجعله القرآن عنوان من يريدون بصنيعهم، ويبشرهم بأن هذا الأداء خير لهم، ويأنه — وهو كذلك — صورة حقيقية لأهل الفلاح؛ ذلكم قول الله جلّ وعز: ﴿قَاتِذَا الْقَرْيَتَيْنِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْفِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨].

وفي استيفاء لما يرمي إليه المنهج القرآني من الإصلاح، ترغيباً وأمرأ بالبذل وأداء حق الضمفاء وصلة الرحم، وترهيباً مما هو من الفساد والإفساد على ساحة تثمير المال: نرى أنه لما جرى الأمر بالإحسان وبذل المال صلة للرحم وإغاثة لذوي الحاجة وبيان ما في ذلك من الصلاح للفرد والجماعة، أعقب ذلك التثفير من ضرب آخر من إعطاء المال لا يرضى الله عنه، يبعث عليه الحرص على جمع المال وتثمييره الأمر الذي يعمل عمله فساداً وخلخلة للبنية الاجتماعية والاقتصادية؛ وهو أكل الريا الذي كان متفشياً في الجاهلية وصدر الإسلام وبخاصة في ثيف وقريش، ولا يخفى أن هذا النوع من التعامل هو من أبشع الصور التي تمتهن فيها الأخوة الإنسانية بين الناس، وتحدث ما تحدث من الحقد والبغضاء واضطراب القيم.

فلما أرشد الله المسلمين إلى أمر مهم في بناء المجتمع المسلم، وهو مواساة أغنيائهم فقراءهم، وصلة الأرحام، ومعاونة ذوي الحاجة، أتبع ذلك بتهيئة نفوسهم للكف عن المعاملة بالريا للمقترضين منهم؛ ذلك بأن المعاملة بالريا تنافي المواساة والتعاون على الخير؛ لأن شأن المقترض أنه ذو قلة، وشأن المقرض أنه ذو جدة؛ فمعاملة المقترض منه بالريا: انتهاز لحاجته، واستغلال لاضطراره وذلك لا يليق بالمؤمنين، ويتنافى مع التعاون الأخوي على بناء مجتمع تسوده الرحمة وتتوافر له عناصر النماء والعطاء.

ويجوز أن يكون لفظ «رباً» في الآية منحازاً إلى المعنى اللغوي، فيكون قد أطلق في الآية على الزيادة في مال المعطى له المال، أي إعطاء المال لذوي الأموال قصد الزيادة في أموالهم تقريباً إليهم، بمعنى أن المال يعطى لغير المحتاج كي يزيد ماله، وبذلك يحظى لديه من أعطاه الزيادة بالقرب والإيثار ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّاً لَّيَرَّوْهُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَّوْهُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وهذا يشمل هبة الثواب، والهبة للزلفى والملق. وعندما يكون الفرض من الآية التنبه على أن ما كانوا يفعلونه من ذلك في الجاهلية، لا يفني عنهم من موافقة مرضاة الله تعالى شيئاً، بل إن نفعه لأنفسهم.

وقد جنح إلى هذا المعنى كثير من المفسرين، ويساعد عليه كون الآيات مكية؛ فيصير المعنى: وما أعطيت من زيادة لتزيدوا في أموال الناس، فلا يربو عند الله ولا يزكو. ولكن الذي يضاعف ويزكو هو ما كان عطاءً لوجه الله. وذلك صريح قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّاً لَّيَرَّوْهُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَّوْهُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ أي أولئك الذين كُتِبَ لهم الأجر وحصل لهم إضعاف الثواب عند الله.

وكان من بلاغة النظم القرآني: الإتيان باسم الإشارة في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ إذ دل ذلك على التنويه بهؤلاء الذين أرادوا بعبادتهم وجه الله، والدلالة على أنهم أحرى بالتوفيق والفلاح.

هكذا كانت نشارات الضياء هذه في العهد المكي: بداية الطريق لعملية بناء كبرى، لم تقتصر على ميدان في المجتمع دون ميدان؛ أزال الركاب الجاهلي، وحركت في الإنسان نوازع الخير المرتبطة بالعقيدة، ودفعت إلى معركة التنمية والبناء أناساً كانوا قبل الإسلام طائفات موضوعة في غير موضعها الطبيعي، بل ضائعة أحياناً في متاهات الأعراف الجاهلية والتظالم.

وإنها لمبرة تقود - على صعيد الواقع - إلى استئناف السبيل الأقوم بجندية لا تزيع عن منهج الهداية في كتاب الله وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وبعد: فتلكم واحدة من صور الهداية في معالم الكتاب الكريم التي تحقق ما ينبغي للسلامة في قواعد البناء، ومنهجية استمراره معافى من الأذى، هي محاصرة لكل السلبيات التي يتكوّن منها نذير الخطر بانحلاله وشلّ حركته عن العطاء.. إنها خطوات منهج متكامل لبناء قويّ متكامل. ولربنا الحمد كلّ على نعمة الإسلام!!



هدم وبناء.. صورة أخرى.. سورة الفجر... والنساء

لم تكن الصفات التي كشفت عن واحد من الجوانب المظلمة في المجتمع الجاهلي، والتي هي حرية بأن تعمق التقدم واضطراب النمو... هي كل ما أسند في الكتاب العزيز لأولئك الذين كانوا في عتيدتهم وسلوكهم - على مختلف الأصعدة - عنوان هذا الجانب المظلم الذي يتجافى عما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان في ذلك المجتمع.

أجل: لم تكن تلك الصفات التي صحبنا - من قريب - بعض النصوص المباركة الناطقة بها، كل ما أسند إليهم من ذلك؛ بل هنالك نصوص عدة تؤذن بصفات أخرى لا تقل خشونة عنها.

ها هي ذي سورة «الفجر» تصفهم بصفتين أخريين تزيدان الأمر وضوحاً، وتؤكدان محاصرة الدعوة - في الميدان الفكري على الأقل - لكل ما من شأنه الظلم، وتعميق مسيرة الخير التي تقشدها الفطرة - أن لو كانت هنالك مسيرة كهذه - وإحداث الثغرات في الصفوف... تؤكدان مع زيادة الإيضاح أن ذلك مطلب هام على هذه الطريق.

نجد ذلك في قوله تعالى - خطاباً للكافرين في هذه السورة -: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلًا لَّا يُغْنِي عَنْهُمْ آئَاتُ رَبِّهِمْ وَلَآ يُغْنِي عَنْهُمْ كَذْـبُهُمْ وَلَآ يَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ١٨﴾ والكل اللئيم للمال: هو الأكل ممصية، فهم يأكلونه عاصين بأكله.

وهكذا أتت كلمة الردع «كلا» بأربع خصال هي: عدم إكرام اليتيم، وعدم التحاض – أي أن يحض بعضهم بعضاً – على طعام المسكين، واكل التراث أكلاً لمأ، وحب المال حباً جماً، وانظر كيف قدمت خصلة عدم إكرام اليتيم هنا، دليل المزيد من استكراها، والإشعار بالتقيد بها في مقدمة تلك الخصال التي كلها مدعاة التقيد والاستكثار.

والأسلوب القرآني الفريد في هذا اللون من الهداية يذكرنا قوله تعالى خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۚ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۚ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۚ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

قال الحافظ ابن كثير عند الكلام على قول الله جل شأنه: ﴿يَهْلَ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي أيوب عن يعقوب بن أبي سليمان، عن زيد بن أبي عتاب، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه. وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» ثم قال: – بأصبعيه – «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وقد أوردت من قبل ما روى أبو داود وغيره من قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة». وقرب بين أصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام).

والحق أن أكل التراث – وهو الإرث هنا – أكلاً لمأ: يعني أنهم كانوا يأكلون الإرث من حلّه ومن غير حلّه؛ لأن المهم عندهم أن يحصلوا على المال؛ فهم يحوزونه من أي جهة أتاهم دون قيد في الحكم أو الخلق.

ومعروف أن المجتمع الجاهلي كان راضياً عن حرمان أفراد أسرة الميت، وأولي رحمه وقرباته من إرثه مهما كانت درجة قرباتهم لصيقة به؛ ما عدا أولئك الأشداء القادرين على الدفاع عن القبيلة وحماية الذمار؛ فهؤلاء – بما تواضع لهم من هذا السبب – هم الذين يحتازون التركة كلها. أما النساء والأطفال – ذكوراً كانوا أو إناثاً –: فليسوا من إرث متوفاهم في قليل ولا كثير.

وهذا أمر يتشابه فيه - كما هو الملاحظ - الجانب الاجتماعي بالجانب الاقتصادي؛ فمما لا ريب فيه أن الإرث على هذه الطريقة الجاهلية - طريقة ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمَّا﴾ (١٩) - من عوامل التفكير، وإشاعة الظلم الاجتماعي، والشعور بالاعترا ب من داخل الأسرة نفسها، الأمر الذي يؤد - مع الشعور بالظلم والعدوان على الحق - تنمية النزعة الفردية المرتبطة بالمصلحة الذاتية دونما نظر إلى الآخرين؛ لما أنه من الناحية الاقتصادية - أيضاً - عامل من عوامل تمرکز الثروة على حساب العدالة، وجعل الفقر يصيب أهل الاستحقاق الآخرين؛ ظلماً وعدواناً. إذأ ما ذنب الطفل في أن يحرم من الإرث لأنه طفل، وما ذنب المرأة في أن تحرم من الإرث لأنها امرأة؟.

هذا: ولم تكن طويلة تلك الرحلة الزمنية التي امتدت بين الكشف عن تلك الخصلة المرضي عنها لدى المشركين في المجتمع الجاهلي ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمَّا﴾ (١٩) - وكان الخطاب فيها للجماعة - وبين ما أنزل الله جل شأنه بعد بضع سنين في المهد المدني بعد الهجرة من آيات في سورة النساء: تضع نظاماً كاملاً للتوارث يتسم - مع الإجمال - بكثير من التفصيل في الأنصاء والحقوق؛ فقد حدد أسباب الإرث ونوع القرابة التي ترث، كما حدد موانع الإرث، وأعطى حق الإرث للرجال والنساء والصغار والكبار الذين تتوافر فيهم أسباب الإرث وتناى عنهم موانعهم؛ فهم يستوون في أصل الوراث، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض لكل منهم بالنصوص، لأن كل أولئك جاؤوا بأنصاء محدّدة، بشكل مفصّل، وما لم يفصّل في الكتاب العزيز فصلته السنة إلى اجتهد للعلماء - فيما بعد - يتعلق بدلالات النصوص وتشعبات حالات الإرث، حتّى إنك لتستطيع القول جازماً أن الجزم كله بأنه لو لم يكن من الأدلة على أن القرآن كلام الله وليس من كلام البشر. إلا آيات الإرث في سورة النساء كفى بذلك خير دليل على هذه المقولة المباركة اليقينية.

فأين هذا النظام الرياني الحكيم من عبث الجاهلية والجاهليين الذي تضع مع الحقوق، ولا يحسب فيه لإنسانية الإنسان حساب؟.

لقد كان ما جاء به الكتاب العزيز في سورة النساء المدنية من نظام الإرث صورة من الصور التي علّمت الأمة كيف يكون التهييج الصحيح للبناء، وسلكت بها الطريق الإيجابية البانية في الإصلاح، تلك الطريق التي تقوم على تهئية الإنسان من داخل نفسه لقبول ما هو صالح واستتكار ما هو فاسد، وإزاحة الركام الفاسد، وإقامة البديل الصالح المناسب.

لقد نعى الله على الجاهليين أنهم يأكلون التراث أكلاً لما، وعندما تكونت الجماعة المؤمنة، وأصبحت الدعوة قادرة على تسلم زمام الحكم وقيادة المجتمع طريقاً لبناء الدولة، نزل الوحي بتلكم الآيات التي تفصل نظام التوارث على النحو الذي أشرت إليه إشارة عجل لا يتسع لأكثر منها المقام لأن تفصيل ذلك موجود في مظأنه من كتب التفسير والحديث والفقه، وما كتب حول ذلك من بحوث وقام به القادرون المؤهلون من دراسات!!

وقد بدأت تلكم الآيات الكريمة بالآية السابعة من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧) الآيات.

روى الطبري عن سميد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ...﴾ الآية، قال الحافظ ابن كثير: (أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الورثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض لكل منهم، بما يبدلي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء؛ فإنه لحمة كلحمة النسب).

وإلى أن تلتقي على متابعة هذه الرحلة مع معالم الكتاب في هذه القضية الاجتماعية الاقتصادية الكبرى: أرجو أن يكون لأهل المعرفة والثقافة فينا عزيمة القراءة الجديدة المتأنية لتاريخ هذه الدعوة الإسلامية المباركة، فيما هدمت من الباطل، وفيما بنت من صروح الحق على طريق الإنسان، وفيما كان من منهجيتها المعجزة وإيجابيتها الفريدة في الهدم والبناء.

وطوبى لمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وجنة الخلد مشتاقه طلابها
العاملين المخلصين!

نظام الإرث.. الإنسان.. والبناء وسورة النساء

« ١ »

في حديث موصول بالكلام على ما صاحب الدعوة من تنديد بما عليه الجاهليون من الظلم وكيف كانت المرحلة التنظيمية في العهد المدني: وجدنا أن نذارة القرآن لسكة الجاهلية في العهد المكي ظلمهم وجفوتهم للإحسان بقوله تعالى: ﴿وَتَاكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّا ﴿١٩﴾﴾ تحولت بمنهجية تكرم الإنسان وتحفظ الحقوق في العهد المدني — حين أصبحت كلمة الإسلام هي التي تقود المجتمع — إلى تشريع يحكم الناس وينظم شؤون التوارث فهما بينهما، الأمر الذي يتسق مع نظرة الإسلام إلى الإنسان ذكراً كان أو أنثى وتعميد القواعد التي ترتفع بالفرد والجماعة إلى إعطاء كل ذي حق حقه كاملاً غير منقوص.

وسبب نزول آيات الإرث يقفك على عملية التغيير، تحويلاً إلى ما هو الحق والحفاظ على إنسانية الإنسان، كما أراد ربنا تبارك وتعالى، فأين الظلم وأكل الحقوق بضوابط جاهلية، من العدالة الإلهية وإعطاء كل ذي حق حقه، ذكراً كان أو أنثى، صغيراً، أو كبيراً. روى ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال: جاءت أم كعة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن لي ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء وأنزل الله تعالى في سورة النساء: ﴿الرِّجَالُ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾.

هكذا تنص الآية على أن حق الإرث كائن للذكور والإناث جميعاً: فهم متساوون في أصل الوراثة ولكل نصيب مفروض فهما قل أو كثر من المال الموروث، وقد يتفاوتون بحسب ما فرض لكل منهم في نظام الإرث.

وهذه المرأة - كما نرى - كان ذووها - والله أعلم - لا يريدون توريث بنتيها ولا توريثها مطلقاً؛ بناء على أن الجاهليين - كما أسلفنا من قبل - يعملون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأملفال شيئاً، عملاً بضابط القدرة على حمل السلاح والدفاع عن الحوزة. وروى الإمام أحمد أن امرأة سعد بن ربيع رضي الله عنه جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا تتكحان إلا ولهما مال. قال عليه الصلاة والسلام: «يقضي الله في ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: ١١].

ويعد: فسيحان العليم بما يصلح عباده. لقد كان جسر البناء متصلاً بين المهدين المكي والمدني، فالاستتكار في العهد المكي تُرجم إلى تشريع ينظم حالات التوارث كلها في العهد المدني، حيث انتصرت راية الحق، وأخذ المجتمع الأمثل طريقه إلى الوجود العملي.

هذه القضية جزء من نظام فريد في دنيا الإنسان هو نظام الإرث في الإسلام، ولا علي أن أعود إلى ما قلت آنفاً من أنه لو لم يكن من دليل على أن القرآن من عند الله إلا تلك الآيات التي فصلت أحكام الإرث في سورة النساء، بمنهج فريد متميز لم يسبقه أي نظام قبله، ولا لحق به نظام بعده.. أقول لو لم يكن من دليل على أن القرآن من عند الله إلا تلك الآيات لكفى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

تلك هي سمة البناء الحكيم، وتلك هي طريقة القرآن في تنميةفاعلية المجتمع وإعطاء كل ذي حق حقه لتدور عجلة العمل والعطاء، كما ينبغي.

أجل بعيداً عن المظالم التي تفوق مسمرة الخير وتقهقر الإنسان. وإنها لقواعد مبرأة عن الخلل والظلم، أرسنها معالم الكتاب العزيز على منهاج لم يدع في حراسة الحق وكرامة الإنسان والحفاظ على كيان المجتمع المسلم، في الاجتماع والاقتصاد وتحقيق التكافل والتضامن: زيادة لمستزيد.

المهم أن نستهدي بهديها، وأن نضيد من زاد التجربة عطاءً في ظلها واعتزازاً بسلطانها. والله الهادي إلى سواء السبيل.



نظام الإرث.. الإنسان والبناء وسورة النساء

« ٢ »

أجدني مضطراً بين حين وآخر إلى التذكير بأنني أعرض للقضية التي يوحى بها المعلم القرآني بالقدر الذي يحتمله المقام، تاركاً التفصيل لمطائه، انسجماً مع العنوان العام لتلك القضايا التي تشرق بها الكلمة الهادية في الكتاب العزيز، وهي بياض من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وإن كان الأمر الأخير غير مطرد.

من هنا كان الذي ألمحت إليه فيما سلف من القول حول نظام الإرث في شريعتنا المباركة؛ مقصوداً على التذكير بالخطوط العامة لهذا النظام الذي تنزل به الكتاب العزيز بديلاً لخليقة سارية في الجاهلية المستحكمة، والضاربة على القلوب والعقول بالأسداد عند العرب وغيرهم وهي الظلم في التوارث، وجاء التنديد بتلك الخليقة تحت العنوان الذي يتلوه التالي وله بكل حرف عشر حسنات: ذلك قول الله جلّ ذكره في سورة «الفجر» خطاباً لمشركي قريش: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ١٦﴾ وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ١٧﴾ وذلك بعد قوله سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ لَأُكْرِمُنَّكَمُ الْيَتِيمَ ١٧﴾ وَلَا تَحَاضُنَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ١٨﴾ فالجاهليون لا يكرمون اليتيم، ولا يحث بعضهم بعضاً على طعام المسكين، ويتوارثون وفق عرف جاهلي مقيت...

والذي ما بدّ من التنبيه عليه - ونحن نستهدي لما نريد من سلامة البنية، يشقى فروعها وصورها في المجتمع، ونماء طاقاته الفاعلة المنتجة -: هذا التفصيل الذي يقع عليه المرء في الكتاب العزيز لأحكام الإرث؛ فترى النصّ على الثلثين، والثلث، والنصف، والربع، والثلث، والسدس، وحكم إرث الكلاله وما إلى ذلك، ناهيك عن التفصيل في الورثة، ومواقعهم من التركة. ناهيك عن أسباب الإرث، وموانع الإرث، وكل ما يتصل بذلك.

والمعهد قريب بما روى الإمام أحمد في المسند من واقعة امرأة سعد بن الربيع رضي الله عنها وينتجها حيث احتاز العم - بعد استشهاد سعد - التركة لنفسه دون الزوجة والبنتين، على ما كان في العرف الجاهلي، ونزل قول الله تعالى في الآية الحادية عشرة من سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أَبُوَاهُ فَلَهُمَ الثُّلُثُ إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَهُمَ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ الْإِلَهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾.

والآية الثانية عشرة التي تلي هذه الآية، وكذلك الآية الأخيرة من سورة النساء تسييران على النسق نفسه من هذا البيان المعجز.

يقول الله تبارك وتعالى في الآية التي تلي: ﴿لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصِيْنَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَاةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ إِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

وتطالعنا الآية الأخيرة من هذه السورة المباركة - والقرآن مبارك كله - بقوله جل ذكره: ﴿يَسْتَعِينُكَ قُلُوبُ اللَّهِ يُلْقِيكُمُ فِي الْكِلَالَةِ إِنْ أَرَادَ هَلِكَ نَاسٌ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

ولشد ما يزيدك هذا التفصيل الذي تناول كل نصيب بعينه حسب الموقع الذي يأخذه صاحبه من التركة.. لشد ما يزيدك يقيناً بأحقية هذا الكتاب الذي تنزل وحياً من السماء، وبصلاحية هذه الأحكام للعباد - أن لو استقاموا على الطريقة في الأخذ بها - وأنت واجد أن لهذا الأسلوب المعجز في بيان تلك الحقوق مغزاه - والله

أعلم — في الحفاظ على حقوق الوارثين بدءاً من القناعة الإيمانية وانتهاء بالقضاء والتففيذ، وذلك بعد الفوضى الجاهلية في العالم، وسلطان ضوابطها الظالمة؛ حيث الحقوق مهددة، وبخاصة ما يتعلق منها بالنساء.

وطرائق الإرث في جاهلية هذا العصر تؤكد هذا الذي نقول؛ حيث تصدرت الشريعة الإسلامية في المقابل: بأن الأحكام التفصيلية للتوارث — إلا ما ندر — قد أوحى بها نصاً إلى رسول الله ﷺ.

وهكذا شاء المولى سبحانه أن يكون وعاء تلك الأحكام آيات مباركات في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنزلها بواسطة جبريل عليه السلام على نبيه المصطفى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وكان ذلك في المجتمع الذي يظهر فيه الحق ويظلم عند التوارث النساء والأطفال، ويحتاز الأقوياء الأشداء تركة الميت وفق أهوائهم دون نظر إلى أي اعتبار آخر.. والأنكى من ذلك أن هذا الصنيع المنحرف كان لا يتقاضى عندهم مع الكرم والبذل في وجوه أخرى.. ولكنها الجاهلية!!.

والحق أن لهذا التفصيل الذي نوميء إليه قصة تتعلق بأحكام القرآن جملة، ومنهج هذا الفرقان الحكيم في التشريع؛ فقد جاءت أحكام وفيرة في القرآن وطابها طابع الإجمال والمموم — وهذا من حكمة ربنا جل جلاله وله سبحانه الحكمة البالغة — وجاءت السنة بتفصيل المجمال، وقد تقرر، وقد تؤكد، وقد تخصص العام، وتقيد المطلق.. إلى غير ذلك من ألوان البيان الذي أوتمن عليه النبي صلى الله وسلم وبارك عليه بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فالمبين: القرآن الكريم — وهو الوحي المتلو — وبيانه: السنة المطهرة وهي الوحي غير المتلو؛ والناظر في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام التي تزخر بها دواوين السنة المطهرة يجد — بيسر — مصداق هذا الذي نقول؛ وذلك كما في النصوص التي

تبين أحكام الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وقل مثل ذلك في النصوص التي تبين أحكام المعاملات بين الناس من عقود وغيرها.. وكثير من أحكام الأسرة في الزواج والطلاق والوصية، والإرث – على قلة – ومثل ذلك: أحكام العلاقات بين الحاكم والمحكوم والولاء والبراء، والعلاقات الدولية، ما للدولة المسلمة وما لغيرها في حالات السلم والحرب مع الدول الأخرى.. وهذا التعداد على سبيل التمثيل لا الحصر والقضايا التي فصلتها السنة ببيان مجمل أو تخصيص عام أو تفهيد مطلق وما إلى ذلك كثيرة وفيرة تطلب في مظانها من كتب التفسير والحديث والفقه والأصول.

وإنها لقضية جذرية كبرى أعطت – بحكمة الله البالغة – شريعة الإسلام قدرة فائقة منسجمة مع مصالح العباد وفطرتهم – على استيعاب شؤون الحياة وتقديم الحلول للمشكلات الطارئة، والوقائع المتجددة في المجتمع الإسلامي الجديد على سعة الرقعة الإسلامية في الفتوح، وما واجهته الشريعة من موروثات حضارية وأعراف معقدة، حيث لم يكن شيء من ذلك بمائق عن الاستيعاب الذي نوميء إليه، بل لم يحتج الأمر إلى الإعلان عن حقبة انتقالية للتطبيق.

وغير خاف أن الاجتهاد – بحدوده الموضوعية وعدم تجاوزه النصوص – قد لعب – على يد العلماء الأكفاء والأمناء أئمة الهدى – دوراً بارزاً على صعيد هذا البناء التشريعي البالغ الإحكام.

غير أن أحكام الإرث – كما رأينا – وأحكام الحدود والكفارات وبعض الأمور الأخرى جاءت – في الأعم الأغلب – مفصلةً محدّدة بنص الوحي إلى الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام.

فأنت واجد في كتاب الله – مثلاً – أن حدّ القتل كذا، وحدّ القذف كذا، وحدّ الزانية والزاني كذا على تفصيل في المحصن وغير المحصن. وقل مثل ذلك في حدّ الحرابة التي سداها ولحمتها محاربة الله ورسوله والسعي في الأرض فساداً، وفي تحديد الكفارات في الإيمان، والقتل الخطأ، والظهار.. إلى غير ذلك مما لا يحتمل المقام استقراءً.

ولعل الحكمة التي يراها المسلم في تحديد أنصبه الإرث، بعد تحديد أن التوارث — في الأصل — حق للذكور والإناث والصغار والكبار: هديه إلى الحكمة في الحدود والكفارات.

وإلى أن تتاح فرصة المتابعة لرحلة الانتفاع بهدي العلم القرآني الذي أضاء لنا هذه الطريق، وذلك بكلمات يقتضيها الكشف عن جانب من جوانب البناء في المنهج الرباني يتشابه فيه الجانب الاجتماعي بالجانب الاقتصادي في ظل الحرص على إنسانية الإنسان كما قرر ذلك الإسلام.. أرجو أن يكون لنا من هذا الوجه من وجوه الهداية في معالم الكتاب الكريم: مزيد من اليقين بأن خالق الإنسان والكون ومبدع سنن الحياة في الوجود: هو أعلم بشؤون عباده وما يصلحهم، الأمر الذي يجعل من شريعته الميمونة سبيلاً أمثل للبناء القويم الأمثل، مهما تعددت جوانب هذا البناء، وأحدث نهر الحياة بتدفقه من ضرورات وحاجات ومتممات.



نظام الإرث.. والبناء وسورة النساء

« ٣ »

أعود مرة أخرى إلى التذكير بالأهمية التي ينطوي عليها تفصيل القرآن الكريم لأحكام التوارث بين المسلمين وتحديد أنصبة الورثة.. ومما لذلك من أثر في الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي في الأسرة والمجتمع؛ ولعل مما يؤكد ذلك ما جاء من الترغيب في التزام هذه الأحكام، لما أنها من حدود الله، والممل بها طاعة لله ورسوله مجزية عند الله بالرضا الذي هو بفيه كل مؤمن، والفوز بالجنة في الآخرة، ثم ما جاء من التهيب من مخالفتها وتجاوزها، لما أن ذلك تعدل لحدود الله، وتعدي حدود الله معصية لله ورسوله. وجزاء ذلك جهنم وساعات مصيراً. ذلكم قوله تعالى بعد الآية الثالثة من الآيات التي جاءت على أحكام التوارث في سورة النساء، وذلك في الآيتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٢٤ ﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ١٢٥ 》.

وهي آخر آية من آيات أحكام الإرث في سورة النساء وهي الآية التي ختمت بها السورة، نجد التوبيه الواضح على أن هذا البيان من الله تعالى إنما كان تجنباً للوقوع في الضلال الذي هو تجاوز الحقوق، وما يحدث من آثار سيئة في عالم الأسرة والمجتمع، كما نجد التهذير من سلوك السبل الملتوية التي يراد من ورائها إضاعة حق أو العدوان على نصيب، ذلكم قوله تعالى: ﴿يَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٧٦﴾ [النساء: ١٧٦].

هذه واحدة: وأما الثانية: فهي أن المرء لا يكاد يشك فيما يقوله الباحثون – وبخاصة الاقتصاديين منهم – أن من حكم نظام الإرث في الإسلام، تفتيت الثروة، وعدم تركزها في يد واحدة كما هو عند الآخرين. وقد أشرت إلى ذلك فيما سبق من القول، ولكن هذا ينبغي أن لا يحول دوننا ودون استشعار الحكمة الاجتماعية بجانب هذه الحكمة الاقتصادية؛ فمما لا ريب فيه أن هذا التنظيم التفصيلي – إن صح التعبير – لأحكام الإرث وهو غاية الغاية في الدقة، يحدث نوعاً من الحياة في البنية الاجتماعية للأسرة والقرابة بشكل أعم، وهي حياة ترى معها – في ظل أحكام الشريعة – لوناً من الأخذ والمطاء وترسيخ العلاقات التي تكون أمتن وأمن إذا التزمت حدود الله.

يهدينا إلى ذلك ما جاء في واحد من المعالم القرآنية من أمر بإعطاء الأقرباء الذين لم يكن لهم نصيب من الإرث: حظاً من التركة إذا حضروا القسمة وأن يقابلوا بقول المعروف والكلمة الطيبة. وفي ذلك ما فيه من توثيق عرى المحبة والود، واستئلال المسخات من النفوس، وما يحدث من انعكاس خير على بنية المجتمع.

فالمطلوب أن يسهم الورثة في رفع مستوى أقرانهم الاقتصادي برغبة جدية صادقة ابتغاء مرضاة الله، وأن يكونوا عوناً لهم في طمأنينة أنفسهم كيما يكونوا قادرين على العطاء، لا يموههم عوز أو ضعف، أو وضع مالي معين، عن أن يكونوا لبنات صالحات في المجتمع، وصورة صحيحة عن نموه وتطوره إلى ما هو الأجدر والأولى بمن ينتمون إلى خير أمة أخرجت للناس.

فيعد الآية الأولى من آيات الإرث وهي قوله تعالى في سورة النساء: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧) نقرأ قوله جل وعلا: ﴿إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨).

ومطبعا الخطاب للمؤمنين الذين يفترض أن يكون امتثال أمر الله أعز لديهم من مال الدنيا جميعه، كما يفترض أنهم موثقون بالآخرة، وأنه لا ينفع يوم الحساب مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الواقع: إن تفرد الإسلام بخاصية التنظيم الموضوعي الدقيق لشؤون الاجتماع والاقتصاد، بجانب تنمية مشاعر الإيمان واليقين بما عند الله: هو الكفيل – أن لو فعلنا وأحسننا الاتباع – بنقلة جديدة إلى خير مما نحن فيه، خصوصا وأن ذلك لا يحجز بيننا – على طريق التنمية والبناء – وبين الإفادة مما عند الآخرين ما دمنا على الجادة فيما تمليه العقيدة وتحكم به مقاصد الشريعة وتوجيه أخلاقية الإسلام. وأين هذا كله مما كانت عليه جاهلية الأمس المتمثلة في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ﴾ (١٨) ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۖ﴾ (١٩) ﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۖ﴾ (٢٠) ثم ما نراه في الحضارة المادية البحتة المبتلاة بالحرص في شأن التوارث بين الأقرباء ومعاونة من لا يرثون!!.



من رواهد البناء.. هي سورة الفيل

يبدو من حصيلة ما يعطي المعلم القرآني في سورة «الفيل» على هدي التتبع لجزيئات الرحلة التي قادها أبرهة الأشرم، وما كان من المقدمات التي كانت في جانب، والنتائج التي كانت كما شاء الله أن تكون في جانب.. أن مما يوقع في بحران النتيه عن الحقيقة، ويسلم إلى التشتت في الحكم على الواقعة التاريخية، والإفادة منها – على ساحة البناء – عند رصد الوقائع وما تخلف من آثار، ويحول دون تنمية القدرة على تجاوز الصعاب: أن تقسّر الوقائع بعيداً عن ضوابط العقيدة التي فجّرت طاقات الإنسان في الإسلام، ودفعت به إلى خضم الحياة طاقة بناء – بإذن الله، على كل صعيد وهي كل ميدان.

وكذلك مما يجعلنا نضرب في حديد بارد، ونسلك الطريق التي تمود على ما نريد بالنقض عند مواجهة الوقائع والتعامل معها من زاوية تفسير التاريخ: أن تعلّل الأحداث في غفلة عن سنن الله الماضية في خلقه – وما أكثر الأمثلة على ذلك – وهي سنن لا تتبدّل ولا تتحوّل في ربطها بين المسببات والأسباب، والكليات والجزئيات، ربطاً محكماً يجري – في نطاق القضاء والقدر – دالاً على قدرة الله وعلى المحيط وحكمته البالغة فيما كان وما يكون..

فهو عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، المهيمن العليم بذات الصدور، القادر القهار الفعّال لما يريد.. وهذا لا يعني إهمال الأخذ بالأسباب التي هي من سننه الماضية سبحانه.

وانظر إلى قوله تباركت أسماؤه: ﴿كَيْفَ فَعَلَ ذَلِكَ﴾ «أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمُ» «وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ».

ومن وجهة النظر التي تتسجم مع طريقة التفكير الإسلامية التي عمادها أن النص متبوع ونحن تابعون، وأن من وظائف العقل أن يفهم النص، ويجتهد فيما لا نص فيه.. أقول: من هذه الوجهة: إذا روعي ما سبقت الإحياء إليه: فقد وضمت الأمور مواضعها، وضمنت الإفادة من ارتباط حلقات التاريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً – بإذن الله تعالى – ووجدت الأمة ذاتها، فتظرت بأعينها هي، وحكمت على الوقائع من خلال منهجها الذاتي المتميز، ولم تنظر بمعيون الآخرين لتري ما يرغبون أن يري، ولم تستبعد المنهج الفكري الذي لا يمت إلى وجودها الذاتي بصلة.

فأين الظلمات من النور؟ وأين الكفر من الإيمان؟

إنه لم يكن عبثاً من العبث – ولله الحكمة البالغة وله المثل الأعلى – أن يتنزل بواقعة التبييت الخاسر الماكر للبيت العتيق، وما حصل من ردّ الطغاة على أعقابهم خاسرين: قرآنٌ يثلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها وللتالي بكل حرف عشر حسنات، وأحكمت له سورة قائمة برأسها هي «سورة الفيل» وأن تكون على ﷻ آياتها ووجازة كلماتها إعلاناً في المالمين يتجاوز حدود الزمان والمكان يزخر بانتصار التوحيد على الكفر والضلال، وغيرة الله على بيته العتيق بإهلاك الذين دبّروا وبيتوا، شر هلكة وإخزائهم أمام الناس والتاريخ!!

ذلك بأن تفسير هذه الواقعة، والإحاطة بأسبابها وما صحبها من الإعداد، ووليتها من النتائج... من قبل الفئة المؤمنة – مهما تباعد الزمان – على النهج الذي يتضح من خلال ما حصل من غيرة الله جل جلاله على بيته – مع تذكير هريش بها، كيما تتحول إلى ساحة الحق -: رافد من أعظم الروافد المنتجة على طريق الأمة، هي أن تكون حصيلة تفسيرها لتاريخها، وحكمها على تاريخ من قبلها: طلباً للمبرة والانتفاع في ضوء الهدي القرآني، حين أشرقت بذلك معالمه، والمسلمون يصارعون الباطل وأهله، ويعملون على إرساء قواعد البناء المنشود، وتنمية الحس الداخلي بطبيعة الواقعة التي تلقيها على طريقها الأيام – وما أكثر ما تكد الليالي من وقائع – وما هي نسبتها من الرسالة التي يعمل تحت لوائها العاملون!

من أجل هذا: كان الإلحاح على أن تكون الأمة على الاحتفاظ بقوة الذاكرة، فلا تُثَقَّب ولا يُهْمَل ما تحمله في طياتها، وعلى أن يكون التعامل مع آثار ما حصل في التاريخ وما يحصل: هي ضوء عقيدة التوحيد، وسنن الله الماضية، والوفاء بمقوده التي عقدها كل مسلم ومسلمة على نفسه مع الله، مصحوباً ذلك كله بحسن النظر في العقابة التي آل إليها المحسنون، والعاقبة التي آل إليها المسيئون.

ومن أجل هذا أيضاً: كان من نافلة القول التذكير بأن ذلك كله مدعاة – بتوفيق الله – لإحكام العمل، وسلامة البناء، وحافزاً لإنماء الكفاءات القادرة على استيعاب وقائع التاريخ، فهما وسلامة نهج في الاعتبار، بحيث يجتنب الخطأ، ويلتزم الصواب، في تبين واع وتام للموامل التي من أجلها كان الخطأ خطأ، وكان الصواب صواباً؛ الأمر الذي يحول دون الأمة – وهي تواجه مسؤولياتها على الصعيد الداخلي، والصعيد الخارجي في أداء رسالتها للعالمين – ودون الغفلة عن أبعاد التحدي الذي يحمله الواقع وما فيه ومن فيه، وما يجب من العمل – بعلم وحكمة – على طرح الركام، وإزالة العقبات قدر المستطاع، كيما تدبيل للحق من أهل الباطل العادين على الأرض، والثروة، والفكر، والأخلاق، والمقدسات.

مرة أخرى: إن الوقفة المتأنية المتدبرة عند الذي كشفت عنه سورة الفيل – وأمثال ذلك كثيرة في القرآن الكريم – وأن ما حصل عند انعدام الأسباب الأرضية مما تحدثت عنه السورة وأخبرت عن وقوعه: كان بقدرة الله وحده.

أقول: إن هذه الوقفة المباركة البينة كفيلاً أن تمدنا – بمون الله – على طريق تحصيل الوعي، ومواجهة التحدي المتجدد بلا انقطاع: بالكثير من العطاء، والحصانة من الغفلة وفقدان الذاكرة وأن تمدنا بنور من نور الله، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].



سورة الذاريات.. والبناء

هذه أربعة عشر قرناً تمضي، وهي مثقلة بالأدلة الواقعية التي تعلن إعلانها في تأكيد ليس بعده تأكيد لحقيقة: أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وأنه لا بد — عن طريق البناء — من تنمية القناعة الإيمانية الواقعية بهذه البدهية الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لمن لا يشكون الرمد المستعصي، كيما تكون القناعة بهذه الحقيقة نقطة البدء في التغير إلى ما هو الأفضل، وذلك على هدي الكثير من معالم الحق في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ومنها قول الله تباركت أسماؤه في خاتمة سورة الحج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

ومما أسلفناه من القول على هذه الساحة التي نصطحب معها طرفاً من معالم الكتاب العزيز: ما يتبدى للتالي المتدبر من عظم الحقيقة التي قررتها آية كريمة من سورة «الذاريات» المكية، وهي قول الله جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. والأهمية البالغة لما تلا ذلك من قوله سبحانه: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

وهي نقلة إلى دنيا الواقع: وقفنا المعلم القرآني الذي تشرق به الكلمات الهاديات في تلكم الآيات، على ضرورة أن يكون في الحساب دائماً تبصير الأجيال — علمياً وتربوياً وثقافياً — بتلك الحقيقة أفراداً وجماعات، وبخاصة من أكرمهم الله بأن

يكونوا على الطريق الصاعدة في السفر القاصد إلى جمع القلوب والعقول على دعوة الله، فلهذا من الآثار الفاعلة، ما ينعكس على تطلعات الأمة، وتحفزها لمسيرة ظاهرة بإذن الله.

ذلك بأن عظم الغاية يثير البواعث الحقيقية في نفوس البُناة أهل الإيمان، وينمي الحوافز التي ترقى بأصحابها – مع العلم ومعرفة الواقع – إلى مستوى المواجهة الواعية المدروسة للتحديات أيأ كان لونها، أو الدافع إليها.

وليس عجباً من العجب أن تنزل هذه الآيات ونظائرها في العهد المكي – عهد الإعداد النفسي بالإيمان والصبر –، ورحى الصراع بين الشرك والتوحيد دائرة على أوسع نطاق، ومحاولة فتن الفئة القليلة المؤمنة عن دينها بشتى الأساليب الضمنية وغيرها، لا تهدأ ليل نهار..

إنه ليس عجباً من العجب والأمر كذلك؛ ولكن الذي يجب الوقوف عنده: ما يعطي ذلك من الأهمية البالغة لما ينبغي من الجودة في إعداد الإنسان على تمثل الحقيقة قلباً وعقلاً، ووضعها موضع الموجه الأساسي في حياته، والعمل على تكييف تحركه ليكون وفق تلك الحقيقة.

من أجل هذا – والله أعلم – ختمت السورة بشديد الوعيد للكفار، وهو أن لهم من العذاب مثل عذاب من سبقهم، وكانوا على طريقه حذو القذة بالقذة.

ذلكم قول الله جلت حكمته: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾.

إن هؤلاء الكفار، بما كانوا يواجهون دعوة التوحيد من الإعراض والأذى باستكبار ودأب كانوا يؤذون الإنسان – بوصفه إنساناً – أتى كان وحشماً وجد، ويقفون حجر عشرة دون البناء القويم الذي يراد له من قبل أهل الحق بقيادة النبي عليه الصلاة

والسلام، أن يأخذ أبعاد هـا وهـناك — لا تستثن ميداناً من الميادين — هـي نجوة من أوضار الجاهلية وعقابيلها، وعوامل تعويق الإنسان عن الخير على صعيد كل من الفرد والأسرة والقبيلة والمجتمع.

وهي المقابل: كانت الفئة المؤمنة، وهي تخضع طريقها بإيمان وصبر على لأواء هـذه الطريق، ضمن تلك الظروف شديدة الصموية، والمحن بالغة القسوة.. كانت تعمل — على الحقيقة — لإسماد الإنسان أياً كان هـذا الإنسان، وأينما كان وحيثما وجد.

ولو عدنا إلى الوراء قليلاً، في السورة المباركة، لرأينا بعضاً من صفات المتقين، التي تشمل الأفراد، كما تشمل ذلك المجتمع الذي بنته يد محمد ﷺ الصانع، وهو المجتمع القدوة في تاريخ الإنسان.

ذلكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۖ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَمُونَ ۖ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۖ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۖ (١٩)﴾.

إنها — وإيم الله — صورة من صور التكامل التي تؤذن بما يكون من انعكاس التمثل المؤمن الواعي للفاية الكبرى — كما أرادها الإسلام — على السلوك، ويضرورة أن يأخذ هـذا الأمر الجلال طريقه إلى مناهج التربية والتزكية والتعليم، وأن لا تقتنقه ثقافة المسلمين والمسلمات بحال.}}



من لمحات الإعجاز.. على ساحة البناء وسورة النحل

سبحان من أنزل على عبده ورسوله ﷺ الفرقان الحكيم، ولم يجعل له عوجاً، فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ومن الإعجاز أنه لا تتفد كلماته، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٠٩) ﴿[الكهف: ١٠٩]. «لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ» [نعمان: ٢٧].

وددت التذكير بهذه الحقائق بالغة العظم — التي لا يدرك كنهها إلا من أنار بصيرته الله رب كل شيء ومليكه سبحانه — وأنا بسبيل متابعة الرحلة على ساحة العطاء القرآني في شأن الرضا الوثيق بين العمل والسلوك وبين مبدأ المسؤولية والجزاء، وحظ المرأة المسلمة من ذلك؛ حيث وقفنا واحد من المعالم القرآنية الكريمة على الخطوط العامة المؤننة بذلك، في مجموعة من الآيات في سورة النحل بدئت بالآية التسعين، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٦).

وكان من هذه الآيات قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآيات، حيث ختمت الآية الأخيرة بقوله عز وجل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) [النحل: ٩٦].

وليس بمبدأ عهدنا بأن الآية التي دلت على ترتيب الجزاء، وأن الجزاء من جنس العمل، وأشعرت بأن المسؤولية كما شرف بها الرجل شرفت بها المرأة «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...» هي قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ الآية وقد جاءت بعد تلكم الآيات في السياق.

وهنا أيضاً ختمت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد كان فيما أسلفت من القول: أن من المفيد حقاً التنبُّه إلى فعوى هذا التشابه المعنوي الذي يكاد يصل إلى التماثل حتى في الألفاظ: بين ما ختمت به كل من الآيتين الكريمتين، وهما على التوالي: الآية السادسة والتسمون، والآية السابعة والتسمون.

قلت هذا، لأن ما يمكن أن ندعوه بالتطابق على محور الجزاء، يعطي فيما يعطي من قيم ودروس، أن الذين يلتزمون حدود الله منطلقين من قاعدة إيمانية راسخة يجزيهم الله ذكوراً كانوا أو إناثاً، بأحسن ما كانوا يعملون. وهذه المضاعفة للأجر هي من فضل الله الكريم سبحانه وتعالى.

وعندما نرى هذا الأمر الذي ينطق به نص قرآني قطعي الدلالة بالإضافة إلى كونه قطعي الثبوت: لا يخامرنا شك في أن الذين يوفقون لصالح العمل – بما له من أبعاد وشعب – ويكرمون بهذه البشارة العظيمة التي يتحقق شرطها الأول في الدنيا كما يتحقق شرطها الآخر يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً: لا تقاس أعمالهم بالجنس الذي هم منه في الخلق من حيث الذكورة والأنوثة، بل إن القاعدة النورانية التي صوبت الأخطاء، وردت الأمور إلى نصابها في هذا الباب: قوامها ﴿مَنْ عَمِلْ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أجل ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإذا عمل الرجل عملاً صالحاً وهو مؤمن: استحق تلك البشارة العظيمة إعظماً للأجر في الآخرة، مسبوقاً بالحياة الطيبة التي تسودها الطمأنينة والبعد عن القلق والتشاؤم في الدنيا، ومثل ذلك المرأة سواء بسواء.

ولعل من الخير أن نضيف إلى ما نحن بصدد في هذه الباب من الموضوع: ما يدركه التالي المتدبر للآيات: من أن الآية التي ذكر فيها الصبر مرغباً فيه أشد الترغيب: جاءت بعد طائفة كبيرة من الآيات التي حملت إلى الأمة الكثير من الأوامر والنواهي، وهي أوامر ونواه تذكرنا بقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا فأرعاها سمعك؛ فإنما هو خير يأمر به أو شر ينهى عنه».

فهي أوامر ونواة للعلم والعمل والتطبيق على صورة يتوافر فيها - مع العلم بالحكم - الإخلاص لله عز وجل، وليست لاستزادة من الترف المعرفي وكفى - بله التفكه لا سمح الله؛ الأمر الذي يدل على أن مرحلة العمل والسلوك التي تكون ترجماناً مخلصاً أميناً للمبادئ والقيم، بحيث يتحول مضمون الأوامر والنواهي - افعل لا تفعل - مع الترغيب والترهيب أو بدونهما أحياناً، إلى وجود حي يملأ ميادين البناء، ويوجه الحركة إلى حيث الإقبال على الله بتجديد العمل الصالح المصحوب بمراقبة الله عز وجل، والقدرة على تحمل ما يمترض المؤمن أو المؤمنة من المصاعب والمتاعب، مع الصبر على ذلك، وهو صبر أولئك الذين يجزيهم الله تبارك وتعالى أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

وتحسن الإشارة إلى أن المراد بالصبر الذي لا بد منه: الصبر بكل أبعاده ومدلولاته؛ فهو صبر على الطاعة، وهو صبر عن المصيبة، وهو صبر على لأواء الطريق الصاعدة إلى الله، وهو صبر على البلايا والمحن، وصبر على تكاليف التغيير إلى ما هو الأقوم. وما أحلاها كلمات مبشرات تلك التي يعلنها قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

والحياة الطيبة: هي التي تجمل كلاً من المسلم والمسلمة يسهم بإدارة حركة الحياة في ضوء رسالة الإسلام بتفاؤل وعزيمة لا يقهرهما حب العافية، أو الركون إلى الشهوة والهوى، ناهيك عن الرغب والرهب الدنيويين.

وبعد: فإن الحقائق التي نوميء إليها مما أشرقت به النصوص، حرية أن تعلن إعلانها في نفس المؤمن - وهو يعمل بها - مؤذنة بكمال التصديق بوعد رب العالمين الذي لا تنفد خزائنه، ووعد هو الوعد، وعهده هو العهد، ولا أوفى بعهده من الله.



بوارد اليقظة.. وسورة العصر.. التنبيه.. وأخذ الحذر

بوارد اليقظة في دنيا المسلمين اليوم تستدعي كثيراً من التنبيه وإحكام خطط المتابعة التي تضمن الاستمرار وتنفي أذى التمييق والتخذيل. ذلك لأن هذه البوارد تجيء بعد سنوات عجاف طال أمدها، وأصاب الأمة فيها ما أصابها من الضعف والتخلف، وغشّاها ما غشّاها من ظلام التبعية في كثير من الميادين الفكرية والاقتصادية والسياسية وغيرها، ناهيك عن انحسار تحكيم الشريعة في كثير من بقاع العالم الإسلامي. الأمر الذي بات الرواد يغشون معه الوقوع في المهلكة التي حذر منها قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

والدرس البالغ الأهمية في ذلك: ما كان عليه أولئك الذين صنعوا تاريخنا وحملوا عبء البناء من أول الطريق؛ فقد جمعوا إلى العطاء المجدي على ساحات البناء التي عليها يقوم المجتمع المتكامل القوي: أخذ الحذر من المعوقات والمثبطات التي قد تحول دون الحجم الكبير للعمل الدائب المطلوب من الفرد والجماعة، كما تحول دون استمرار البناء سليماً معافى تنمو من خلاله قدرة الأمة الذاتية التي تجعلها صاحبة الكلمة في قضاياها، ونظرتها إلى الحاضر والمستقبل، وما يلزم لذلك من استثمار خير لطاقاتها البشرية والمادية وما أولاها الله من رسالة كانت بها خير أمة أخرجت للناس.

فلقد كان على هؤلاء الرواد أن يكونوا — مع السعي الحثيث لترسيخ قواعد البناء وتممية الطاقات الناعلة المؤثرة — أن يكونوا مفتحي الأعين على ذلك التحالف غير المقدس بين المشركين واليهود من جهة، وبين المنافقين الذين يمايشونهم ويشايمنونهم في المدينة من جهة أخرى.

ويثقل المهمة الملقاة على العواطف - وهي تأخذ الطابع العالمي تبعاً لعالمية الرسالة الخاتمة - صحبته الكشف عن صنيع المنافقين في محاولة التعميق وإشعاف الهمم عن تحمل الأعباء الجسام، وبخاصة على صعيد القتال في سبيل الله، حيث يواجه المسلمون تحديات الكفرة - على اختلاف عناوينهم - إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل وامتنالاً لأمر الله في إبلاغ دعوة الإسلام للناس.

ولقد تبين من خلال الوقائع التي زخر بها التاريخ - على اختلاف ألوانها وبواعثها - أن غرس العقيدة في النفوس، وبناء الأجيال عليها وعلى العمل بعقدها، ثم تفتيح الأعين على الأخوة النابعة منها، هو المحور الذي يرسخ قدرات الأمة في كل الميادين، لما أن هذه العقيدة منهج كامل للحياة أولاً، ورياط وثيق بين المؤمنين يتعاونون من خلاله على البر والتقوى بأوسع مدلول وأشمله ثانياً: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وإنه لتعاون خوطب به أبناء الأمة بوصفهم مؤمنين، تشد بعضهم إلى بعض هذه الأصرة العظيمة، أصرة عقيدة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وانعكاس ذلك على الواقع العملي الذي يتولى المؤمنون إنشاؤه في ضوء الإسلام: نتيجة طبيعية تجمل من هذا الواقع ترجمة عملية حيّة ناطقة للدين الذي آمنوا به، وأعطوا لله ولرسوله الموثق من أنفسهم أن لا ييخلوا بأي بذل مستطاع من الوقت والجهد والمال والنفس، في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا، وشريعته هي المحكّمة.

هذا: والكلمات القليلة الجامعة التي حملتها سورة (العصر) بقصرها وغمزة معانيها تشير إلى هذا المنهج المتكامل في العقيدة والعمل الصالح الذي يجب أن يكون دين جماعية المسلمين - وهو العمل بمدلوله العملي الشامل لأمر الدنيا والآخرة - وما ينبغي لذلك من تواصل بالحق وتواصل بالصبر.

ولكم يحتاج بنیان الحق الذي يقوم به المكلفون في مواجهة تحديات الباطل، من هذه العُدَّة العظيمة وهي الصبر على تحمل التبعات امتثالاً لأمر الله وطمعاً بفضله ورحمته، والريح العظيم متيقنٌ عند ذلك؛ إذ إن الصابرين يوقون أجركم بغير حساب ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾.

ذلك لأن العقيدة – كما أسلفنا غير مرة – منهج حياة، والذين آمنوا بها وارتبطت قلوبهم بأصرتها العظيمة: هم إخوة يتعاونون صادقين على تحقيق ذلك المنهج بإنشاء الواقع العملي من خلاله، والمؤمن للمؤمن كالبنیان كما جاء في الحديث الصحيح يشد بعضه بعضاً – وشبك بين أصابعه.

من هنا تقتضينا أمانة الكلمة: أن نشير إلى أن بوادر الصحو التي تفرح لها قلوب المؤمنين، لا بد أن يصحبها – مع المعرفة الدقيقة الواعية بالواقع لما هو – انتهاج السبيل الواضحة الحكيمة في ترسيخ العقيدة وبيان ارتباطها بالعمل الصالح بمدلوله العملي الشامل الأنف الذكر، وأن التواصي بالحق والتواصي بالصبر هما ظاهرة التعاون الحقيقي وبرهانه على كل عمل بناء يؤدي إلى رفعة شأن الأمة وإبراز تميزها وذاتيتها، ويزيح من طريقها ما يعرض من معوقات ينسجها المكر والمراء الدفين للإسلام، وقد يقع ضحيتها المبتلون بقبالية التأثير بزخرف القول وخبيث المخططات وأهلية التقليد الأعمى، وما أكثر ضحايا الففلة والجهل!!.

وللتاريخ كلمة لا بد أنه قائلها في هؤلاء وأولئك أجمعين وما ريك بغافل عما يعمل الظالمون.



البناء.. وصراع الوجود في عودة إلى سورة الأحزاب.. وصورة كل من المؤمنين والمنافقين

« ١ »

الصورتان المعبرتان اللتان تقفنا عليهما سورة الأحزاب لكل من المنافقين والمؤمنين عندما واجهوا أحزاب الكفر وقد حشدت يوم الخندق من العدد ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل، ومن العدد ما يتناسب مع هذا العدد. هاتان الصورتان تنزلت بهما آيتان كريمتان هما قوله تعالى في شأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٦). وقوله تباركت أسماؤه في شأن المؤمنين: ﴿وَلَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (٢٢). وقد أشرت إلى ذلك في مناسبة سلفت.

وهي نقلة إلى الواقع المعاصر وما يمكن أن يصنعه المصلحون انتفاعاً بيدهية أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، يتبدى أن الذي تجدر الإشارة إليه من خلال هذا الواقع الذي تعيشه الأمة — وهي تتوئب لمنطلق جديد يعود بها — إن شاء الله — سيرتها الأولى في القوة الفاعلة والريادة، ويقف أعداؤها من ذلك موقف التريص الماكر حيناً، والعداء الساهر تحت سمع الدنيا ويصرها حيناً آخر —.

والذي يجدر الإشارة إليه من خلال هذا الواقع، لتكون الجسور موصولة بين معالم الكتاب العزيز التي وجهت إلى بناء الإنسان والمجتمع، وانشأت أمة القرآن: هو الدقة البالغة لوضع الصورتين، كما دلت عليهما الآيتان الكريمتان في إطار غزوة الأحزاب التي تمثل حلقة من حلقات الصراع بين الإيمان والكفر والحق والباطل، وهو ذلك الصراع الدامي الذي كان يهدف أول ما يهدف إلى استئصال شأفة الدعوة

الإسلامية وأهلها، والحويلة دون عملية البناء الشاملة أن تبلغ مداها، بعد أن شرعت تملأ ساحات الحياة في السياسة والفكر والاجتماع والاقتصاد ووضع الإنسان موضع التكريم على هدي عقيدة التوحيد وشرعية الله المباركة التي أنزلها الله للإنسان، أيأ كان هذا الإنسان وهي أي زمان أو مكان وجد. والله تبارك أعلم بما يصلح لعباده في عاجلهم وآجلهم، ويسعدهم في الدنيا، ويضمن لهم الفوز العظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والوضع الدقيق الذي نمنه، يعتمد على أن الصراع من وجهة النظر السليمة هو صراع على وجود أمة تصوغها رسالة الإسلام في أن تكون أو لا تكون، وإذن فالذين يعملون عبء تحقيق هذه الرسالة على ساحات البناء في الداخل وجهاد الأعداء في الخارج: ما بد من أن يسلم لهم محور التحرك تصوراً وتطبيقاً، وهم يوسعون لمنهج الله أن يأخذ وجوده الحقيقي، فيبني الإنسان والمجتمع والأمة وفق مراميه، وينمي كل واحدة من قدرات هذه الأمة وطاقاتها، ويسيرها في قنواتها الطبيعية التي تجعلها عناصر إنتاج وعطاء حضاري سليم.

وكان المحور هو الإيمان: الإيمان الذي يبدو الجهاد في سبيل الله والصبر في مستلزماته: من أوضح الأدلة على صدقه واستتارة القلب بضيائه. فالمنافقون — بنفاقهم — كانوا أحمق من أن يشرفوا وتناهم كرامة الجهاد الصادق والبذل في سبيل الله، فهم متهاكون قلباً وقالباً، تدور أعينهم كالذي يفشى عليه من الموت ولا يستحيون من النطق بالكلمة المخزية وهي أن وعد الله ورسوله بالابتلاء والنصر: كان باطلاً من الباطل ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ١٢]. كبرت كلمة تخرج من أفواههم وساء ما يزررون.

وعلى العكس من ذلك كان المؤمنون الذين لم يزدتهم حول الموقف إلا طمأنينة وثقة بوعدهم الله ورسوله بالابتلاء والنصر ﴿وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

موقف المناهقين كان نقضاً للعهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يؤثرون الأدبار، أما المؤمنون الذين خالطوا الإيمان بشاشة قلوبهم: فهم مستمرين على العهد والميثاق يستثمرون عظم المسؤولية، وأن الأمر يتجاوز الأفراد إلى مصلحة الجماعة، بل إلى تحقيق الوجود المملي لرسالة الإسلام التي تسمد بها الجزيرة العربية والبشرية كلها من وراء ذلك. وأنت واجد أنه تكريماً لموقف هؤلاء المؤمنين جاء قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿رَجُلًا صَدَّقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

إن امتداد تاريخ أمتنا الإسلامية زماناً ومكاناً — في ظل تلك القيم — يحمل الأهمية البالغة لتلك البدايات التي جعلت من صدق الإيمان وطهارة النفوس، شرطاً لازماً كافياً لمن تناط بهم عملية الإنجاز العظيم في أنفسهم وعلى الثغر الذي يقومون عليه، وإنشاء الواقع النابع من تلك القيم، والنظر إلى المستقبل من خلال ذلك.. إن امتداد التاريخ على هذه الشاكلة يجعل من المسلمات أن البداية السليمة على طريق طويلة يعتمدها كثير من الملاحظات المستجدة في العالم الإسلامي، وفي العالم كله: تقتضي إعطاء هذا العنصر من عناصر التكوين حظه الأوفى من المنهج والتطبيق، والحظ الأوفى يعني الفسح للمنهج الذي تطرحه عقيدة التوحيد على ساحات العلم والعمل وكل ما يلزم لعمارة الأرض واستثمار طاقات الأمة وخيراتها، لتكون في عزة ومنمة لم تكونا لأسلافها الأمناء، إلا بصدق الإيمان والتصور الصحيح للمنهج الرياني، وجعل المعرفة بريداً لاستثمار المسؤولية والقيام بأعبائها؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان والله ولي الأقوياء الأمناء، يجزيهم بما صبروا ويتقبل عنهم أحسن ما حملوا. وهنيئاً لأحبابه المقربين!.



البينة.. والمؤمنون.. سورة الأحزاب.. ودلالات آخر

« ٢ »

إن المشقات والمصاعب التي تنتظر أولئك الذين يسمعون الله بحمل عبه الدعوة، وما يكتف المسيرة الخيرة المرتقبة للأمة من معوقات.. كل ذلك يدعو إلى تأكيد ما قلناه قبلاً من ضرورة الدقة في تحليل الموقفين اللذين عرضت لهما سورة الأحزاب عندما واجه المسلمون — وهم في قلة من العدد والعدة — عشرة آلاف مقاتل أو يزيدون في غزوة الخندق.

والموقفان هما: موقف الهدامين المنافقين وموقف البينة المؤمنين؛ فالدقة هي تحليلهما ووضع كل منهما موضعاً في إطار تلك الغزوة التي تمثل حلقة من أبرز حلقات الصراع بين الحق والباطل، مقروناً ذلك بشراسة أهل الباطل في رحلتهم من مكة إلى المدينة لتحقيق ما يبتغون من القضاء على الإسلام وأهله. لذا كانت الدقة في التحليل: أمراً على غاية الأهمية من حيث التصور، ومن حيث العمل والإفادة من وقائع السيرة والتاريخ؛ ذلك لأن المحور الإيماني وما يثمره كان هو مناهل القضية في كل من الموقفين اللذين عرضت صورتيهما الكلمات الهاديات في سورة الأحزاب.

ففي الصورة التي عرضتها آية كريمة لموقف المنافقين ترى أن مرد الأمر إلى قلوب خاوية من الإيمان، ونفوس مقطوعة الصلة بالله عز وجل، ناهيك عن الشح الهالع والجبن الخالغ، والرغبة الملحة في الحطام الهابط.. وأي خير يرتجى من أمثال هؤلاء الهدامين؟.

وكان مرد الأمر في الصورة الأخرى التي تشرق بما كان عليه المؤمنون البينة وهم يتوشحون سيف الجهاد الصادق الذي يرتفع بصاحبه إلى مستوى رغبة الشهادة في سبيل الله واليقين بصدق ما وعد الله ورسوله.. كان مرد الأمر في تلك الصورة

المباركة إلى إيمان صادق خالطت بشاشته القلوب، فكانت الطمأنينة في النفوس، وكانت السكينة في القلوب، وكانت الشدة التي حملتها ريح المواجهة أضعف من أن تتال من تلك النفوس وتلك القلوب، بل إن جو المواجهة الذي ينذر بالمعركة التي يمكن أن تلتهم ما تلتهم.. لم يزد هم إلا إيماناً وتسليماً، ومزيداً من الحرص على طلب الشهادة بتنامي الحافز العظيم للقتال.. وكيف لا وهم يؤمنون بنصر الله وعونه – إن هم نصره – إيمانهم بطلوع هذه الشمس وغروبها .

وراهد مكين لا بد منه لهذا الذي نقول: هو أن الدقة في وضع كل من الصورتين موضعهما في إطار المعركة على طريق الصراع الدامي بين المشركين وأعدائهم من اليهود والمنافقين، لا تعني المحاصرة بالحد الزمني للصورتين، بل على العكس من ذلك: إنها تعني – والأمة تتعجز إلى التفسير النافع والعمل على إنشاء واقع ذاتي صحيح النسبة إلى أصالة الإسلام – ضرورة التنبه إلى الارتباط بين الظاهرة وبواعثها في موقف كل من المسلمين وأعدائهم، ومكانة المحور الإيماني المرتبط بالعمل المثمر المجدي، وبذل المال والنفس عن رضى وطمأنينة في سبيل الله.. وذلك ما يرشح صاحبه لحمل أعباء البناء المنشود، والعطاء الذي يعود بالخير على المجتمع والأمة.

كما تعني ضرورة التنبه إلى الترابط الواضح بين التخاذل والهلع وسوء الأدب الجاحد مع الله ورسوله، وبين النفاق الذي أطبق بظلامه على القلوب، فجعل من أصحابها طاقة معطلة عن البر، بل مؤذية للمجتمع والأمة، لأنها كانت مهياة دائماً لأن تظاهر اليهود والمشركين على الأمة ورسالتها الإنسانية الحضارية، وأن تكون أبداً أداة هدم وتخريب تحت ستار التظاهر بالإسلام، والإسلام منها براء، وذلك بعض ما توجي به حال المنافقين، وقلبات ألسنتهم عند مواجهة الأحزاب.

هذا: وتنمية الإدراك للترابط الذي نوميء إليه: قضية كبرى تعمل عملها في إزالة الفشاوة عن كثير من الأعين التي يسحرها الزخرف والبريق المصطنع.

وإذا كان الأمر كذلك، من حيث تجاوزُ صورة الموقف للحدِّ الزمني الذي وقعت فيه، لأنها مرتبطة بقيمة كانت هي السبب في الصورة والباعث على الموقف.. إذا كان الأمر كذلك: فما أشد احتياج الأمة – وهي تحاول أيضاً ترجمة تطلعاتها وآمالها المستقبلية إلى واقع ملموس كما يريد المخلصون من أبنائها – .. ما أشد احتياجها إلى تنقية الصفوف من الدخيل، والبعد عن الاكتفاء بالتكديس، بُعْداً يُستبدل معه الكم المتراكم على غير هدى: بالكيف والنوع.

أضف إلى ذلك ما تمسُّ إليه الحاجة من تحرير البداية الأولى على تلك الطريق الشاقة المتشعبة المسالك والابتلاءات، في ضوء العقيدة الصحيحة التي شاء الله أن تكون قاعدة وجود هذه الأمة، وناظم حياتها الذي لا يمول، لأنها تضيء القلوب بالإيمان، وتكرِّم الإنسان، وتدعو إلى العلم والعمل، واستثمار خيرات الكون المذلل المسخر للإنسان في مرضاة الله تعالى، وبذل كل ما من شأنه إعداد القوة التي تهب الأمة وجودها الذاتي الأصيل، وترتفع بها إلى المستوى اللائق بمواجهة ما يبيئُ لها في الظلام من مؤامرات مدروسة تشغل كثيراً من الميادين.

ولقد وقفنا المعلم القرآني في سورة الأحزاب – كما سبق – على ما خوطب به المصطفى عليه الصلاة والسلام – وهو يصارع العقبات في الداخل والخارج كيما يستقيم أمر القضاء على رواسب الجاهلية وإحكام البناء على الوجه الذي ينبغي – .. وقفنا على ما خوطب به صلوات الله وسلامه عليه بأن لا يأذن للمنافقين بالخروج معه إلى القتال لو استأذنوه، بعد أن تخلفوا عن القتال فرحين بمقدمهم خلافه، يوم توجه مع الصعابة في الحر اللاهب إلى تبوك؛ إذ دل صنيمهم على خراب النفوس، والمرض المستعصي في القلوب، وذلك – والله أعلم – كيما يكون الرجال الذين يناط بهم العبء وتلقى على عواتقهم رسالة التفسير إلى ما هو الأفضل في ميزان الإسلام – على كفاية إيمانية تباعد بينهم وبين التغلغل والتعويق.

أما الكفايات الأخرى: فتبنى على تلكم القاعدة الإيمانية، لأنه إذا اختل أمر العقيدة: كان شأن أصحاب الكفايات شأن أولئك المنافقين لا يجدي أهل الإيمان فتيلاً، بل إن قابلية الأذى والإضرار بالأمة قائمة عندهم، موجودة لديهم، لأنهم فاقفون لرابطة الانتماء الحقيقية التي لا رابطة أقوى منها، مُسلمو أنفسهم للهوى والشيطان.

وكم نكون موضوعيين مخلصين للحقيقة التي نتحرك تحت رايتها، حين لا نخلط بين الحرص على العقيدة ركيزة أساسية للبناء، وبين عدم التخصص والقدرة على الإنتاج المثمر؛ ذلك بأن الحرص على العقيدة لا يعني التهاون بالإعداد المتكامل، بل العكس هو الصحيح: لأن العقيدة نفسها تعلي ذلك وتدعو إليه، ومؤيدات هذه الحقيقة القولية والفعلية تكاد تفر من الحصر.

كما لا يصح أن تنسينا بعض الكفايات موقع العقيدة من البناء، بما يحمل صاحبها من الأمانة، وعميق الحوافز وصدق الانتماء، والله غالب على أمره ولكن كثيراً من الناس عن هذا غافلون!!.



البنية الثقافية.. ودرس من سورة المائدة

« ١ »

ما تقفنا عليه آيات سورة القصص في شأن من أسلموا من أهل الكتاب بعد أن قدموا من الحبشة، كما تدل بعض الروايات، وهي مما تنزل في المهد المكي، والفئة القليلة المؤمنة تخطو أولى خطواتها على طريق البناء بدءاً من ساحة الصراع بين التوحيد وبين الشرك والجاهلية — ما وقفنا عليه تلك الآيات وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ يُزَوَّجُ لَهُمْ زُفَرًا مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٢ — ٥٤]. من مؤشرات لها ما لها من آثار طيبة مباركة على البنية الثقافية، يأخذ بيدنا إلى المهد المدني حيث تطالما آيات من سورة المائدة بقضية، بينها وبين آيات سورة القصص المكية نوع من صلة القرى — كما أسلفنا من قبل —.

ونجد من خلال ذلك، ما يدل على أن منهج البناء — ومنه ما يتعلق بالكيان الثقافي والفكري، أخذ حظه من العناية في كلام الله تبارك وتعالى، خالق الإنسان والكون، الحكيم في تدبيره، العليم بما يصلح عباده.

وأنت ترى في الآيات المباركات من سورة القصص إعلماً من الله عباده بما كان من هؤلاء الذين تحولوا شطر رسالة الإسلام وآمنوا بالقرآن.

وها نحن أولاء نقرأ في سورة المائدة ما يخبر الله تعالى به عن الذين بلغ من صدق إيمانهم بدين الإسلام ورقة قلوبهم: أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من كلام الله والحكمة، ترى أن أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق لدى الفريق الآخر.

ذلكم قوله جل وعلا: ﴿تَجِدُنَ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَتَجِدُنَ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَعَارِي ذَلِكَ بَأْنِ مِنْهُمْ قَسِيحِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ٨٤﴾ فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ٨٥﴾.

أرايت إلى هذا الوضوح وإعطاء كل ذي حق حقه دون وكس ولا شطط. ثم ألا تعجب ممن يتوهم أو يظن أن هؤلاء الذين يعرض القرآن موقفهم الإيماني بهذا الوضوح الجازم، هم على غير دين الإسلام، مع أن الذي تعطيه الآيات بصورة يقينية تقطع أي احتمال أن القوم قد شرح الله صدورهم للإسلام، وآمنوا بالقرآن عند سماعه، عن معرفة ووعي، إيماناً لا يتزعزع، وتوقفاً — صادقين — حلاوة هذا الإيمان، وبلغ من خشوعهم أن بكوا أشد البكاء حتى فاضت أعينهم من الدمع؛ ولم يكن ذلك من عاطفة عابرة، ولكن بما عرفوا من أحقية هذا الكتاب بأنه من عند الله، وأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه صادق في دعوى الرسالة.

ولا يرتاب النارون إلى الله السالكون إليه جل شأنه، أن الدفعة الخاشعة هي هذا المجال: عنوان رقة القلب ووجهه وصفاته، وأنه قد استضاء بهذا النور العظيم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾﴾ [الأنفال: ٢]. وما أعظم ما حررته الكلمات المعجزات من الترابط بين خشوع القلب وبين ما عرفوا من الحق ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٢].

إن الأمانة في تربية أجيال الأمة وتكوينها الثقافي، تقتضي أن يتخذ من هذا الذي يهدي إليه المعلم القرآني في عرض هذه القضية — كما هي — في كلياتها وجزئياتها، وأن هؤلاء القوم — ومنهم قسيسون ورهبان — قد آمنوا عن معرفة

ووعي، وأنهم تأثروا التأثر البالغ بالقرآن فبدا أنهم قد توافر لهم خشوع القلب -، حتى بكوا أشد البكاء عند سماع القرآن - واستارة العقل وقناعته بالدليل، إذ كان تأثرهم لما عرفوا من الحق.. أن يتخذ من ذلك نبراس يهتدي بنوره من يحملون أمانة التثقيف والتربية والإعداد بشتى صتوفه وألوانه، ضمن ما يجد من تطور الوسائل والتحديات!!.

والحق أن هنالك قضيتين لا بد من وضعهما في الحسبان:

أما أولاهما : فهي أن إبراز ذلك في القرآن الكريم، يزيد من يقين المؤمن بأنه على الحق - والحمد لله - وأن المعرفة إذا اقترن بها التجرد في طلب الحقيقة، وصلت بصاحبها إلى شاطئ السلامة بإذن الله. ومن جرى الحديث عنهم أنموذج واضح كل الوضوح لذلك.

وأما الثانية: فهي أن ما يجب أن نتعلمه من هذه الآيات: هو مما يقني البنية الثقافية وينمي فاعليتها في معركة الصراع بين الحق والباطل، كما يريدنا الإسلام، وهي بنية إذا توافرت لها السلامة على الوجه الذي ينبغي، بعبداً عن الزغل، واستبطان المساءة. كانت لها الانعكاسات الطيبة على الجماعة والمجتمع بكل ميادين وألوان النشاط فيه، بل على الأمة صاحبة الرسالة جمعاء.

ذلك لأن الثقافة، تحمل ما تحمل من الفاعلية والتأثير في الفكر والتصور والسلوك..

ومما يجب أن نتعلمه من الآيات على هذه الساحة: ما ينبغي من تعميق الوعي في نشدان الحق وحسن استخدام وسائل المعرفة «وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ» انظر إلى هذا التحديد!! إنه الحق، وليس وراء الحق إلا الباطل.. وليس بعد الهدى إلا الضلال! وليس بعد الهدى إلا الضلال!.

واحسب أن التكامل بين المعرفة وصلاح النفوس وانعكاس ذلك على السلوك: واضح في قوله تعالى على لسانهم: «رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» «وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ» إذن هناك صلة بين التزود من المعرفة، وبين العمل على تزكية

النفوس وملاحها ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وذلك ما يبعث في النفس الاعتزاز بالإيمان وصدق اللجوء إلى الله، بل هذا ما يجب أن يكون لبنة مضيئة في الكيان الثقافي، والله تعالى لا يضيع عنده مثقال ذرة وانت تقع من خلال ذلك على درس عظيم في ارتباط الجزاء بالمعمل ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَاءَتْ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٨٥).



أجيال البناء.. ومؤشرات في سورة السجدة

« ٢ »

كلما عاود المرء النظر في كتاب الله — وهو الكتاب المعجز — ازداد يقيناً على يقين بأن الكلام الذي انتظمه، هو كلام الخالق الحكيم، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وكلما عاود النظر في آية من آية أو آيات، أو سورة أو سور: ازداد يقيناً على يقين أيضاً، بأن ما تهدي إليه معالنه الخيرة في كلماته النورانية، هو الحق الذي لا مرية فيه، والطريق الأقوم الذي لا يخضع للتجربة التي تحتل الخطأ والصواب.

كيف لا والذي أنزله هدىً ورحمة، هو الذي خلق الخلق، وأبدع الكائنات، وأقام العلاقة بين الإنسان والكون والحياة على سُننٍ لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، وهو سبحانه أعلم بما يُصلح عباده، وما ينبغي أن يكون عليه أمر الدنيا والآخرة.

وهذا بعض ما يفترق به منهج المخلوق من منهج الخالق إذ إن ما يصدر عن عباد الله المخلوقين الضعفاء، لا يستوي هو وما يصدر عن رب العباد الخالق القادر الحكيم.

أقول هذا وأنا أنظر في إحدى السور المكية سورة «السجدة» أستضيء بنورها ويقع ناظري فيها على تبكيت الكفار، في مشهد يكونون عليه يوم القيامة وهم ناكسو رؤوسهم يتمنون لو يعودون إلى الدنيا ليؤمنوا على زعمهم بما كفروا به من قبل، يوم كانوا في دار العمل.

كما يقمعان على ما يؤذن بقصر الإيمان الصادق بآيات الله على أولئك المؤمنين على إحكام البناء الذين إذا ذُكروا بتلك الآيات، خرُّوا سجداً وسَبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون.

يقع منهم ذلك وهم على حالٍ من اليقظة في تطلعٍ إلى كل ما فيه مرضاة الله، والخشوع بين يديه، ينضم إلى ذلك أنهم يتفقون مما رزقهم الله. وهذا يشعر بأن صلاحهم لا يقتصر على ذواتهم، ولكن يمتد إلى المجتمع إسهاماً في الخير، وتعاوناً على ما فيه قوة الجماعة وسلامة كيانه؛ ذلكم قول الله تباركت أسماؤه في شأن الكافرين: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِنَا فَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَلَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وفي شأن أهل الإيمان يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

والحق أن القضية التي تستوقف الناظر المتدبر في تاريخ تلك الحقبة، أيام المهد المكي؛ هي طرح صفات للمؤمنين المؤمنين مع البناء الأمثل: تميز سلوكهم، ومنها الإنفاق مما رزقهم الله؛ إذ أن الإنفاق على الشكل المثلى عليهم فيه - وهو مختلف كلياً عن كثير من ألوان الإنفاق في الجاهلية - يعني - فيما يعني - حساً جماعياً نابهاً من العقيدة، يحفزهم إلى المشاركة في حمل العيب - ابتغاء رضوان الله - على ساحة التكامل والتعاون المجدي دون من ولا أذى، والإسهام بشكل تلقائي، هي تقوية البنيتين الاجتماعية والاقتصادية.

وهنا - في الآيات الكريمات - جعل الإيمان صادقاً مقصوراً بكماله، على من يقدمون البرهان على وجوده؛ والبرهان: هو هذه الصفات التي منها الإنفاق ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وما يزال مُجدياً استدكار أن هذه الصفة، قد جرى ذكرها - شاء على صاحبها - في غير ما موطن من الآيات المكية - كما سلف من قبل -.

ولعل في هذا: إشعاراً للمؤمنين – على قلة عددهم وأن قياد المجتمع ليس بأيديهم – أن دعوتهم التي يتألم الأذى في سبيل نصرتها: هي دعوة للحياة بكل ميادينها بدءاً من إحياء القلوب والنفوس بالكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي إن طريق البناء الطويل الذي بدأت خطواته الأولى في مكة المكرمة – حيث أشرق نور الدعوة – إنما يصبر على تبعاته في كل ميدان، وعلى كل ثغر. أولئك الذين يسلم لهم – مع العلم وكفاية التخطيط والعمل – حسن الصلة بالخالق تبارك وتعالى؛ الأمر الذي يمني الحوافز، ويضمن قابلية الاستمرار، طمعاً برضوان الله تعالى وحسن العاقبة يوم الدين؛ فلقد كشفت الآيات التي حولها ندندن – بعد ذكر الصفات التي يتحلى بها أولئك الذين رزقوا صدق الإيمان – أن لهم من إكرام الله في جنات الخلد ما لا يحيط به علم البشر المحدود ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧).

ولكم يكون الرواد الأمناء على التتهيج لأجيال البناء: موضوعين حقاً، حين يعملون على أن يكون من الأهداف الكبرى، إعداد الإنسان إعداداً متكاملأ، يحس معه الفرد ذكراً كان أو أنثى – ومن ورائه الجماعة – بأنه حين يقوم بمعمارة الأرض، والإسهام في تحصيل القوة الذاتية للأمة، يعبد الله تعالى، ويترجم – في طلب لرضا الله – منهج الحياة الذي تلمحه العقيدة، إلى وجود عملي في دنيا الواقع، صنيع الأسلاف الذين فهموا الإسلام هذا الفهم، فشادوا تلك الحضارة الإنسانية المؤمنة، حضارة الإسلام.



البناء في إطار التكامل.. وجزاء العمل في سورة السجدة

« ٣ »

كان عظيماً جداً ما أعطى القرآن من التصنيف العملي لصنيع الكافرين وصنيع المؤمنين — فيما رأينا من آيات سورة السجدة — كما سبق بيانه — بدءاً من الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا...﴾ الآيات.

وقد ترتب على ذلك، تقرير أن ما لقيه الكفرة المجرمون — من نسيان الله لهم وتعذيبهم في الآخرة — إنما كان بسبب ما كانوا يفعلون.

فبعد الإجزاء بصنيعهم جزاء كفرهم باليوم الآخر مع قيام الدليل عليه، وعرض مشهدهم يوم القيامة وهم منكسو الرؤوس، يدعون الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وبيان أن الأمور بيد الله سبحانه جاء قول الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي بسبب ما كنتم تعملون، مما يدل على أن الكفر الذي كانوا يتمرغون في أفعاله في الدنيا، هو في الحقيقة عمل، ولكنه عمل سوء وهدم لأنفسهم وللمجتمع.

أما عن المؤمنين: فقد أتى عليهم رب العزة، ذاكراً من صفاتهم: صدق تذكرهم، وعميق تأثرهم بآيات الله إذا ذكروا بها، وما يطبع سلوكهم من علو الهمة في طاعة الله، حتى إنهم لهجفون المضاجع — والناس نيام — يتخشعون قياماً بين يدي ربهم ويدعون خوفًا من عقابه وطمعاً في رحمته، وفي الوقت نفسه، لا ييغلون بالإتفاق مما رزقهم الله؛ إذ تمتد آثار سلوكهم، إلى نفع الآخرين؛ لما أن إمداد المجتمع بما ينمي طاقاته، ويقم أوده الاقتصادي؛ ودفع غائلة الفقر والعوز عن إخوانهم، هو

عبادة مرغَّبٌ فيها شديد الترغيب، مثوب عليها في دين الإسلام: تنضمُّ إلى ما يقومون به من عبادات توفيقية أو غير توفيقية آخر ﴿تَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦).

ويعد ذلك كله: نجد في الآية التالية البشارة العظيمة بما هم صائرون إليه من حسن العاقبة وجميل المثوبة في الآخرة، فإن أحداً لا يعلم ما اختبئ لهم مما تقرر به أعينهم، وتعلمتن به نفوسهم.

وكُشف النقاب في ختام الآية أن ما نالهم من الخير كان جزاء بما كانوا يعملون، وفي ذلك ما فيه من تقرير العدل الإلهي المطلق، وأن الله جلَّ شأنه لا يضيع عنده مشقال ذرة من عمل، ناهيك عما تحمله هذه البشرى من الترغيب الشديد في سلوك مسلكتهم الطيب النافع في الدنيا والآخرة. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) أي جزاء بسبب ما كانوا يعملون.

هكذا أعطي السلوك عند كل من الفريقين صفة العمل، وترتب الجزاء على ذلك العمل؛ هنا نرى ما نرى في بشارة أولئك البررة من المؤمنين الصادقين الذين يمتد نفعهم إلى الآخرين ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) ومن قبل رأينا في وعيد أولئك الكفرة الجاحدين وقوع اليوم الآخر: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٨).

والواقع أن مسؤولية البناء لا تقارن المسلم، لأن المسلم متمبِّدٌ بعمارة الأرض والإفادة مما سخر الله له في هذا الكون المريض لبناء القدرة الذاتية للأمة.. هذه المسؤولية إنما يقدرها حق قدرها، ويعمل على أداء حقها: عبودية لله تعالى: أولئك الذين يَؤمنون حقيقة الإسلام، ويسارعون إلى كل ما فيه مرضاة الله عز وجل؛ علماً وعملاً وسلوكاً وفي ذلك ما يفني المجتمع — في شتى النواحي — ويضمن نمو قدرته العلمية والاجتماعية والاقتصادية، وما إلى ذلك، ناهيك عما يضمن بناء القوة التي ترهب عدوَّ الله وعدوَّ أمة الإسلام، والتي يراد منها: حماية الحق، ودفع الظلم، ونشر دعوة الخير في العالمين.

وهذا ما يجعلنا نعاود - بكثير من الثقة واليقين - تأكيد أن الدلالة العظيمة التي يتطوي عليها وصف المؤمنين الصادقين بأنهم - بجانب الفضائل التي يوصفون بها - ينفقون مما رزقهم الله: هي دلالة على ما يمكن أن يصنعه الجمع بين العقيدة والسلوك القويم في النفس الإنسانية؛ بما يحدث من تسخير الطاقات في قنواتها الطبيعية، ووضع الأمور مواضعها؛ وهي دلالة بالغة الأهمية تأخذ مكانها الدقيق المناسب في نسج التكامل الذي لا يميزه الاهتمام بالأولويات، وتصنيفها بإحكام، فيما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون تصوّراً وتطبيقاً عملياً في دنيا الواقع.

وقد لا ننفي التكامل - على إطلاقه وبأبعاده جميعاً - فذاك يؤخذ من مجموع النصوص هنا وهناك، وما أوفر وأوضح دلالاتها!!

ومهما يكن من أمر فإن هذه الآيات وأمثالها - بمؤشرات المبكرة في العهد المكي، حيث المصاعب والأذى، ومحاولة الفتنة عن الدين في مجتمع لا حول فيه للمسلمين على الصعيد التنفيذي ولا طول - كما ترتفع بالمؤمنين إلى مستوى الناعلية والتأثير في صنع المنهج وتنفيذه، والتكامل الدقيق الذي يمكن - بمون الله - من دفع عجلة البناء والإنماء في إضادة من التطور العلمي وآثار هذا التطور، فهي - أعني تلك الآيات وأمثالها - حجة على كل أولئك الذين يفهمون الإسلام على هواهم، وينظرون في عقيدته وشريعته وتاريخه بقول الآخرين.

مع أن الأدلة من النصوص، ومن الواقع التاريخي، والتطبيق العملي - مع وجود بعض الصفات التي لا يبرأ منها تاريخ وإن كانت في تاريخنا لا تعد شيئاً أمام ما جرى عند الآخرين - .. مع أن هذه الأدلة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، على أن هذا الإسلام دعوة الحياة بأوسع مفهوم؛ فهي تبني الحياة على نور من الله، وتسلك بالإنسان سبيل كرامته وحرية. وترتفع به إلى ما تسعد في الدنيا ويوم يقف الناس لرب العالمين.

ولكن أين التجرد في الحكم حتى من بعض أبناء جلدتنا هداهم الله؟ ﴿أَلَمْ يَعْلمْ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَذْكُرُ آثَارَ الْآلِهَاتِ﴾ [الرعد: ١٩].

عمارة الأرض.. والآفاق الحضارية البناة والتأسي..

وسورة السجدة

« ٤ »

بمقدار ما تبدو عملية البناء التي اضطلع المسلمون بحمل أعبائها ضخمة متسمة الأرجاء، متعددة الميادين: كانت العناية واضحة في إعداد المسلم – ذكراً كان أو أنثى – وتتمية الحواجز التابعة من العقيدة عنده، ليكون على المستوى المطلوب؛ وحقوقاً عند حدود الله تعالى فيما تعبد به من التفكير والتدبر، والإفادة مما سخر للإنسان من الكون برأً وبصرأً وجواً وما أودع في هذا الكون من خيرات وثروات، وعناصر لها وزنها العظيم في ميادين العلم والبناء الحضاري، وحقول التجارب والإنجاز وأثرها الفعل في تطوير طرائق المعرفة والإفادة من التسخير.

ومن حكمة الله تعالى: أن المؤشرات لرحلة البناء الطويلة التي تتسم بسلامة المنطلقات، ووضوح الفاية، كانت مبكرة منذ أوائل العهد المكي، كما دلت على ذلك آيات عديدة أسعدنا اصطحاب زمرة كريمة منها والاستنارة بهداها في بعض ما سبق من القول.

ومع آيات كريمات من سورة السجدة – وهي إحدى السور المكية – كانت لنا وقفة أمام الأهمية التي يحملها لون من التكامل في الصفات التي تطبع سلوك المؤمنين الصادقين بإيمانهم؛ إذ إن هذا التكامل يعني – فيما يعني – أن المؤمن، مطلوب منه أن يحقق عبودية الله في الأرض، لا في نفسه – فحسب – طاعة وخضوعاً بين يدي الله عز وجل، ولكن فيما وراء ذلك أيضاً؛ حيث تمتد دوائر العبادة إلى الإنفاق مما رزقه الله من الحلال الطيب، عن رضى وطيب نفس.

وهي ذلك ما فيه من إسهام في تكوين بنية سليمة للجماعة على طريق المجتمع الأمثل المنشود، ورفق قواعد الحضارة المثلى وروح التعاون والحسن الجماعي بين أولئك الإخوة، الذين تلاقت قلوبهم على كلمة الله، وعقدوا الخناصر على أن يكونوا أوفياء للعقيدة التي شاء الله أن تكون منهج حياة لا يفادر ميداناً من الميادين، إلا أشاع فيه الحياة.

والآيات المشار إليها هي قول الله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ١٥﴾ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ١٦﴾.

ولكن ما كان لنا أن نلقي عصا التسيار، بعد تلك المعجالة من القول، قبل أن ننظر في بعض ما ورد في السنة المطهرة مما له صلة بهذه الآيات، ويعطي مزيداً من وضوح الرؤية في شأن صفات المؤمنين الذين يتحركون في ميادين البناء.

فعند تفسير قوله تعالى في شأن أولئك البررة الذين ينطق سلوكهم وصالح عملهم بصديق إيمانهم: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ١٦﴾ يورد المفسرون ما روى الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «حُجِبَ رَيْنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ ثَارَ مِنْ وَطْأَتِهِ وَلِحَافِهِ، مِنْ بَيْنِ حَبِهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، وَرَجُلٌ هَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، هَانَهَزَمُوا فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ وَمَا لَهُ فِي الرَّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أَهْرَقَ دَمَهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلَائِكَةِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي، حَتَّى أَهْرَقَ دَمَهُ، وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الْجِهَادِ.

وواضح أن هذه الكلمات النورانية قالها رسول الله بعد فرض الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام كما سنرى قريباً إن شاء الله.

ولئن كان رسول الله ﷺ – كما تدل أحاديثه القولية والفعلية – قد حرص على التكامل في بناء الفرد المسلم الذي يغوص به معركة البناء.. إن الطابع العملي في سيرته ﷺ حجة قائمة على أمته في أن تتخذ من هديه الذي هو بيان الكتاب المميز، نبراساً يضيء المسالك ويمين في مسيرة التغير، فرسول الله ﷺ وهو المبلغ عن ربه ما أراد – كان يقول ما يقول ويفعل ما يفعل ويقرّ ما يقرّ، وهو يمارس بكلتا يديه عملية البناء، ولا يني ينمي الطاقات والفاعليات حتى أرسى القواعد وأحكم الأسس، فهل تتدبّر الأمة أمرها، وترجم المواظف إلى واقع عملي يعيد لها بالكتاب والسنة سيرتها الأولى؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصِرُوا اللَّهَ فَيُصَرِّكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.



ببات التي يفترض أن يضطلع بها في ميادين البناء الحضاري السليم.

كان مما رأينا من ذلك - فيما سبق - ما روى أحمد وأبو داود من قوله
ب رينا من رجلين: رجل ثار من وطاله ولحافه من حبه وأهله إلى صلاته،
عندي وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله تعالى، فانهزموا فما
من الضرار، وما له في الرجوع، فرجع حتى أهرق دمه رغبة فيما عندي، وما
عندي؛ فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي، رجع رغبة فيما
عندي مما عندي، حتى أهرق دمه..

هذا الحديث الذي نطق به رسول الله ﷺ بعد مشروعية الجهاد، يدل بآدي
على تعظيم شأن الصلة بالله تعالى، وفضل هذا الرجل الذي ثار من
فه، من حبه وأهله إلى صلاته في جوف الليل، رغبة فيما عند الله وخوف
؛ إنه واحد من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦).

ما يدل الحديث أيضاً على مكانة الجهاد في الإسلام، وفضل المجاهدين؛
ي يثني على رجل غزا في سبيل الله تعالى، ورجع إلى مكانه من الصف
م مع من انهزموا، وظل يقاتل حتى أهرق دمه رغبة فيما عند الله وما
داء من العطاء، ورغبة من العقاب الذي يحل بمن يفر من الزحف. وهذا
الإيمان.

ولاه، ضارع إليه يستمد منه العون والقدرة على تحمل التبعات، ويسأله النجاة يوم الدين. مجاهدٌ في سبيل الله؛ فإما النصر وإما الشهادة وكذلك كان أصحاب رسول ﷺ؛ وذلك مما أقدرهم - والله أعلم - بعد أن انتصروا في ميدان النفس فلاحوا في تزكيتها - على تحقيق ما أنجزوا من التعضية على آثار الجاهلية الانتصار في مواجهة التحديات التي لم تقتصر على ميدان القتال، بل كانت عديدة الضراوة في عدد آخر من الميادين.

على أن الحديث يشير - كما يبدو - إلى نوع من الوجود العملي يصنعه تكاملاً لعمل والحركة والسلوك بين المؤمنين؛ ولعل هذا يفسر ما قيل عن أصحاب رسول الله ﷺ - وحق ما قيل - بأنهم «رهبان في الليل أسود في النهار».

ونخطو من السنة المهطرة في بيان الكتاب الكريم خطوة أخرى، لنرى ما رواه الإمام أحمد بسنده إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من أمره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت»، ثم قال: «إلا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ ﴿تَجَافَى جُوبُهُمْ عَنْ مَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مَزِيدٌ عَيْنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)» ثم قال: «إلا أخبرك برأس الأمر وعموده، وذروة

وبعد: فأحسب أن هذا التكامل الذي طرحه الرسول ﷺ حين أتى على أركان الإسلام ويبن بجلاء أهمية الصدقة ومنزلة الصلاة والجهاد من الدين، بعد أن قرأ من رأس الأمر الإسلام، حتى وصل إلى عِظَم أهمية الصمت إلا عن خير...

أحسب أن هذا التكامل الذي ترجمه المسلمون إلى واقع عملي في حياتهم تصور تطبيقاً: يلقي الأضواء على ما تحقق من الفتوح والتأهيل الحضاري في حِقبة تبدلت منها من الخوارق.

والمهم أن توظف هذه الحقائق في دنيا الواقع – وحال المسلمين وما يعانونه من أنفسهم ومن أعدائهم هي الحال.. ضماناً لسلامة المنطلق. واتساع الخُطى على طريق اليقظة والتغيير!!.



سورة إبراهيم... ومؤشرات البناء في التوجيه المبكر

« ١ »

كثيراً ما يمر التالي لسورة إبراهيم، بالآيات المشتملة على دعائه عليه السلام ربه أن يجعل البلد الحرام مكة آمناً، ويُجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام، فيأخذ المعنى العام المتعلق بالبلد الحرام، وأن مكة وُضعت - أول ما وُضعت - على عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن إبراهيم عليه السلام - الذي كانت بسببه عامرة أهله - تبرا ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن، واستجاب الله دعاءه، فكانت هذه الحقيقة العظيمة...

يمر التالي بالآيات، فيأخذ المعنى العام، وقد لا يستوقفه هذا الموضوع في إشراك بنيه - عليه السلام - في الدعاء...

والآيات الكريمات هي قول الله تبارك وتعالى في السورة المومى إليها بدءاً من الآية الخامسة والثلاثين: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٢٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بِيتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَى لِي عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٠﴾».

القضية التي يدعو بها إبراهيم عليه السلام، قضية تتعلق بالأصل الذي قام عليه بناء البيت، يوم رفع هو وولده إسماعيل قواعده - وهو التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له -.

لقد دعا الله بأن يجعل البلد الحرام مكة ذا أمن، ويجنبه وبنيه أن يعبد الأصنام؛ فكانهما أمران مقترنان.

ثم إن إبراهيم يريد أن يظل لبنيه وذريته شرف التوحيد، شرف أفراد الله تعالى بالمعبودية التي هي أرومة الخير والطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ إنه يخاف على بنيه أن يعبدوا الأصنام، فدعا ربه أن يجنبه وإياهم ذلك؛ وإنما كان خوفه من أن تنزل القدم، فيمبدوا الأصنام؛ لأن الأصنام ضلٌ بهن كثير من الناس، عن طريق الهدى؛ حتى عبدهن والعياذ بالله.

ولكن إبراهيم — بجانب هذا الدعاء — كان يقف — وهذا أمر بالغ الأهمية — عند حدود مسؤولية كل عما يعمل وتكسب يده؛ فيقول في دعائه بعد ذلك: ﴿فَمَنْ تَجْعَلِي لِإِئْتِي مِنِّي وَعَصَانِي لِإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومعنى: فإنه مني: أي من أهل ديني وملتتي؛ فالهدف الكبير أن يكون بنوه على الحق — وهو التوحيد الخالص هنا — وذلكم هو الاتباع الحقيقي، والله غفور رحيم لمن تاب عن جنوحه وعصيانه وأذاب.

والحق أن الذي ينبغي أن يستوقف الناظر المتأمل — إضافة إلى ما تحمل الآيات من العطاء الكبير، وكلمات الله لا تنفد — هو ما يحمل هذا الدعاء الضارع الخاشع من إبراهيم عليه السلام، من توجيه مبكّر للمسلمين في العهد المكي إلى موقع الأولاد، ومن يوئلي الله الإنسان أمرهم: من القضية الكبرى التي يصبرون ويصابرون تحت رايتهما، ويتحملون ألوان الاضطهاد والعصف، ومحاولات الفتن عن الدين. إنه موقع بالغ الأهمية أيضاً من أجل الأولاد أنفسهم، ومن ولي المرء أمرهم في الدنيا ويوم الدين، وكما هو بالغ الأهمية من أجلهم، هو على المستوى نفسه من أجل مسيرة البناء الخيرة التي يقودها — برسالة الإسلام — النبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام.

هكذا كان كثير من الناس قد أضلّتهم الأصنام عن طريق الهدى، فالواجب الحتم أن يرى الأولاد تربيةً تحول — بمون الله — دونهم ودون أن يتحولوا إلى عبادة غير الله، مراعىً في ذلك شديد البقطة لما قد يكون من الأسباب القريبة أو البعيدة لذلك، ظاهرة كانت أو موهمة مبطنّة!!.

وإذن: فالتوجيه المبكر واحدٌ من المؤشرات الميمونة، على طريق بناء الإنسان المسلم الذي يكون له من إعداده الحقيقي، ما يؤهله لحمل أمانة البناء ومواجهة التحديات من داخل النفس ومن خارجها، ويكون — في الوقت نفسه — طاقةً تنمو وتتعاظم بزيادة الإيمان — لأن الإيمان يزيد بالطاعات وعمل الصالحات، وينقص بالإهمال والمخالفات — كما تنمو وتتعاظم بالممارسة الفعلية — في ظل الضوابط المشروعة — على أرض الواقع من أجل إعلاء كلمة الله.

وهكذا تتحول القضية من علاقة عاطفية بين الوالد وولده... ومن هم على هذا السنن.. إلى مسؤولية يتقاسمها كلٌ منهم — حسب موقعه في تلك المرحلة.

ومما يقرر ذلك ويؤكدّه: ما سبقت الإشارة إليه آنفاً: من أن إبراهيم عليه السلام كان — مع الدعاء الضارع الخاشع — وقافاً عند العمل وتحمل التبعة بصدق وإيمان ﴿فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ﴾.

إن هذا المؤشر على طريق العملية الجنزية. عملية بناء الإنسان المسلم، والعناية بالنشء — تربيةً وإعداداً — أن يكونوا على الجادة، بُناةً أمناء: ينبغي أن يزيد من الشعور بمسؤولية بناء الجيل من قبل المؤمنین بدماً من المنزل، وهي مسؤولية لا خيار معها لأمة تحرص على أن تستأنف طريقها إلى العلاء، لتنهض من عثار، وتأخذ — من جديد — مكانها القهادي تحت راية الرسالة الخاتمة في العالمين.



سورتا إبراهيم والبقرة... ومؤشرات البناء في التوجيه المبكر

« ٢ »

ما يزال الحديث موصولاً يومضات مشرقة من دعاء إبراهيم عليه السلام - كما جاء ذكرها في سورة «إبراهيم» ضمن آيات كريمات بدئت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَصْلَحْنِ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٦﴾.

ومن الخير استدكار ما استوقفنا من دعاء إبراهيم عليه السلام من إشراك بنييه معه، في أن يجنبهم الله عبادة الأصنام، وما وقفنا عليه الآيات من كونه عليه السلام قد وضع القضية في إطار المسؤولية، وأن يتحمل كل من أولاده تبعه ما يعمل وتكسب يداه ﴿فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولعل من الخير بمكان: أن أشير أيضاً إلى أن هذه القضية - قضية المسؤولية وإشعار الإنسان المكلف بإبعادها، وما يترتب عليها - قد جاء أمرها واضحاً على الصورة التي اقتضتها الحكمة الربانية في سورة البقرة، حيث أعلم الله تبارك وتعالى عباده من طريق الخطاب لإبراهيم عليه السلام، أن المسؤولية كائنة في أعناق من هم أهل لها في التكليف، وأن الجزء مرتبط بهذه المسؤولية. يقول الله تعالى بدءاً من الآية الثالثة والعشرين بعد المائة: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ١٢٣﴾.

فالذي ينال شرف الإمامة: من كان على الطريق الهادية، مستقيماً على توحيد الله وطاعته، يحمل مسؤوليته بأمانة، لا يحيد ولا يريم.

أما الظالمون – المتجاوزون حدود الله – فليسوا من ذلك هي شيء، جزاء بما كانوا يعملون ﴿قَالَ لَا يَنْتَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال – جل شأؤه –: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمَأْكِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

ويطالعنا في أعقاب ذلك توكيد المقولة المشار إليها، مقولة المسؤولية وارتباط الجزء بها، فنقرأ في الآية التي تلي: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

بل إن هذه الآية قد جاءت على الصورتين المتقابلتين: صورة من آمن بالله واليوم الآخر، وأن ذلك طريق سعادته، واستمتاعه بالأمن والرزق الحسن، ثم نجاته يوم القيامة، وصورة من كفر وعنا عن أمر الله، كيف أنه يتمتع في الدنيا، وهذه المتعة قليلة مهما كان شأنها؛ لأن الدنيا إلى هباء... وغير هنيئة مهما كان شأنها؛ إذا قيمت بما يكون له من سوء العاقبة يوم القيامة ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. أمتعته قليلاً مدة حياته – وإن كان صفو الدنيا مشوباً بالكدر – ثم ألجته في الآخرة إلى العذاب البئيس في النار، فلا يجد عنها محيصاً، ولا يفني عنه يومئذ شيء من حطام الدنيا، وبئس المصير جهنم.

هكذا تتصل الحلقات بدءاً من العهد المكي، وحتى العهد المدني، ويتضح للفئة المؤمنة التي يغوض بها – على الصعيد الإنساني كله – رسول الله ﷺ معركة البناء في ميادينه جميعاً... يتضح لها أن البيت – وفيه الأسرة – لبنة أساسية في بناء الصرح المرتقب، وخليفة بالغة الأهمية، لأنها الخلية الأولى في المجتمع.

هذا: والمؤشر في تكامل حلقاته التي بدأت منذ العهد المكي، من خلال الحيز الذي أخذ في دعاء إبراهيم عليه السلام، ومن خلال الأهمية التي أعطيت للمسؤولية، وعلاقة الجزء الوثيقة بها في الدنيا والآخرة... هذا المؤشر على دروب

البناء التي سلكها أولئك الذين استجابوا لدعوة الحياة: جدير بالكثير من الاعتبار والعظة والتأمل؛ سيما وأن القضية التي كان يدعو بها إبراهيم عليه السلام، قضية جنزية تتعلق بوحداية الله التي قام عليها البيت المعظم.

وغير خاف أن الكلمات الهاديات، كانت واضحة فيما دلت عليه من وجوب وضع المكلف أمام مسؤولية بوصفه أهلاً للتكليف والمسؤولية — وفي هذا مزيد من التكريم والإكرام — فلا تكاد تقف مسؤولية من أولاهم الله أمانة التربية والإعداد، والتعليم والإعلام؛ من الوالدين، والمعلمين والمربين ومسؤولي الإعلام... وما إلى ذلك، حتى تبدأ مسؤولية ذلك الإنسان الذي ربّوه وأعدّوه، وقد أصبح أهلاً للتكليف وتحمل تبعات الواجب...

وإذن: فالمقروض أن تأخذ القيم مكانها اللائق في البناء، وأن تكون التربية على المسؤولية — «كلّكم راع وكلّ راع مسؤول عن رعيته» — وجب أداء الأمانة فيها من داخل النفس قضية لا تقلب المهاوذة؛ وكل ذلك مرتبط أياً ارتباطاً بسلامة القاعدة التي يقوم عليها البناء، وهي عقيدة التوحيد الطاهرة المباركة التي من أجلها رفع إبراهيم قواعد البيت المعظم ومعه ولده إسماعيل وكان من دعائهما: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾».

العناية بتحديد المناهج للتربية والإعداد في ضوء الرسالة الخاتمة: ضرورة يقدرها حق قدرها أهل البصيرة في هذا الشأن، علماً، وغيرة على الأجيال أن تحيد عن الطريق، وتتعمّل ملكاتها عن العطاء الخمر، وحرصاً على أن يكونوا من أهل الرضوان عند الله عز وجل؛ وفي الآيات المكية والمدنية فيض من التوجيه إلى العمل على كل ما فيه سلامة الإنسان المسلم على ساحة البناء؛ وهذه أمانة في الأعناق لا يخرج القادرون من العهدة في أدائها على الوجه الأكمل إلا بذلك الأداء...

وقد وقفنا معالم مضيئة — وكل المعالم القرآنية هداية ونور — في سورتي إبراهيم والبقرة على المؤشر البين — بوجوده ودلالته — على طريق البناء؛ بدءاً من البيت أول خلية من خلايا المجتمع؛ حيث الواجب المؤكد في تربية الأولاد — على

عموم الكلمة في الدلالة - وإعدادهم حسب أهليتهم للتلقي - والكلام على التغليب بين الذكور والإناث - في كل مرحلة من مراحل السن، ثم العمل على وضعهم بدقة وأمانة أمام مسؤولياتهم عندما يصلون إلى المرحلة المناسبة، وتنمية إحساسهم بهذه المسؤولية، بحيث تتكوّن عندهم الرغبة الصادقة بأداء الأمانة على هذه الساحة والوفاء بالواجب المنوط بكلّ منهم الوفاء به من داخل النفس، عن طمأنينة ورضى! الأمر الذي ينشيه - إذا أحسن البناء - حوافز الخير مهما كانت الصعاب، وينميها.

ذلك بأن الأمور - حسبما تقتضي العقيدة وما لها من حقوق - لا تجري في إطار من العواطف المتبادلة وتزجية الوقت، بعيداً عن مهمّات، بما لا يُسمن ولا يفني فتيلاً، ولكنها تجري في إطار تلك المسؤولية التي هي واحد من مظاهر تكريم الله للإنسان، حين جعله - بتكوينه واستعداده العقلي والقلبي والفطري عموماً - أهلاً للتكليف، ثم أنار له الطريق بنور الهداية، وحملّه مسؤولية البناء في نفسه وفي أهله ومن ولاء الله أمرهم وفي المجتمع - قدر الطاقة - وجعل الجزاء مرتبطاً - على خط سواء بتلك المسؤولية، ولا يظلم ريك أحداً... ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥].

والآيات التي جرى الإلماح إليها في صدر هذه الكلمات في سورة «إبراهيم» إحدى السور المكية هي قوله جلّت حكيمه - بدءاً من الآية الخامسة والثلاثين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٢٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ٢٦﴾.

وبعد الاستشارة بالمعلم القرآني في هذه الآيات المكية التي أوردها بكاملها من عهد قريب، يُتيح النظر في آيات سورة البقرة المدنية التي تنصبُّ بعض معانيها في هذه القنوات المباركة على ساحة البناء... يُتيح النظر المتبصّر فيها استشفاف التكامُل بين حلقات المؤشر الذي حوله نندن على طريق بناء الإنسان في ضوء رسالة الإسلام، وضرورة أن يكون الاهتمام بالنزيرة من رحلة البناء - على تنوع شعابها ووعورة مسالكها.

والمسؤولية عهد في ذمم الجميع، كل حسب موقعه من تلك الرحلة، والثغر الذي أقامه الله عليه، ثم الميدان الذي عهد إليه أن يضرب في جنباته بناءً وإنماءً، في سمي إلى تحقيق الصيغة المثلى لمجتمع مسلم قوي متوازن.

ولعل من الخير تجديد العهد بتلك الآيات المباركات وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَقَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٥].

وتنتقل بنا الآيات إلى ما يؤكد المسؤولية، ويُسمر المكلف بحجمها وأبعادها، فنقرأ قول الله تبارك وتعالى في الآية التالية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

كثيرة وفيرة هي تلك الدروس، ويواغت العمل التي تفيض بها تلك الآيات المكي منها والمدني في هذا الموضوع المهم العميق، وهي - فيما هي عليه - أمانة تجدر ترجمتها في واقع البناء - حيث الشكوى من ضعف الصلة بحقائق الإسلام والتحديات الموجهة التي لا تكاد تتعسر عن ميدان - إلى وجود حي في المناهج المرتقبة التي طال انتظارها وتنفيذها - بعد الغفوة الطويلة في دنيا المسلمين - على صعيدي التصور والتطبيق.

وهنيئاً للذين يعملون بجدية على مختلف التخصصات راجين رحمة الله وتجارة لن تبور.



دعوات إبراهيم.. ومؤشرات البناء السليم

« ٣ »

الدعوات الصادقة الخاشعة التي توجه بها إبراهيم الخليل عليه السلام إلى ربه – كما نرى في سورتي إبراهيم والبقرة – وقفنا – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – على مدى الارتباط بين العمل الصالح المنبثق عن عقيدة التوحيد في ضيائها وعطائها، وبين ما يرجوه إبراهيم لبنيه وذريته من حياة كريمة مثلى وعاقبة حسنة في الدنيا ويوم الدين.

وإذن: فالتوجيه الذي برز في الآيات وتؤكد في الآيات المدنية: واضح في حمل الجماعة على الجادة في شأن العناية بالبيت الذي هو الخلية الأولى التي لا يستقيم بناء المجتمع الفاضل إلا بأن تأخذ وضعها السليم كما ينبغي، تربية وإعداداً، وأخذاً بالأسباب في كل المراحل التي يتقلب فيها الأولاد مرحلة بعد مرحلة.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ ﴿وَإِذْ أَبْلَىٰ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَّهَنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

وكتبت على أن أؤخر النظر فيما أكرم الله به الأمة ومهد من طرائق الهداية في شأن الأولاد والذرية من الآيات في العهد المدني، حتى تكمل الرحلة مع ما ورد من ذلك في العهد المكي، ولكن ثنائي عن ذلك أن قصة إبراهيم عليه السلام وما كان من دعائه وحرصه على ذريته أن تستقيم على أمر الله وتكون لها الإمامة في الخير، كل أولئك كان من مضمونات آيات مكية وآيات مدنية على تنوع في التفصيل؛ وشاهد ذلك ما نعمنا به في واحد من السور المكية هي سورة إبراهيم، وأخرى من السور المدنية هي سورة البقرة.

وبين يدي المودة إلى الآيات المكية نستضيء بهداها ونستلهم معالمها الخيرة، أود أن أشير إلى أن إبراهيم ومن ورائه ولده إسماعيل عليهما السلام، كان واضعاً – والله أعلم – عندهما أن الضمانة التي لا ضمانة تدانيها، كيما تكون لذريتهما الإمامة في الدين والدعوة إلى الخير: هي أن تكون هذه الذرية على الإسلام – أن تسلم الوجه لله عز وجل، أن تستسلم له وتتقاد طائفة مختارة لأوامره ونواهيه – وكل ما هو من ذلك بسبيل.

ومن هنا كان من دعائهما عليهما السلام – وهما يرضان قواعد البيت، بيت الله الحرام: أن يثبتهما الله على الإسلام، وأن يجعل من ذريتهما أمّة مسلمة لله عز وجل وأن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم يبلغ دعوة الإسلام.

إنها نظرات عميقة، تتغل من الحلقة الضيقة ضمن الأسرة المحدودة التي هي الأساس إلى ما هو أوسع من ذلك بكثير... إلى الأمة المسلمة، كيما يعمّ الخير والهدى، وتكون هذه الأمة موئل البشرية، ومقل التوحيد الذي فيه سعادة الإنسان وطمانينته، وتحقيق وجوده؛ لما أن الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي تعني إسلام الوجه لله عز وجل في أكل أمر وفي كل شأن، والطاعة للرسول ﷺ لأن طاعته من طاعة الله، وهي منهج حياة يحمل في شياؤه – مع عمقه وشموله – كل مقومات الطمانينة ولاسعادة وما فيها الوجود الحقيقي للإنسان، بالحفاظ على إنسانيته وكرامته وحرية، وإقداره على تحقيق ما خلقه الله من أجله في نفسه وفي الآخرين.

وإلى أن نتاح – بعون الله – متابعة تلك النظرات العجلى في الآيات التي أشرقت بدعوات إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أجد من الأمانة التذكير بثقل الأمانة في استخدام ما تحقق عند غيرنا من منجزات لا تجفو قيمنا على صعيد التربية والتهييج، ووضع ذلك بأمانة على طريق المسيرة البانية التي يراد من ورائها – بدءاً من النواة الأولى في البيت – إعداد الجيل المسلم – والحال في الحال – لخوض معركة البناء كما هي في أبعادها، وجذورها – ضمن متغيرات العصر، واهتزاز القيم في بعض النفوس – وفي إطار توحى به عقيدة الأمة التي تمكّن للذاتية والأصالة في كل ميدان والحمد لله.

دعوات النبيين الكريمين ومؤشرات البناء القويم

« ٤ »

هذه عودة إلى ما دعا به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان قواعد البيت، وما تحمل تلك الدعوات من أهمية المرتكز الأول في بناء المجتمع وهو: الأولاد وامتدادهم من الذرية، وما كان واضحاً فيها من الأمل بفضل الله أن ينتقل الخير من الدائرة الأولى إلى الأفق الأرحب، فيجعل الله من الذرية أمة مسلمة له سبحانه، وأن يبعث في تلك الأمة رسولاً يحمل رسالة السماء إلى الناس، يهديهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور. كل أولئك يحملنا على معاودة النظر في تلك الآيات التي شملت - فيما شملت - تلك الدعوات، كيما نتبين مدلول ذلك الضرع على ساحة البناء والإعداد.

والآيات الكريمة هي ما نجده في سورة البقرة بدءاً من الآية السابعة والعشرين بعد المائة وهي قول الله جل شأنه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾.

هذه الآيات التي أخبرنا الله فيها خبر إبراهيم وإسماعيل - في رفعهما قواعد البيت وما كان من دعائهما الصادق الخاشع - تهدي - والله أعلم - إلى أن بناء الفرد والأسرة والمجتمع والأمة بوجه عام - إذا أريد لهذا البناء أن يكون بناءً سليماً يحمل القدرة على العطاء ويتسق مع الفطرة وما أوجد الله عليه الإنسان منذ خلقه في أحسن تقديم: لا بد أن يكون محوره الإسلام... الإسلام الذي يعني الاستسلام لله عز وجل، والانقياد لأمره ونهيه وطاعته في كل شأن من الشؤون مهما دق أو جل...

كما تشير تلك الآيات إلى العناية بالخلية الأولى وهي البيت: فإذا سلم لها التكوين الصحيح، كان ذلك أدعى لسلامة البنية فيما بعد، حتى يصل الأمر إلى الأمة «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ».

وهذا الاقتران في دعوات الخليل وولده عليهما السلام، بين أن يجعلهما الله مسلمين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له: يدل — فيما يدل والله أعلم — على مدى الأثر الذي تحمله التربية بالتعليم والموعظة وبالقنوة، فكونهما مسلمين — بالمعنى الدقيق للكلمة — نموذج يُحتذى لمن بعدهما، يضاف إلى ما يكون من دعوة الذرية إلى الإسلام بالتعليم والموعظة وما إلى ذلك.

هذه واحدة: والثانية هي أن الأمة المسلمة التي تتسق حركتها على ساحة الواقع — عملاً ومضموناً — مع العنوان الذي تحمله في نسبتها إلى الإسلام ورسائله الربانية: هي تلك الأمة التي تُمنى أشد العناية بالأولاد والذرية تربيةً لا تهمل المرحلة، ولا تنفل عن سنة الله في التكوين، وتمطي العقل والقلب والجسم والمشاعر، كل ما يستحق من الإعداد وتنمية الطاقات الفاعلة المؤثرة.. وتلكم هي الخطوة السليمة على طريق التسمية السليمة للموارد البشرية، التي هي محور الإفادة من الموارد الأخرى، اقتصادية كانت أو غيرها.

ولكم كانت مشرقة دلالة الآية على السلوك العملي عند إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فالعمل العظيم الذي يقوم به وهو رفع قواعد البيت المعظم، إنما يكون له شأن حين يكون مقبولاً عن الله «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (١٢٧) السميع للقول والدعاء العليم بالأفعال والنوايا.

وكل هذا وذلك بالنسبة لهما ثمرة من ثمار إسلام الوجه لله. وهما يريدان ذلك لنفسهما ولن يسمعه الله من ذريتهما.

وتلكم هي النظرات المبصرة التي تتجاوز الحاضر إلى المستقبل، وتريد للخير أن يتسمر في الذرية والولد.

وكم نحسن إلى أنفسنا ومجتمعاتنا إذا وضعنا هذه المواقف موضعها من بناء الإنسان المسلم القادر على مواجهة الحياة. بإدراك الحقيقة أن وجوده الذاتي في هذه الحياة، لا يتحقق على الوجه المرضي إلا بالإسلام!!.

جيل البناء... والسنن الإلهية فيه ونور الدعاء والطاعة عند إبراهيم وإسماعيل « ٥ »

الآيات التي سبق اصطحابها، والتي وقفنا المعلم القرآني من خلالها على واحد من مؤشرات البناء التي تتعلق بالنشء والذرية وتتسع إلى ما وراء ذلك... هذه الآيات التي كان منها قول الله جل ثناؤه على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٨) مما يلفت النظر فيها أن النبيين الكريمين لم يقلوا واجعل ذريتنا أمة مسلمة لك بإطلاق، ولكن جنعا - بأديهما - إلى التبعيض، فكان من تلك الدعوات ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ و«من» هنا للتبعيض..

إنه الموقف الذي يتسق مع واقع الناس ومقدار استجابتهم لدعوة الحق وتساميهم إلى مستوى يزينه إسلام الوجه لله، وتطويع العمل والسلوك لذلك..

ثم إن القرآن الكريم لم يُقم تَقْدِمْ الولد أو تأخُّره على العلاقة النُسبِيَّة بأبيه، ولكن أقامها - كما هو من المسلّمات - على مقدار الاستقامة على دين الله والأمانة في تحمل المسؤولية.

وفي بعض الآيات التي سبقت الدعاء الذي نلجح إليه ما يدل على هذه الحقيقة دلالة لا تقبل الاحتمال؛ ففي الآية الرابعة والعشرين بعد المائة، نقرأ قول الله جل وعز: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٦٩).

فإبراهيم عليه السلام - وقد ابتلي بكلمات فاتهمه ومن هذه الكلمات ابتلاؤه بأن يذبح ولده إسماعيل - امتثل لمولاه خير ما يكون الامتثال حين أبلغ ولده ما أمر به من ذبحه، واستجاب إسماعيل أفضل ما تكون الاستجابة وتلَّهُ والده للجبين، حتى كان إكرام الله بالفداء ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١٣١﴾ وَتَدَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٢﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْبَلَاءِ الْمُبِينِ ﴿١٣٤﴾ وَتَدَيْتَاهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٦﴾ [الصافات: ١٣٢ - ١٣٨].

إبراهيم عليه السلام - وقد ابتلي فاتم ما ابتلي به من كلمات -: يكرمه الله تبارك وتعالى فيقول: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فيقول إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فيردُّ الله الأمر إلى السنة الإلهية التي لا تتخلف في ارتباط الجزاء بالإيمان والعمل، لا بالنسب، ونقرأ قوله سبحانه: ﴿لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

فالكافرون الظالمون من ذريته، لا ينالهم عهد الله بأن يكونوا أئمة يقتدى بهم في الدين، ولكن هذا العهد ينال المؤمنين الصادقين الذين لا يرضون بالاستقامة على الدين بدلاً، ولا يبنفون عنها حولاً.

تلك هي السنة التي يتبدى فيها المدل الإلهي بأجل مظاهره، وتلكم هي السنة التي ينبغي أن يُنشأ على تصورها وإدراكها الأجيال في كل الأعصر والظروف.

إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ - وهو في أسنى حالات المبودية الصادقة وأداء ما ابتلي به من كلمات تامات غير منقوصات - ويردُّ الله - تعليماً للناس وتوجيهاً إلى الطريق الأقوم - يردُّه إلى سنته الحكيمة، بأن الإمامة التي ترجوها لهم منوطة بإيمانهم وصدقهم، والقيام بما يوجبه الإيمان الصادق من صالح العمل واستقامة السلوك.. أما الظالمون المتجاوزون حدود الله، المنتهكون حرمات عباده: فليسوا من ذلك هي قليل ولا كثير، مهما ارتفع نسبهم، وتكاثر دعاوهم، وزُخرفت أقوالهم!!.

ومن هنا كان الأدب النبوي الجمُّ في دعاء النبيين الكريمين ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ
لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ ثم سأل الله تعالى أن يعلمهما شرائع العبادة التي هي
من مقتضيات إسلام الوجه لله.

وهي تواضع يليق بأدب النبوة وخالص العبودية لله، سأل الله التوبة مما قد يقع
من الزلات ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

والأنبياء معصومون، ولكنه الأدب وتعليم النزية ومن ولاهما الله أمرهما، والتنبية
على أن ذلك من لوازم التكوين الصحيح للمسلم مما لا يخفى على ذي بصيرة
﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهَتَاهُمْ أَفَبُهِتَ﴾ [الأنعام: ٩٠].



السنة الإلهية.. وتكافؤ الفرص على طريق البناء

الدعاء.. والعطاء

« ٦ »

كانت لنا من قريب وقفات أسعدتنا بآيات من سورة البقرة، كان منها ما جاء في شأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ورفعهما قواعد البيت الحرام، ودعائهما – وهما يرفعان هذه القواعد المباركة الميمونة – دعاءً يشير إلى المرتكز الذي هو قوام سعادة البشرية وهو الإسلام، حيث يستجيب الإنسان لداعي الفطرة، فيسلم وجهه في عقيدته وعبادته وعمله وكل شأن من شؤونه لله.

وذلك ما سألا الله أن يشبههما عليه، لأنهما بعد دعائهما أن يتقبل عملهما في رفع قواعد البيت، قالوا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾.

إنهما مسلمان حقاً، قد وجه كل منهما وجهه للذي فطر السماوات والأرض. وما هما فيه من رفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والماكفين والركع السجود: ثمرة طيبة من ثمار إسلامهما وانقيادهما الصادق لأمر الله عز وجل، ولكنهما يريدان التثبيت، ودوام الحال التي يكونان فيها مسلمين حقاً في كل شأن من الشؤون، مهما كانت العقبات والصوارف.

ولما كان من فطرة الإنسان حرصه على أن يمتدّ الخير الذي هو فيه إلى ولده وذريته، وكان من محبة الله تعالى الاستسلام لأمره، وإخلاص التوجه إليه: حبُّ المرء أن يكون من صلبه من يمهّد الله وحده لا شريك له.. لما كان الأمر كذلك، دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربهما عز وجل أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له أيضاً؛ فلم يكتفيا باستحضار الخير والرحمة من الله لنفسيهما فحسب، بل انتقلا

إلى دائرة أرحب ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ ثم سألا الله أن يعلمهما شرائع العبادة؛ وفي تذلل خاشع لله عز وجل، سألوه التوبة، مع أنهما معصومان بمصمة الله تعالى: ﴿وَأَرْبَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ﴾ والأدب النبوي في قولهما: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ مرتبط أياً ارتباطاً – كما أسلفنا من قبل – بالوقوف عند ما تقتضيه واحدة من سنن الله الحكيمة – وكان سنن الله كمالاً وحكمة – وهي قياس الأمور بإيمان والعمل الصالح والاستقامة على أمر الله، لا بالأنساب والعناوين..

وكان ذلك واضحاً فيما دل عليه قول الله جلت حكمته: ﴿وَإِذْ أَبَدْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ هذه الكلمات النيرات الجوامع... كانت القول الفصل في قضية، لا تنحصر بجماعة من الناس أو جيل في عصر من العصور، ولكنها تصحب الإنسان حتى يرث الله الأرض ومن عليها...

إن هذه السنة الإلهية في ربط القيم بالإيمان والعمل والسلوك، لا بالأنساب والدعوى؛ عززها من النصوص ما يدل أن على المسلمين أن يضعوها موضع اللائق، وهم يعملون على بناء الإنسان، وإغناء المجتمع والأمة بالموارد البشرية القادرة – بإذن الله – على عمارة الأرض واستغلال خيرات الكون في طاعة الله تبارك وتعالى، على هدي الانقياد لأمره وإسلام الوجه إليه.

وهذه السنة التي لا تتبدل: كهيئة إذا أخذت مكانها الطبيعي على صعيد التربية والإعداد، أن تعطي تكافؤ الفرص ما يستحق من عناية، وأن تنشئ الحواضر الحقيقية التي تدفع بالمسلم – ضمن الظروف كلها والمتغيرات كلها – إلى ساحات العمل والإنجاز – بما هي ذلك بذل المال والنفس – عن رضى وطمأنينة، وتصور سليم للمنطلق والغاية؛ الأمر الذي يسهم إسهاماً حقيقياً في بناء القوة الذاتية للأمة وينتج لها – وهي تتطلع إلى مستقبل أفضل – أن تضع أقدامها على الطريق المأمونة بإذن الله.

وربما يكون من الخير أن نشير إلى ما قد يتوهم من التعارض بين منع الإمامة عن أولئك الكافرين الظالمين ﴿قَالَ لَا يَأْلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وبين ما يعطون من متاع الدنيا: يدفعه قول الله تعالى في سورة البقرة نفسها: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.



البناء.. وثروة البشرية من سيرة الأنبياء عليهم السلام

ثروة البشرية من سيرة الأنبياء عليهم السلام: ثروة لا يقدرها حق قدرها إلا أولئك الذين تواهر لهم الحظ الأوفى من العقل الراجح والبصيرة النافذة، والقدرة على إدراك التراهل بين وقائع التاريخ، وخطوات الإنسان في ميادينه هنا وهناك..

فإذا تحقق ذلك – بجانب العقيدة الصحيحة – كانت النظرة السليمة المناسبة إلى تلك الثروة المضيئة المعطاء، ووضعها الموضع الملائم من مسيرة البناء التي تأخذ أبعادها الحقيقية في ميادين الحياة، إذا تواهر لها الإنسان المؤهل كما ينبغي المبنى بناءً روعي فيه التكامل والتناسق مع الفطرة، وما كان من تكريم الله لبني آدم وخلق الإنسان في أحسن تقويم وما أودع الله فيه من أهلية الإفادة من تسخير ما سخر له في هذا الكون المريض.

أقول هذا في متابعة للحديث عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وما كان من دعائهما أن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة له سبحانه. فلقد تبين لنا من قبل ما للسنة الإلهية في ربط الأمور بالإيمان والعمل والاستقامة، لا بالأنساب والدعاوي – مهما كان لونها – من آثار على العملية الكبرى في بناء الفرد والجماعة وتنمية الموارد البشرية التي لا غنى للبنية الحضارية عن وجودها والتي تسهم في سعادة بني الإنسان.

أما الجاحدون الظالمون: هم هدامون في الدنيا أشقياء محرومون في الآخرة كما دلت الآية التي استضاءنا بنورها فيما سبق ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الآية.

وما من ريب في أن قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يحمل في طياته الحرص على الوقوف عند هذه السنة الربانية الحكيمة؛ فمن لا يكون مؤمناً ولا يستقيم على الطريقة، أتى له هذا الفضل العظيم!

والحق أن الذي نراه هنا عند النبيين الكريمين، الوالد والولد عليهما السلام، رأينا نظيره في دعاء الخليل عليه السلام الوارد في سورة إبراهيم، حيث الإعلان الواضح عن أن النسب الحقيقي إنما يكون بسلامة اتباع النبي وطاعته فيما بلغ عن الله عز وجل...
أما من سلك الشَّعْبَ الآخر، وانحرف عن الصراط السوي: فليس من ذلك النبي في شيء، وإن كان ولدًا من صلبه.

والدعاء الذي نلمح إليه في سورة إبراهيم، هو ما جاء في قوله تعالى - في حديث عن الخليل عليه السلام: ﴿وَأَذَّ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٢٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَصْلَحُوا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَّحِيمٌ ٢٦﴾ وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ٢٧﴾.

ولا يخفى على ناظر متصف في البناء الحضاري المتكامل الذي أقامه الإسلام، ما كان لهذه السنة الإلهية الحكيمة - حيث يتفاضل الناس بالتقوى ويرتبط الحكم عليهم بما يُقدِّمون ابتغاء مرضاة الله... ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. ﴿لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ - من أثر فعَّال في تهيئة تكافؤ الفرص، وإنشاء الحوافز عند القادرين، والإفادة من الطاقات، بصرف النظر عن أصحابها - جنسًا ولونًا وما إلى ذلك - ما داموا مسلمين صادقين..

وهكذا أسهم في عملية البناء الكبرى وأعطاه عنوانها الإسلامي الأصيل: كل أولئك البررة الأكفيا الذين أسلموا وجوههم لله عز وجل إيمانًا بالرسالة التي أوحى بها إلى محمد عليه الصلاة والسلام وتحركوا بإمكاناتهم تحت رايته..

وهذا الذي يبدو من تهيئة المناخ الملائم، وإتاحة تكافؤ الفرص للجميع، لأن التفاضل كائن بالإيمان والعمل الصالح المثمر، والسلوك الذي يدل على صدق الانتماء... جدير أن يزيد من ثقة الأجيال بمنهج القرآن في البناء واعتزازهم الشديد به، وأن ينمي في نفوسهم حوافز الانطلاق المجدي، والأخذ بالأسباب الموصلة - في ساحات العلم والعمل والجهاد - إلى ما فيه خير الأمة ووضع تطلعاتها المستقبلية موضع الحركة والتففيذ إن شاء الله.

التربية والبناء... والأنموذج الصالح التساوق مع السنة الإلهية.. وقصة نوح عليه السلام وابنه « ١ »

تدقيق النظر فيما هدت إليه معالم الكتاب العزيز في شأن الذرية والولد: أمر تقتصر إليه العملية التربوية التي يفترض منهجياً – على الأقل – أن يكون فيما تهدف إليه على هذه الساحة: إنشاء الحواجز الذاتية في النفس وتنمية التطلعات التي تنعكس على عملية البناء؛ ما كان من ذلك على صعيد الإنسان – عموماً – وما كان على صعيد المجتمع بخاصة.

ولعل من النماذج التي تؤكد ذلك، ما وقفنا عليه المعلم القرآني في مكى الآيات ومدنيها من أن سنة الله الماضية في الناس، تجعل قيمة الإنسان وعاقبة أمره، مرهونتان بإيمانه وعمله الصالح، وما يقدم لنفسه من الخير وللآخرين، لا بنسبه وما يكون من دعاوى وعناوين.

والتوجيه الرياني في أعقاب دعاء إبراهيم بمفرده، ودعائه هو وإسماعيل عليهما السلام – كما ذكرت آنفاً – يعتبر بحق كلمة الفصل في هذه القضية الكبرى التي كان من ثمراتها مسح المجال لتكافؤ الفرص، وأن يتاح للطاقات أن تعمل عملها، فتتمو وتتعاظم بالممارسة والإنجاز.

فإبراهيم عليه السلام يقول – كما رأينا في سورة إبراهيم -: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ وهي سورة البقرة ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وهيهنا أيضاً: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَكَ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فالأهمية لم تعطَ للنسب والعنوان، ولكن أعطيت للإيمان والعمل الذي يرضى الله عنه..

وهكذا يتسع ميدان التفاضل على الخير، ويتقدم من يتقدم بإيمانه الصادق، وترجمة هذا الإيمان إلى عمل صالح وسلوك قوي، ويكون له من وراء ذلك حسن العاقبة وخير المآب.

ويتأخر من يتأخر بجنوحه عن طريق الهدى عقيدة وعملاً وسلوكاً، ويحل عليه من وراء ذلك غضب الله في الآخرة والعذاب الأليم.

ولقد كان من حكمة ربنا جل شأنه، أن عرض على الجماعة المسلمة في المهد المكي واقعة عملية تبرز فيها السنة الإلهية التي نشير إليها – على أتم وجه وأكمله –، ذلك ما حصل لنوح عليه السلام مع ولده الذي لم يكن من أهل السعادة، مع أنه ولد نبي كريم..

الطوفان يحاصر الناس، وقد تقجرت الأرض عيوناً، والتقوى الماء على أمر قد قدر، وخطرٌ يحدق – إلا بأهل الإيمان – فلا يستجيب هذا الولد لدعوة أبيه أن يركب في السفينة!! فيدركه الفرق، ويتوجه نوح عليه السلام إلى ربه في شأن ابنه فيقول: ﴿بِإِنْ أَبْنِي مِنْ أَمَلِي وَإِنْ وَعْدُكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]. فيأتيه الجواب: ﴿إِنَّهُ نَحْسٌ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. ففي سورة هود وهي إحدى السور المكية تطالعنا آية القصة – وهذا بعضها – بدءاً من الآية الحادية والأربعين في قول الله جل ثناؤه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ٤١﴾ وهي تجري بهم في موج كالجبال وتنادي نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ٤٢﴾ قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رجم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ٤٣﴾ فكانها للواقع دائماً بصرف النظر عن الظروف والملابسات.

ولسوف تحمل إلينا سطور قادمة إن شاء الله ما تشرق به تلك السنة الريانية من نفاذ مهيمن يتجاوز حدود الزمان والمكان والأشخاص، وترى خط الواقع واهراً من ذلك في كل عصر.

وهذه الركيزة في منهج التربية والإعداد، والتي تملي على المجتمع أن يتيح للكفايات والملاقات أن تتحرك على محورها المناسب: جديرة أن تصحب تباشير اليقظة المرتقبة، وتعمق على ما داخل الصلة بالمنهج الرياني من جهالة وهتور وتخلّف، وذلك مؤذن إن شاء الله بسلامة الخطأ إلى غد مأمول في ظل المزة والتمكين. والله الأمر من قبل ومن بعد.



البناء التربوي.. والمنهج في قصة نوح عليه السلام

« ٢ »

من عجائب تقدير الله وحكمته في نصرة دينه القويم، الطريق التي اختارها لمن حُمِّلوا أمانة الإسلام وشرف الإيمان به والدعوة إليه.. أن الصراع الدامي الذي كانت تخوضه الفئة القليلة المؤمنة في مكة لم يكن نشاراتٍ من الحوادث التي تقع هنا وهناك، دونما رابط يربط بينها أو فكر يوجه أصحابه ومنطلقات موزونة أخذ بعضها برقاب بعضٍ تحدّد الخطأ، وغايات نيرة تتسق مع تلك المنطلقات.

بل العكس هو الصحيح؛ فقد كانت تلك التحركات كلها منضبطة بضوابط الرسالة، في تمايز واضح بين أهل الإسلام الذين يسيرون وفق منهج متكامل رسمته عقيدة التوحيد، وبين سُدنة الجاهلية التي يحكم الإنسان فيها الهوى والتقليد الأعمى؛ ناهيك عن اختلال القيم واضطراب المعايير، نتيجة المدوان على الفطرة والعقل في هذا الإنسان.

وهي الجانب الذي سبق أن ألمحنا إليه من قصة نوح عليه السلام: ما يدل على أن الصراع الدامي الذي تجري الإشارة إليه: كان مصحوباً بتلك المنهجية الرائعة التي تحدّد للمسلمين القيم والمعايير، وترتفع بهم إلى المستوى الذي لا يُعجزهم معه أن يخوضوا معارك التحويل وإنقاذ البشرية من الضياع المحتوم - كما يبدو - وأن تمتد أيديهم إلى أن يرفعوا قواعد البناء الحضاري السليم، وفق منهج ظهرت بوادره منذ المهد المكي في عصر الرسالة، حيث المجتمع ما يزال قياده بأيدي من يطوفون حول اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، متبعين ما ألفوا عليه آباؤهم ولو كان هؤلاء الآباء لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.

إن ما حصل لنوح عليه السلام مع ولده النُسيبي — كما أخبر عن ذلك الكتاب العزيز — وَصَّعَ المسلمين على المنهج الراشد وحدد لهم القيم التي يجب أن يُحتكم إليها في تقدير قيمة الإنسان والمافية التي يؤول إليها، وما يجب أن يوضع في الحسبان عند التربية والإعداد.

فأين المفاخرة بالأباء والأجداد ولو كانوا على غير سبيل الهدى — معطلة عن العمل عقولهم، مضروباً عليها بالأسداد قلوبهم — وجعلُ التفاضل بالنسب ولو كان صاحبه من أهل الفواية وشياطين الإنس.. الأمر الذي تثار معه الفرقة، ويضطرب حبل الود، ويُحرم المجتمع من إمكانات وطافات كان من الممكن أن تعمل عملها في إقامة بنية سليمة لذلك المجتمع، لا تشكو في جانب اقتصادي أو اجتماعي أو غيرهما، وتمهد للكيان الذاتي المستقل للأمة.

أين ذلك كله مما قصَّ الله علي نبيه ﷺ والمسلمين، من أن ولد نوح عليه السلام لم ينفعه في حومة الطوفان المقتصم الذي أراد أن يأوي إليه، خلافاً لما دعاه إليه أبوه، فكان من المفرقين.

بل أين ذلك كله مما أعلنه القرآن من أن هذا الولد ليس — على الحقيقة — من أهل نوح عليه السلام، وإن كان ولده الصليبي لما أنه عملٌ غيرُ صالح؛ خالف عن الصراط السوي الذي يدعو أبوه الناس إلى سلوكه كيما يكونوا من الناجين يوم الدين.

وفي شأن النقطة الأولى نعاود ذكرى ما جاء في سورة هود المكية من قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ تَجَرِّيْهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَتَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ١١﴾ قَالَ سَاوِي إِلَى جِبَلٍ يَّخْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ١٢﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١٤﴾.

ونقرأ — مرة أخرى — في شأن النقطة الثانية التي تقرر بأسلوب غماية هي الوضوح، يحمل ما يحمل من التوجيه والبيان المعجز: أن ولد نوح الرسول المكرم عند الله — وقد جنح هذا الولد عن الصراط المستقيم — لم ينفعه النسب المجرد إلى أبيه المبلغ عن الله. ذلكم قول الله جلّت حكمته: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾».

إنه المنهج الذي أريد للفتة المؤمنة التزامه من أول يوم، في شأن القيم التي يحتكم إليها في إعداد الإنسان وتقدمه في المجتمع وتنمية الموارد البشرية.

وأنت واجد أن القرون المتطاولة لم تحلّ في الماضي ولن تحول اليوم دون التبصّر في الحجم الكبير الذي تأخذه هذه القضية على الساحة الإنسانية في حضارة الإسلام.



البناء التريوي والمنهج في قصة نوح عليه السلام

« ٣ »

أن تكون الواقعة التاريخية العملية مع نبي كريم من الأنبياء عليهم السلام، ومع إنسان هو ولده وهذذة كبده: أمر يفسح للقضية المراد تثبيتها من خلال هذه الواقعة، أن تأخذ أبعادها في العقل والقلب والمشاعر.

وأنت واجد أن المسلمين — وهم يخوضون معركة الصراع بين التوحيد والوثنية، وما لها من عقابيل جاهلية على صعيد القيم والمعايير — كانوا — والمجتمع الجاهلي يثن من أذى المفارقة والمكاثرة بالباطل — بأمن الحاجة إلى مثل هذا النموذج الحي، الذي حصل لنوح عليه السلام مع ولده من صلبه، الأمر الذي يزيد وضوح الرؤية ويضعف القدرة على مواجهة التحديات الجاهلية التي قد تكون من الوالد أو الولد أو غيرهما من القرابة؛ والابتلاء بذلك أمر لا يحتمله وينجو من هنتته إلا المؤمنون الصادقون.

إن نوحاً عليه السلام دعا ربه متسائلاً عن حال ولده الذي غرق.. لقد غرق مع أن الله، وعده بنجاة أهله — كما نصت الآيات — ووعد الله الحق الذي لا يخلف «رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنْ وَعْدُكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ» فبين الله لنوح — وهو الأب الشفيق — أن ولده هذا ليس من أهله الذين وعده الله إنجاءهم، لأن الله وعد نوحاً بنجاة من آمن من هؤلاء الأهل؛ فهم لا ينجون لأنهم أهله، ولكن لأنهم مؤمنون، شأنهم في ذلك شأن من آمن من قومه ذلكم قول الله تعالى: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مِمَّا إِلَّا قَلِيلٌ».

وهكذا بمنتهى الوضوح — كيما يكون أهل الإيمان على بينة من أمرهم على قلب الأجيال والمصور — يأتي الرد معللاً لا تبس فيه ولا احتمال: «قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦١﴾».

لقد كان الولد ممن سبق عليه القول بالفرق لكفره ومخالفته أباه نبياً الله نوحاً عليه السلام، وذلك متسق تمام الاتساق مع سنة الله في ارتباط الحكم على الإنسان بما يكون من إيمانه أو جحوده، وما يكون استقامته على أمر الله أو مخالفته عنه.

ومن عجب أن الآية التي حملت هذا الإعلان على طريق التربية وبناء الإنسان المؤهل لحمل العبه، وضبط المعايير التي يقاس بها قدره ويحكم من خلالها عليه.. من عجب أنها جاءت متقلة بالتاكيد الذي صعب النفي والإثبات ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّ نَاسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

هذا في النفي ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وهذا في الإثبات. ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا نَاسُ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وما كان أسرع نوحاً عليه السلام — وهو الرسول المبلغ عن الله — إلى الوقوف عند حدود الله، والرضا بأمره، ولو كان الفريق ولدّه وفلذة كبده! فرضا الله أولاً، وهو يرجو بعد ذلك مغفرة الله ورحمته، فهو الأعلم بما يصلح عباده وما فيه خيرهم في الدنيا ويوم الدين ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا نَاسُ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤٧).

وأكرم الله نوحاً عليه السلام بهذه الإشارة: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّا سُجُوتُهُمْ فَمَا يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨).

إن حاجة الأمة اليوم ملحة إلى التبصر في هذه القضية التي تأخذ مكانها في قواعد المنهج الرياني، حيث تنزلت هذه الآيات على الفئة المؤمنة تزيدها وضوحاً في الرؤية وتضبط خطاها، وتحدد لها المعايير وهي تضارع الوثنية والعادات الجاهلية ورواسب التخلف.

والشبه من بعض الوجوه قائم — دونما ريب — بين اليوم والأمس، خصوصاً فيما يتعلق بالانضباط والمنهجية والمعافاة من التشردم على طريق بناء الإنسان المسلم الذي يُراد له أن يتحمل مسؤولية التحول وتبعات استئناف المسيرة الخيرة والاحتكام.

إلى القيم المنبعثة عن العقيدة ووضع معيار الإيمان والاستقامة موضعه اللائق على ساحة التطلعات المستقبلية وتنمية الموارد البشرية القادرة — بكفاياتها العلمية والتجريبية، وفكرها النير المتميز — على حمل العبء والإفادة مما وضع الله لدى الأمة من طاقات وإمكانات، وتسييرها في فتواتها التي تؤول بها إلى أن تكون مورد قوة تميد لهذه الأمة مكانها الطبيعي تحت الشمس إن شاء الله.

ومهما يكن من أمر: فلا بد من إثبات حقيقة، يجدر إثباتها هنا، وإن كان المقام ليس مقام التفصيل فيها؛ وهي أن الله تبارك وتعالى — وهو أعدل العادلين المتفضل بالحب والإحسان — قد بشر أولئك الذين لا يحيدون عن الصراط السوي بطاعتهم وأخلاقهم، بشرهم بالجنة التي وعد المتقون، وضم إلى ذلك بشرة أخرى بأنهم يدخلون جنات عدن ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب؛ فالذرية الصالحة التي تتهج طريق الآباء الصالحين تتال ما ناله السابقون.

ذلك ما جاء في صفات أولي الأبواب التي جاءت على ذكرها آيات كريمات من سورة الرعد وما يكرمون به من عقبى الدار جنات عدن والحمد لله. يقول الله جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَبَابِ ١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ٢٠ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ٢١ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْعَوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ ٢٢ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ٢٤﴾.

إنه قانون إلهي كريم: من صلح من الآباء والأزواج والذرية يشاركون ذوي هرابتهم أولي الأبواب الصالحين، بأن تكون لهم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها، ويفضل الله عليهم بأن تقول لهم وهم يدخلون عليهم من كل باب الملائكة: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

وهذا - في الواقع - متواءم كل التواء مع قوله تعالى لنوح عليه السلام في شأن ولده الذي حاد عن الصراط السوي: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ومع قوله جل وعز: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

وسبحان من إليه يرجع الأمر كله وهو الحكيم الخبير.



البناء التربوي.. والحقيقة العلمية في قصة نوح عليه السلام

« ٤ »

الخصيلة التي صنعناها في صفحات قريبات لقصة نوح عليه السلام مع ولده، والطوفان وما رافق ذلك من نتائج: أكدت وهي تُعرض على المسلمين في العهد المكي، والإنسان مستهدف من رواسب الجاهلية. أكدت مكان تلك الوقائع على ساحة المعايير والقيم التي مرَدُّ الأمر إليها في تحديد المؤهلات الحقيقية التي ترشح الفرد للمشاركة في مسيرة البناء الخيرة، المسيرة التي تخطُّ معالمها عقيدة التوحيد، والتي كان الإنسان في المقدمة على سلم اهتماماتها، لما أنه هو المؤهل لأن يتفكر ويتدبر، وأن يعلم ويعمل، وأن يضيد تسخير الكون وخيراته، ويستخدم ذلك في بناء الحياة في إطار من التعامل السَّمْع الموضوعي مع الكون والحياة.

من أجل هذا أفرد هو بخطاب التكليف.. وترى أنه ذكر مرتين في الآيات الخمس الأولى التي تنزلت على رسول الله ﷺ في أول يوم خاطبه جبريل بالرسالة وحيًا من الله عز وجل.

والآيات هي فواتح سورة الملق: ذلكم قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ ففي الآية الثانية ذُكِرَ الإنسان ضمن إشارة إلى الخلق، وما أكثر وأغزر الأفاق التي تحملها هذه الإشارة. وفي الآية الثالثة ذُكِرَ في بيان لأهمية العلم ومصدره الأول عن الله عز وجل: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

لقد حمل نوح عليه السلام إلى قومه الذين أرسل إليهم رسالة التوحيد، فما آمن معه - على طول الرحلة الزمنية - إلا قليل، حتى ولده النُسيبي ما استجاب لدعوة الإيمان ولا انصاع لكلمة الهدى وظلَّ معرضاً عن الحق وأتى يوم الابتلاء العملي،

فكان الطوفان، وقعدت بالولد جهالته، عن الانصياع لنصح والده النبي الذي دله على سبيل النجاة، فلم يركب معه في السفينة وكان مع الكافرين، وحال الموج العارم بينه وبين أبيه، فكان من المفرقين.

ها هما الآيتان الثانية والأربعون والثالثة والأربعون من سورة هود تكشفان عن موقف هذا الابن الجانح عن الصراط والمأقبة التي آل إليها؛ يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَمِمَّنْ جَعَلْنَا لَهُمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَيْنَا نُوحًا ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقَرٍّ يَابُتًى اِرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ٤٤﴾ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَنْصِفِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا غَاسِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ ٤٥﴾.

وسأل نوح ربه بأدب ورجاء، سؤال كشف عن مصير ولده، وذلك قوله تعالى في الآية الخامسة والأربعين: ﴿وَنَادَيْنَا نُوحًا رَبِّهِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ٤٥﴾ فجاء الجواب الذي يجعل الأمر منوطاً بالإيمان والعمل؛ فكون هذا الإنسان المتمرّد على الحق ولد نوح الصليبي، لا يقتضي أنه من أهله ولذلك ينجو من الفرق!! وإذن فهو لا يدخل ضمن من وعد نوح عليه السلام بنجاتهم من الفرق.

وانظر إلى هذا الوضوح الذي لا يُفني غناه شيء في منهج سلامة التصور على ساحة بناء الإنسان بناءً متكاملًا يُشعره بمسؤوليته، وأن نسبه لا يفني عنه من الله شيئاً إن لم يكن صادق الإيمان صالح العمل. وأكدت الكلمات الهاديات أن هذه حقيقة علمية على الرسول نوح أن يتمثلها فلا يسأل ربه ما ليس له به علم ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٤٦﴾ أجب: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فالأمر ليس عشوائياً ولكنه الحقيقة التي يفذوها العلم، علم الله المحيط بما يصلح عباده، وإلا فهو الجهول ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

فتلك مجموعة من الوقائع عرّزها وأعطاهها مزيداً من الأهمية في تاريخ البناء عند الإنسان: أن القرآن الكريم كشف - وهي وقائع حصلت في تلك الحقبة عن أنها حقائق علمية من أنباء الغيب ما كان يعلمها محمد ﷺ ولا قومه قبل أن يوحى بها إليه ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤١).

إن وضوح هذه الحقائق في عالم التصور: له انعكاساته الفاعلة في عالم الواقع والتطبيق.

وموعدنا كلمات قادمات تقفنا إن شاء الله على ما يحمل إدخال هذه الوقائع في حيز العلم، وما يعنيه الأمر بالصبر وأن العاقبة للمتقين.



الوحي.. والحقيقة العلمية فاعلية هذه الحقيقة.. في بناء المسلم الفاعلية والتربية البناءة.. والبناء

الآية التاسعة والأربعون من سورة «هود» وهي قول الله جل ثناؤه خطاباً لنبيينا عليه الصلاة والسلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩) هذه الآية الكريمة من تلك المسورة المكية، هي التي خُتِمت بها قصة نوح عليه السلام مع قومه وولده وما كان من أمر الطوفان وذيوله؛ حيث استأثرت هذه القضية – بوقائعها المتنوعة – بخمس وعشرين آيةً بُدِئت بالآية الخامسة والعشرين.

والحديث فيما سلف من القول عن المكانة التي تأخذها – على صعيد التربية والإعداد وتحديد المفاهيم – وقائع ما حصل لهذا الرسول الكريم مع أقرب الناس إليه نسباً، وما أعقب ذلك من أمور... هذا الحديث قادنا إلى هذه الآية التي تدخل هذه الوقائع في حيز العلم؛ وإدخالها في هذا الحيز يعني الكثير على ساحة المعتقد والثقافة جميعاً ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ...﴾.

يقول الله جل ذكره وتقدس حكمته لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام – وهو يعمل على بناء الإنسان المسلم وإنشاء المجتمع المنضبط بضوابط الإسلام –: هذه القصة وأشباهها – بما فيها من وقائع – من أخبار الغيوب السابقة، نوحينا إليك – نعلمك بها وحياً منا إليك – على وجهها الحقيقي كما وقعت وجرت لأصحابها، كأنك شاهدها، وقد مرَّ عليها قرون وقرون.

﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ ينفي الله سبحانه وتعالى أن يكون عند محمد ﷺ أو عند قومه علم بها؛ لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يواجهها بالتكذيب: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد بذلك كتب الأنبياء عليهم السلام.

هكذا تحمل الكلمة القرآنية إلى الرسول الأمي صلوات الله وسلامه عليه، وإلى أمته هذه الحقيقة بأسلوب واضح لا يحتمل أي لبس، وهي حقيقة أن مضمونات قصة نوح عليه السلام مع قومه وولده — كما أوردها القرآن الكريم — في غير موطن، ومنها ما دار بين نوح وبين هذا الابن، والمصير الذي انتهى إليه مع الهالكين، وما كان من سؤال التبيين من هذا الرسول الكريم، وما تلقاه من ربه عز وجل جواباً عما أراد الكشف عنه وتبيينه في شأن ابنه، وإعلاماً له بالقيم والمعايير التي يخضع لها تقويم الإنسان — صلاحاً أو فساداً — وتبنيه على أن ما كان من حكم الله على الولد هو من العلم الذي نبّه نوح عليه السلام على أنه كذلك، ونهي عن أن يسأل ربه ما ليس له به علم، مع ضرورة الاتماظ بذلك خشية أن يكون من الجاهلين.. — الأمر الذي تتضح من خلاله العلة في كون ابن نوح الصليبي ليس من أهله — ثم ما كان من مسارعة هذا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الموقف الذي يليق بأدب النبوة والتسليم المطلق لله عز وجل والرضى عن طمأنينته بحكمه جلّ شأنه.. كل أولئك يدخل في نطاق الحقائق العلمية بلا ريب..

وإنما كان ذلك كذلك: لأن الإخبار عنها كان من طريق الوحي الذي هو كلام رب العالمين — ومن أصدق من الله حديثاً — ولا يداخلها أدنى احتمال — مهما ضعف واشتد ضعفه — في إمكان أن لا تكون وقعت بكلياتها وجزئياتها التي أحاط بها الكتاب الكريم كلام الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾.

أما بعد أن تنزل بها الوحي: فقد علمها النبي ﷺ وقومه المسلمون منهم وغير المسلمين. كما أن القاعدة التي بني عليها ما كان من عاقبة ولد نوح في انتظامه مع الهلكى الفارقين، نتيجة إعراضه عن الحق، وعدم انصياعه لنصح والده الذي كان يتمنى له النجاة: كل أولئك من العلم ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وإذن: فالوحي – وهذا ما يجب أن يكون أقوى ركييزة من ركائز البناء الفكري الذي يجب أن يصاغ عليه العقل المسلم – هو أول مصدر يقهني من مصادر العلم! فقد يكون العلم من طريق الوحي – عند الحاجة إلى الخبر الصادق – وقد يكون من طريق الحواس.. وما يذكر من مصادر المعرفة هنا وهناك.. وقد يكون من طريق التجربة – وهو العلم التجريبي – وكل هذه الأنواع، مما دلّ عليه القرآن الكريم.

فبجانب ما نحن بصدد من تقرير أن الوحي هو المصدر الأول من مصادر العلم عندنا، نقرأ في سورة «الفاشية» – مثلاً – قول الله الحكيم الخبير: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾.

وهذا النظر الذي يدعو إليه القرآن ويحض عليه في معرض الاستدلال على وجود الله بعظيم خلقه وحكمته في هذا الكون، وآياته في الآفاق.. إنما هو نظر الملاحظة والتجربة، والتدقيق العلمي بمقدماته ومراحلته التي يخالطها العلماء – على تنوع تخصصاتهم – أجل: التدقيق الذي يوصل إلى النتيجة السليمة من طريق المقدمة السليمة، وسبحان من علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم ﴿سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٢)﴾ [فصلت: ٥٢].

وهل يتحقق هذا بدون علم؟.



السلوك وتكامل البناء في سورة الحجرات

« ١ »

لعلّي لا أجد غضاضة في التذكير بأن ما يقفنا عليه المعلم القرآني عند اصطحاب الكلمات الهاديات في القرآن الكريم، كثيراً ما يكون إشارات لا يتسع المقام لتفصيل القول فيها، وللتفصيل مكانه لمن أراد. وعلى هذا السبيل كان اصطحابنا فيما سبق من القول للآيتين التاسعة والعاشر من سورة الحجرات، حيث وقفنا المعلم القرآني من خلالهما على الأهمية البالغة لارتباط الإيمان بالسلوك، والعلم بالعمل، وعلى ما للأخوة الإيمانية من أثر في التعاون على البر والتقوى، والقدرة على حل المشكلات الطارئة على صعيد ما يجب من رهد المجتمع بما يقوي بناءه، وينمي طاقاته على مختلف الأصعدة في ظل ذلك المحور الإيماني، الأمر الذي يحقق تماسكه واستقراره، وقدرته على دفع العاديات بإذن الله.

وهي حديث موصول بهذا: فننتقل إلى الآية الحادية عشرة من السورة وهي قول الله جلّ وعز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

والذي يستوقف الناظر المتدبر — بادية ذي بدء — في هذه البصيرة النيرة: هذا التكامل الذي يهدي إليه الكتاب العزيز، في الحفاظ على بنية المجتمع والقضية الكبرى التي حصدت الأمة من انحسارها عن حياتها البلاء الكبير، والتي كانت محتوى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ظَالِمَ الْاٰمَنِيْنَ اَلْمُؤْمِنِيْنَ اَقْتُلُوْا قَاتِلُوْا بَيْنَهُمَا﴾ الآية.. هذه القضية الكبرى في حياة الأمة والتي تأخذ — كما هو ظاهر — طابعاً أعم من

السلوك الفردي، في التعامل: تلاها التذكير بالقاعدة التي يقوم عليها كيان المجتمع المسلم وهي أخوة العقيدة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾ ولذلك ما له من دلالة هي الأمانة في أعناق المسلمين، والمخالفة عن أدائها من الجرائم العظام..

وها نحن نرى ضوابط السلوك بين الأفراد في حياتهم اليومية، وقد تتعدى إلى الجماعات، خصوصاً إذا لاحظنا تنوع مسالك الحياة وشعابها المعقدة والأمر الذي يدل على أن سلوك الفرد مع أخيه هو الهداية؛ فإن كان سلوكاً خيراً كانت النهايات الخيرة، وإلا كان الأمر غير ذلك وبنية المجتمع تتأثر بهذا وذلك.

ذلكم ما تشرق به الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات نفسها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

فالآية الكريمة تنهى عن السخرية، سواء كان ذلك بين الرجال أو بين النساء، أو في صور أخرى يكون فيها من هؤلاء وأولئك. والمعنى لا يسخر جماعة من جماعة ولا فرد من فرد ذكوراً كانوا أو إناثاً؛ لأن مقابلة الجمع بالجمع – كما يقول العلماء – قسمة على الأفراد؛ فكل رجل مطلوب منه هذا، منهى عن الوقوع فيما نهى عنه. وكل امرأة أيضاً. وتذكر الآية بأن الأمر مردّه إلى الله لا إلى الممايز التي من خلالها يستكبر من يستكبر ويعتقر من يعتقر والمباذ بالله ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

والملاحظ أن النهي عن السخرية بين المسلمين – وهي الاستهزاء والتقصص والازدراء – اقتصرت بما يثير العقل كيما يفكر ويثبت؛ فقد يكون من سخر منه، أو من سخر منها، خيراً ممن سخر أو سخرت، وذلك مما يمين على الأوبة والمدول عن هذه الحماقة إن كان لدى الساخر المستهزئ بقية من إحساس تشمره بمقارفة الإثم لأنه يأتي خلقاً نهى الله تعالى عنه، والنهي هنا للتحريم.

ثم جاء النهي عن اللمز والتنايز بالألقاب في قوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ اللمز: التقصص وإسناد إنسان لآخر ما يميمه قالوا: لمز: ازدرى وعاب، وقد يكون ذلك بشتى صور التعبير، ولز الإنسان أخاه لمز لنفسه ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ المؤمنون إخوة؛ فمتدما يميم أحدهم الآخر، فقد عاب نفسه ولا تميموا فتعابوا، وهذا غير التناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الفرق بين ما هو لله وما هو للنفس والهوى، وقد تكرر الوعيد على الهمز واللمز في القرآن، والهمز: الغيبة من ورائه، وتري الخلقين مقترنين قال تعالى في سورة «القلم»: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلُّ لِسَانٍ مِثْلَهُ﴾ ﴿١٠﴾ هَمَزُ مِثْلَهُ بِنِيمٍ ﴿١١﴾ لأن الهمز اللماز مذموم ملعون ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]. إذ الويل كلمة عذاب، أو وادٍ في جهنم، وللهمز واللمز صور شتى قولية وفعلية.

ولا تسئل عن المقامد التي تترتب على الهمز واللمز وما يكون من سوء العلاقة بين الناس بسبب هذا الخلق الذميم. كما نهى الله عن التنايز بالألقاب، وهو التداعي بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها.. فالمؤمنون منهيون عن أن يميم بعضهم بعضاً بالقول أو بالفعل أو بأية وسيلة أخرى، وعن أن يدعو بعضهم بعضاً بلقب يكرهه، ومن ذلك: يا فاسق يا كافر، وما أكثر ما تسوّل النفس ويزين الشيطان من ألقاب وكلمات لا وأثار ذلك لا تخفى على من يتبصّر في الأمور، ويرهب المسار الاجتماعي، والعوامل السلوكية التي تسهم في وهن المجتمع وتقطيع الأواصر بين أفرادها؛ من هنا كان الوعيد شديداً على المتخلق بتلك الأخلاق التي تجر وراءها ما تجر من الأذى والفرقة وتمكر صفو النفوس، فقال تعالى: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ بئس الاسم الخروج عن دائرة الحق والخلق المستقيم بعد الإيمان الذي يقتضي دفع الأخوة الإيمانية وحسن التعامل الذي يثمر ما يثمر من القوة والتعاون على البر والتقوى، ناهيك عما يكون من الطمأنينة والتحاب في الله وكم للمتحابين في الله من عظيم المنزلة عند الله. وختمت الآية بالدعوة إلى التوبة من ذلك كله ووعيد من لم يتوبوا عن ذلك، ويستأنفوا السلوك المستقيم: بأنهم هم الظالمون لأنفسهم وللآخرين ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُوبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

هكذا رُتّب الجزاء على الشرط في الآية، ومن هنا من أدوات العموم؛ فكل من أصرّ على ذلك النهج الأخلاقي الظالم، فهو ظالم لنفسه ظالم لغيره، وهذا مجاف لأدب الأخوة وأخلاق أهل الإيمان.

إنها لمحة من لمحات الإعجاز في المنهج القرآني في تربية الإنسان المسلم وإعداد الموارد البشرية المذهلة لحمل المبع، والقيام بتبعمات البناء – في جو من التأخي واستشعار الواجب في ظل الرسالة الخاتمة –، فالسلوك المستقيم عون لا عون يماثله – بعد عون الله – فيما عند الناس؛ على أن يأخذ العلم والكفايات والتخصصات كلّها سبيلها الأمثل على صعيد التعاون الذي يمدّ الحب في الله والثقة المتبادلة بين الإخوة ويحرك الأفراد بعواطف المودة والتضامن والرغبة في التعاون المجدي على هدي من الإيمان والأخوة المنبثقة عنه. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



خطوة أخرى مع السلوك والبناء في سورة الحجرات

« ٢ »

في نظرة عجلى إلى بعض من آي سورة الحجرات التي رسمت للمسلمين ملامح المنهج السلوكي الذي يَهَبُ - بمون الله - المجتمع استقراره ونماء طاقاته الفاعلة، نعود مرة أخرى إلى الآية الحادية عشرة وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمًا مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بَشَرُ الْأَسْمَاءِ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

وقبل أن نعاود اصطحاب الآية الكريمة، استزادة من عطائها ودلالاتها، يحسن التذكير بما سبق أن أشرت إليه من هدي القرآن في تنبيه الفرد والجماعة إلى صيغة التكامل في السلوك، والكشف عن الارتباط الواضح بين الجزئيات والكلية، حيث ينعكس سلوك الفرد مع أخيه على الجماعة.

وتأثر المجتمع في ميادينه المتعددة كائن حسب نوعية السلوك، والعلاقة بين الأفراد بعضهم ببعض.

وإذا كان هذا الأمر قد أخذ طابع التأكيد، وشديد الوعيد على السلوك المخالف بين الأفراد والجماعات؛ فالمطلوب ممن ولأهم الله أمور التربية والتنشيف أن يكونوا أشد حرصاً على الاستقامة في ذلك، والبعد عن كل ما يؤدي الفرد أو الجماعة لأن ذلك من الظلم، فسلامة السلوك تعني دوام الود ونماء القدرة على التعاون البناء بطمأنينة وثقة، الأمر الذي يعطي الموارد البشرية مزيداً من الفاعلية والقدرة على الإنجاز.

واضطرابُ هذا السلوك وانحرافه يعطي عكس ذلك، ويؤثر بشكل تلقائي على نمو الطاقة المرتبطة ميدانياً بأولئك الذين اتسمت علاقاتهم ببعضهم ببعض بهذا الانحراف.

تبدأ الآية الكريمة بخطاب المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للتذكير بالقاعدة التي ينبغي عليها العمل والسلوك؛ فهذا الخطاب الندي المشغل بالتكريم، يُشعر المؤمن بأن من مقتضيات إيمانه، أن يكون وقافاً عند حدود الله في أموره كلها — كائناً ما كان موقع المسلم أو المسلمة في المجتمع — ما دقَّ منها وما جُلَّ، وهذا واحد من أسرار التكامل في منهج التربية والإعداد في القرآن الكريم؛ فإذا استقام له هذا الوقوف عند حدود الله، كان ذلك برهان صدق الإيمان.

ثم نهى الله تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾.

ولقد جاء التصريح بذكر النساء مع أن أكثر ما يكون خطاب التكليف في القرآن على التغليب، تأكيداً لأهمية هذا الخلق في الابتعاد عن السخرية بالناس، لما لاحقار الناس والاستهزاء بهم من انعكاسات سيئة على علاقة الأفراد بعضهم ببعض، بل وعلى المجتمع نفسه.

وكثيراً ما تؤدي إلى الفتنة والتمزق والضعف. ولقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن رسول الله ﷺ قوله: «الكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَضَمُّهُ النَّاسُ»، ويروى «وَضَمُّ النَّاسِ بِالْصَّادِ» والمراد من ذلك — كما يقول العلماء — انتقاص الناس وازدراؤهم، واحتقارهم فإنه قد يكون من سُخْرِ منه أعظمُ قدرًا عند الله تعالى وأحبُّ إليه من الساخر منه ومزدريه وبطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبُّراً.

والعبرة دائماً للمعايير الحقيقية في العظمة والصفار، هذا بالإضافة إلى أن المؤمن أخو المؤمن، والمؤمنة أخت المؤمنة تجمعهم جميعاً كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فمن مقتضيات الإيمان أن لا يقع ذلك. وأن يُبتعد عن كل ما يؤدي إليه.

وقد صرّحت الآية بأن الحق هو فيهما عند الله، لا فيهما يصدر عن هذا الساحر المنتقص. بعد أن ذكّرت بالقاعدة الإيمانية، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

ولو أخذ باحث اجتماعي عينات من بعض المجتمعات لدراسة السلوك وأثره على الجماعة والمجتمع، لراى قبساً من إعجاز القرآن في هذا التوجيه الذي لا يُحدُّ بمجموعة من الناس في زمان أو مكان، ولأدرك شيئاً من عظمة المنهج الرباني فيهما يرسم لقواعد البناء وسلامة استمراره معافى من الأذى وعوامل الضعف.



سورة الحجرات.. وانعكاسات السلوك على البناء الاجتماعي

« ٣ »

وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول على بعض من عطاء الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات هذه متابعة نرمي من ورائها إلى التعرف على قبسات آخر من ضياء هذه الآية الأمر الذي يقتضينا معاودة النظر والتبصر؛ والآية الكريمة هي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وكون سورة الحجرات سورة مدنية؛ يعني أن هذه الآداب الإسلامية التي هي نبض الحياة في المجتمع المسلم — بعد أخوة الإيمان — تنزلت وقد استوى المجتمع على سوقه، واستضاءت تباشير الدولة المسلمة؛ فهي أخلاق لا بد منها للحياة الإسلامية دونما قصر على أزمدة أو أشخاص.

لقد صُدِّرَت الآية بخطاب المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشعاراً بالقاعدة التي يبنى عليها العمل والسلوك عند المكلفين أولئك الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وعلى أساس منها يخاطب المؤمنون بالتكليف.

وما من ريب في أن هذا الخطاب الندي بالخير والمطاء؛ جارٍ على سنة التقلب من معهودات العرب في الخطاب؛ فالمقصود: يا أيها الذين آمنوا ويا أيها اللواتي آمن؛ ولكن أفرد النساء أيضاً بالذكر؛ تأكيداً لأهمية البعد عن هذا الخلق الذميم — وهو السخرية من الناس والاستهزاء بهم واستصغارهم — لما له من آثار هدامة، ومن انعكاسات سيئة في دخائل الأنفس مع الأخوة، غير محمودة العواقب على ساحة التعامل وتصنيف القيم. ولأن ذلك قد يكون في غير الرجال أكثر أحياناً؛ ﴿وَلَا يَسَاءُ مَن يَسَاءُ عَسَىٰ أَن يَكُنْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

وهذا يدل فعلاً على أن النساء شقائق الرجال؛ فخطاب التكليف واحد كما يدل على أهمية العناية بتربية المرأة في المجتمع المسلم وتأهيلها التأهيل الكافي، كيما تكون تلك المرأة المسلمة التي تمتاز بدينها، فتقف عند حدود الله في عملها وسلوكها، كما يجعلها قادرة — بمون الله وفضله — على الإسهام في بناء المجتمع المتكامل المتوازن — الذي لا يعبث به التناقض ونمو جانب على حساب جانب آخر — وضمان قدرته على العطاء.

والواقع أن فسح المجال للمقيدة أن تأخذ مكانها في منهج البناء والإعداد للذكور والإناث، كفيل — بإذن الله — أن يباعد بين الفرد — ذكراً كان أو أنثى — وبين الففلة، والوقوع في مثل هذه الخصال الذميمة التي تفرق ولا تجمع، وتزلزل الثقة في النفوس، وتباعد بين الأفراد وبين أن يركن بعضهم إلى بعض، فارتباط السلوك ومنهج الأخلاق بالمقيدة التي من مقتضياتها طاعة الله في أمره ونهيه عبر طمأنينة ورضى، يجعل المؤمن على حذر من سوء العاقبة؛ لأنه عندما يقع في المخالفة فقد سلك سبيلاً مفايراً لما يقتضيه الإيمان، وتعلميه عقيدة التوحيد. وهذا يعني سوء المصير يوم يقوم الناس لرب العالمين لأنه قد رضي لنفسه أن يتمرغ في حمأة الظلم ويكون — إن لم يتب — من الظالمين.

ولذلك يبدو من الضرورة بمكان، أن يحافظ — بمنهجية وصدق في الوجهة — على هذا الارتباط بين الإيمان والسلوك عند المرأة والرجل على السواء ولا دخل النقص وكانت السواى هي العقبة. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهي تعني — كما أسلفنا — فيما وراء ما تختص المرأة دون الرجل أو العكس، تعني (ويا أيها اللواتي آمن)، ما دام خطاب التكليف واحداً — كما ذكرت آنفاً — وما تختلف به المرأة عن الرجل من أحكام، تابع لحكمة الله في التكوين وسبعان الحكيم الخبير.

ثم إن البعد عن حقائق الإيمان كثيراً ما يكون من الفراغ، فالفراغ يساعد على التطلع الفارغ إلى ما عند الآخرين، ورصد تحركاتهم، وقد يوقع في السخرية والاستهزاء والاستصغار. فالوقت عند هؤلاء: بدل أن يكون وعاء خير ونماء في

طاعة الله، ينقلب إلى مباءة إثم، ولا غبن أشد - على ساحة التعامل مع الوقت - من هذا الغبن كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري والترمذي وغيرهما: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» .

فإذا شغلت المرأة بالنافع: باعد ذلك بينها وبين أن تشغل وقتها بما لا يجدي وكذلك الرجل.

إن كثيراً مما نشكوه في مجتمعاتنا الضيقة أو المتسمة اليوم من سوء السلوك وتناقض العلم مع العمل واضطراب حبل العلاقة بين الناس والأقربين منهم بخاصة، مرده إلى هذا الانقسام المريع بين الإيمان والسلوك - الأمر الذي يدل على ضعف سلطان العقيدة على عقل المسلم وقلبه - ثم عدم شغل الوقت بما ينفع الإنسان نفسه وأهله ومجتمعه. ومن الخطأ بمكان ما قد يظن بأن هذه القضية قضية هامشية بل إنها من القضايا الجذرية في بناء الإنسان والتي لها انعكاساتها العميقة الجذور في المجتمع.



سورة الحجرات.. وبناء المجتمع المتماسك بوجوده الذاتي

« ٤ »

المجتمع النظيف المتماسك الذي أقامه المنهج القرآني في المدينة وزاول بناءه على أرض الواقع والحركة رسول الله عليه الصلاة والسلام ومعه أصحابه الكرام الذين آمنوا به وصدقوه واتبعوا النور الذي أنزل معه.. هذا المجتمع ما كان ليكون كذلك لولا تلك الهداية الربانية في رد العمل والسلوك إلى الإيمان الذي من مقتضاه إحكام البنية الأخلاقية، والحيلولة دون أن تتحكم في السلوك العملي والأخلاقي مصالح قريية قد تسيء إلى الآخرين، أو هوى متبع يعمي صاحبه عن مراعاة حق الأخوة، ومقتضيات الإيمان، وما تعنيه رحلة البناء ضمن الجماعة المسلمة التي تهدف - فيما تهدف إليه على هدي الرسالة الخاتمة - إلى أن تقيم المجتمع الأمثل المعافى في بناء الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها والذي يحمل قابلية النمو والتطور إلى ما هو الأفضل.

وأقول إلى ما هو الأفضل، لأنه ليس كل تطور يكون سليماً، وأخذ كلمة التطور على إطلاقها كما يعن^١ للمأخوذين بيهرج الغزو الفكري أن يأخذوها، دون النظر المتبصر فيما يراد منها، وتاريخ وجودها عند غيرنا نتيجة ملاسبات معينة، ليس أقلها فصل الدين عن الدولة، وما كان موقف الكنيسة من العلم. ثم الدعوة إلى أن يكون الأخذ بها عنوان التقدم والرقي، والانتماق من ربة التخلف، ويعنون بذلك الإيمان بوحى السماء والغيب وما إلى ذلك. وقل مثل ذلك في الدعوة إلى ما يسمونه «التحديث» على إطلاقه؛ لأنه يجمع بينهما جنوح مشبوه إلى التحلل من الثوابت في الكتاب والسنة، ومحاولة تفسير التاريخ والوقائع تفسيراً مجافياً للحقائق التي يشهد لها الوحي.

والمسلم مدعو إلى أن يطور أساليب العمل والحركة، وأن يأخذ بالوسائل التي هي من ثمار العلم، والتي يصل - بمون الله - من طريقها إلى التمكين للإسلام وأهله في الأرض، بما لا يتعارض مع شيء من الكتاب والسنة ومفهوم أئمة الهدى والعلم منهما - لأن الحق من عند الله لا يعتريه شك في نفس المؤمن، والإسلام دين الله، والكون والإنسان والحياة من خلق الله.

وذلكم - دائماً - هو الطريق السليمة في مزاولة عملية البناء الكبرى بتمدد ميادينها والحاجات المتجددة الطارئة في المجتمع، بحيث يستفاد من التجربة ومن النتائج التي يصل إليها العلم التجريبي وغيره، دونما عدوان على الأصالة وحقيقة الانتماء إلى الرسالة الخاتمة التي جعلت - كما أراد الله تعالى - من أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس، وهداها الله إلى عمارة الأرض وبناء الحضارة الإنسانية في ظل العبودية الحقة له، وسخر لها ما في الكون جميعاً، بمنهج شامل كامل متوازن مبرراً من تلك الثغرات - وما أكثرها - التي تمناني منها الحضارة المادية الراهنة هي المنهج الذي قامت عليه.

أقول هذا - والحديث موصول - بعبارة الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات التي يحسن تجديد الذكرى بها، وهي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمَ مَن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْمُسْوَقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وقد سبق أن أشرت إلى دلالة الآية - بالنهي القاطع - عن السخرية بالآخرين وازدراءهم، سواء كان ذلك على صعيد الأفراد أو الجماعات.

ولا يرتاب منصف في أن تنزه المجتمع المؤمن عن هذه الخصلة الذميمة مدعاة إلى الصفاء النفسي والتماسك والتآزر، والإفادة من الطاقات الفاعلة، في إطار من التعاون المثمر بين أفراد المجتمع على اختلاف الطاقات والقدرات، وتآزرهم على كل ما فيه سلامة هذا المجتمع وتنمية فاعليته لتحقيق رسالة الإسلام، وتصامي القدرة الذاتية عند الجماعة، والصبر بها نحو بنية حضارية لا يعوزها النقاء والشمول.

ثم جاء النهي الجازم في الآية أيضاً عن أن يلمز بعض المسلمين بعضاً بالتقصير والالتماس للبراء العيب. وعندما يظن بعض المسلمين ببعض، فقد ظنوا أنفسهم لأنهم إخوة، وهذا من أسوأ عوامل التخلخل والضعف، وقد يرتدُّ على ذلك البعض، ظننه لأن العيب فيه وليس في إخوانه.

وتقرير هذه الحقيقة حقيقة أن الأخوة الإيمانية تجعل من إيذاء الأخ لأخيه إيذاءً لنفسه لأن المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر - كما جاء في الحديث الصحيح - هذه الحقيقة تنوع في القرآن التعبير عنها في عدد من المواطن؛ من مثل قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]. حيث جاء الخطاب برّد الضمير إلى الجماعة، فقتل المسلم المسلم - لا سمح الله - قتلٌ لنفسه بالمال، وأكل المسلم مال المسلم بالباطل اعتداء على ماله هو.. وهكذا... ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وإن كان للمعنى وجه آخر - كما ذكرت آنفاً - ولا تعارض.

والحق أن بناء المسلم على هذه الحقيقة يشعر بمزيد من المسؤولية عن حراسة القيم التي تحكم المجتمع، وتضمن قابليته للعطاء، بعيداً عما يعكر صفو العلاقة بين الأخ وأخيه أو بين جماعة وجماعة أخرى من المسلمين وهم يعملون لتحقيق غاية كريمة واحدة.

ذلك بأن ذلك يشعر الجماعة بوحدها، وإشعار الجماعة بوحدها - وأعني بذلك جماعة المسلمين - ينمي في نفس المسلم أيضاً إدراك أن إيذاء الفرد إيذاء للجماعة، فلزم الفرد والظمن عليه لمز للجميع، وأكل ماله بالباطل عدوان على الجميع، ناهيك عن العدوان بالقتل أو غيره والمعاذ لله!!

وللكلام بقية تتعلق بالنهي عن خلق ذميم ثالث وهو التنازع بالألقاب فيما يأتي إن شاء الله.

سورة الحجرات... وإلى قراءة جديدة في البناء

« ٥ »

ألقينا عصا التسيار في كلمات قريبات عند قول الله تبارك وتعالى في الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْقُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقد سبقت الإشارة إلى ما تدل عليه الآية من نهي عن اللمز وهو أن يعيب المسلمون بعضهم بعضاً، فيطمعن فيه بأي صورة من الصور قولاً كان ذلك أو فعلاً أو ما هو منهما بسبب، وذلك كثير. ولقد جاء النهي عن الانتقام بالفعل في القرآن وتَوَعَّدَ فاعله في أكثر من موطن.

فلقد سميت إحدى السور القصار — كما أشرت من قبل — بسورة الهمزة وهي مبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّزَةٍ﴾ فهذا المتوعد بالويل جمع بين شدة الاغتياب، فهو مفتاب غياب للآخرين، وهو يتنقص ويلتمس للبراء العيب وهي التعبير القرآن ﴿وَيْلٌ...﴾ الآية من التهديد والوعيد ما هو ظاهر؛ فالهمَّاز اللَّماز مملون والمعياذ بالله.

والويل — كما سبق — واد في جهنم أو لون من ألوان العذاب كما يقول أهل التأويل وهي ممرض الذم قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٌ مِّثْلُ بَيْمٍ ۝١١﴾ فهو يحتقر الناس ويلمزهم ملاغياً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي من اللمز بالمقال.

ثم انتقلت الآية الكريمة — من سورة الحجرات — إلى النهي عن خصلة ذميمة أخرى وهي التناكب بالألقاب؛ فالمؤمنون منهيون عن أن يدعو بعضهم بعضاً بالألقاب السوء، لأن الأصل أن لا يسميه الأخ إلى أخيه، وأن يكون سلوكه في التعامل معه على الشكل الذي

يحفظ الود، ويقوي الأواصر؛ فإذا كان هنالك لقب يسوءه، فدعوته به لا تجوز، وتأكيذاً للنهي عن هذا التنايز جاء التثديد به والوعيد عليه كما هو واضح في قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي بشئ الصفة والاسم: الفسوق والتنايز كما كان أهل الجاهلية يتداعون ويتناعتون، بعد ما أنعم الله عليكم بالإسلام وعقلتموه. وأين أخلاق الجاهلية التي قد يهين بعضها الإنسان ويسهم في زلزلة المجتمع: من أخلاق الإسلام التي تكرم الإنسان وتبني صروح المودة والتعاون على الخير.

ولعل ما يزيد الأمر وضوحاً: ما جاء في الواقعة العملية التي كانت سبب النزول؛ فقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أبي جَبيرة بن الضحاك رضي الله عنه قال: فينا نزلت هذه الآية بني سلمة، قال: قم علينا رسول الله ﷺ وليس منا رجل إلا وله اسمان، أو ثلاثة، فجعل رسول الله يقول: «يا فلان»، فيقولون: مَهْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنه يفضب من هذا الاسم؛ فأنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ هذه رواية أبي داود.

والمراد طبعاً بعض من الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات. وعند الترمذي قال: كان الرجل مَثْنًا يكون له الاسمان والثلاثة، فيُدعى ببعضها، فمضى أن يكره، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

هكذا يُعنى القرآن هذه العناية ببناء الإنسان على هذه الشاكلة، كما يُعنى بالحرص على سلامة العلاقة بين الأفراد بعضهم ببعض، فيتابع السلوك حتى فيما يجوز أن يدعو بعضهم بعضاً به أو لا يجوز. فما بالك بما هو أكثر وأكثر، وذلك كله كائن — ولله الحكمة البالغة — كيما يتسنى لهم بناء المجتمع وصيانتة عن كل ما يضطرب معه حبل الود وتختل بسببه مسيرة التعاون البناء بين الأخوة المنوط بهم حمل العبء والنهوض بالتبعات على هدي دعوة الإسلام التي هي دعوة الحياة؛ فهل من قراءة جديدة متديرة لمعالم العطاء في القرآن الكريم، يترجمها الإخلاص والصدق إلى واقع حي على ساحة التفسير! نرجو من الله ذلك.

البناء.. وما يعنيه ختام الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات « ٦ »

حاجة المجتمع إلى ضوابط الأخلاق الكريمة في نظرة الأفراد والجماعات بعضهم إلى بعض، وفي السلوك الذي ينتظم التعامل فيما بينهم: حاجة على غاية الأهمية. والعلاقة الوثيقة بين الأخلاق والمقيدة التي تتمثل في سلامة السلوك — كما أراد الإسلام —: لا تخفى، وقد كان من عنابة القرآن بهذا الأمر الجلل: أن عرض له في مواطن عدة من آيه بل رأينا سورة مدنية — هي سورة الحجرات — تفرد تقريباً لهذا.

ورحلتنا المباركة مع معالم هذه السورة انتهت بنا إلى الآية الحادية عشرة التي رأينا من عمائها على ساحة العلاقات الاجتماعية، توجيه المسلمين وهم يمارسون عملية البناء لهذا المجتمع القدوة في العالمين — إلى ما فيه تقوية أو أصر المودة والتآخي بين المؤمنين وصيانة هذا المجتمع عن التفكك الذي يعود على عملية البناء وصيانتها بالضعف والانحلال.

وقد ختمت الآية بما يؤكد وجوب الالتزام باجتنب تلك الأخلاق الذميمة التي جاء النهي صريحاً عن الوقوع في شيء منها، حيث رأينا ما يشيء بوجوب التوبة إن حصلت المخالفة، وتوعد من لم يتب، بالحكم عليه بأنه ظالم لنفسه وللآخرين، ولذلك ما له من عقابيل لا تحمد عقباها في الدنيا ويوم الدين.

وما ختمت به الآية هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَنْسُ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

هكذا يلاحظ بوضوح: أنه بعد النهي الجازم عن أن يسخر قوم من قوم أو نساء من نساء وعن أن يعيب المؤمنون أنفسهم فيطمعن بعضهم على بعض بمقاله أو فضاله أو غير ذلك... وعن أن يدعو بعضهم بعضاً باللقب الذي يسيئه والتنديد بذلك... بعد هذا كله ختمت الآية بقوله جل وعز: ﴿بَشِّرِ الْأَسْمَ الْقُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إنه تنديد واضح بتلك المنهيات والوقوع فيها أو في بعض منها ﴿بَشِّرِ الْأَسْمَ الْقُسُوقُ﴾ الخروج على الحق، والعدول عن الصراط السوي بعد الذي يوجب به الإيمان من استقامة السلوك. ومن لم يتب عن ذلك كله وهو مجموعة تلك المنهيات أي شيء منها إذا تمرغ في حماة ذلك: فقد تجاوز الحدود المشروعة في التعامل بين المؤمنين الذين جمعت أمرة التوحيد بينهم وألقت بين قلوبهم كما شاء الله جل شأنه. أجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لا فرق بين ذكر وأنثى من أهل التكليف، والتب لذلك غاية في الأهمية.

وإذا كنا على ذكر مما يشرق به المنهج القرآني من التكامل في منهج البناء – بشتى ميادينه – نجد من الدقة في تطبيق هذا المنهج بالنسبة للفرد والجماعة: ما يلاحظ من الأهمية لتتزيه المجتمع عن تلك الخلائق الفتاكة؛ فالنهي – في الأصل – يقتضي التحريم، ومن أجل ذلك يفترض بالمسلم رجلاً كان أو امرأة أن ينتهي – بدافع من إيمانه – عما نهى الله عنه لأن حراماً عليه أن يعصي الله فيرتكب المحرم الذي نهاه سبحانه وتعالى عنه، ومن الإعجاز: ما صاحب الحكم من الدلائل الناصع المقنع لمن أراد مقنعاً، وحسبك أن أحكام النهي عن تلك المذمومات بدئت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تذكيراً بالقاعدة التي تبنى عليها الأحكام المطلوب العمل بها – كما سبق غير مرة – وإن امتثال المأمورات واجتناب المنهيات من مقتضيات الإيمان.

فالإلتزام برهان صدق هذا الإيمان، والآية الكريمة جمعت إلى النهي هذا التنديد بمن لا يتوب عن ذلك كله حين يقع فيه وَوَسَّمَهُ بِسْمَةِ الظلم على سبيل الحصر، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وإذا كان الظلم في الأصل هو التجاوز – كما ذكرت آنفاً – ووضع الشيء في غير موضعه الشرعي؛ فهؤلاء – المقصودون

بالوعيد - هم الظالمون لأنفسهم بمعصيتهم ومخالفتهم، وهم الظالمون للجماعة والمجتمع بإتيانهم نوعاً من السلوك يتنافى مع أخوة العقيدة، ويمرض الجماعة للتفكك، والمجتمع لالوان من الاهتزاز هو في غنى عنها، لأن التفكك في الجماعة وضعف الأواصر التي تربط الأخ بأخيه، وتنمي - لأنها من الإيمان وإليه - حب التماون على البناء من أعماق النفس، وكل ذلك ينمكس على بنية المجتمع بشتى وجوها وميادينها، وكم ذا ترى من الأمثلة الناطقة بهذا على كل صعيد، ولكن أين القلوب؟

وواضح أن منهج القرآن في بناء الفرد والمجتمع لم يقتصر على وضع الأسس السليمة، بل شفع ذلك بتوجيه من يزاوون عملية البناء، إلى السلوك الأمثل الذي من ثمراته: ضمان استمرار البناء، وتتمية قدرته على العطاء، تحقيقاً للهدف الكبير، وهو تقديم الإسلام وأحكام الإسلام وأخلاق الإسلام خالية من الشوائب، كي تمثل الصورة الحركية على أرض الواقع، لا أن يظل الإسلام حبيس الأوراق وعقول أصحابه المنحصرين عن العمل راضين، أو مغلوبين على أمرهم بقهر الظلمة والظلمة أعداء الله والإنسان.

والعظيم في الأمر: تعميق إحساس الفرد بالعلاقة الوطيدة بين معتقده، وبين النهج الأخلاقي الذي يلتزمه وهو يتعامل مع الآخرين، أولئك الذين يصعبهم بظناً تظللها أخوة العقيدة في رحلة البناء - على أنقاض موروثة جاهلية هنا وهناك - بكل تبماتها ومسؤولياتها؛ فإن زلت قدمه فظاهر على الخلق الإسلامي. فقد خالف عما به يؤمن وإليه يدعو ويرفع عقيرته به حيث دعوى الحرص على أن تكون كلمة الله هي العليا، والندود عن حياض الإسلام، وصدق فيه من بعض الوجوه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ٢].

وأنت واعد أن ذلك كله، محال أن يقتصر على زمان أو مكان أو مجموعة من الناس؛ فهو دائماً - كما ينطق الفرقان المعجز - للمسلمين في واقع حياتهم، وممارستهم لشؤونها، وهم ينشئون بشرعة الإسلام وأخلاق الإسلام هذا الواقع،

ويأخذون بأسباب للتمكين في الأرض، فيعمرونها كما أراد الله، ويسهمون في إعداد القوة التي أمر الله بإعدادها لإرهاب عدو الله وعدوهم، فيضربون في كل ميدان من ميادين الحياة التي لا تنفصم عراها عن النظر إلى الآخرة وما يمكن أن تكون العاقبة فيها، إذ إنه ليس بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار.

كل أولئك — كما هو المطلوب المؤكد — على هدي من معالم الكتاب العزيز، وبيانه المبارك من سنة نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وإذن: فالنظرة من خلال الواقع المعاصر — والمسلمون وهم يمانون ما يمانون، على عتبة انطلاق جديدة بمون الله — توجب أن يؤخذ جيل البناء اليوم بما أخذت به أجيال البناء الأول الذين صنعوا من الخير ما صنعوا في تاريخ الإنسان عبر القرون. وهداية القرآن، وبيانه من سنة النبي ﷺ، وما فقاهه أئمة الهدى من النصوص فيهما.. أمانة في أعناق المسلمين — بعامية — وفي أعناق من بيدهم كلمة الفصل والنفذ فيهم على ساحات البناء والإنماء — بخاصة — لما أن مسؤوليتهم تضاعف بمقدار الثغور التي أقامهم الله عليها، وأوتوا من المكانة والقدرة على التنفيذ ما لم يؤت غيرهم..

والمخلص كلُّ المخلص لهم وللأمة: مَنْ حذرهم سطوة الجبار وعقابه، إن هم تهاونوا في أمر الأمة واتخذوا أعداء الله أولياء. ولله عاقبة الأمور.



البناء الاجتماعي.. وآية من سورة الحجرات

«٧»

المحور الذي أدير عليه الحديث في صفحات قريبات، حمل الإشارة إلى ما تعطيه بعض الآي في سورة الحجرات - وهي سورة مدنية - إلى ما تعطيه - وهي تنير السبيل لمن حملوا أمانة البناء في المجتمع الوليد - من إحاطة للعلاقات الاجتماعية النديّة بشذو الإخاء الإيماني، بسور من الأخلاق الكريمة، وتحريم نقيضها، وبالسلك المنضبط بضوابط العقيدة عند تعامل الأفراد بعضهم مع بعض في المجتمع المسلم. وأنّ الجنوح عن ذلك الصراط السويّ: أمر جدّ مستكر؛ فإن تاب عنه صاحبه فيها ونعمت وإلا كان ظالماً والظلم غير محمود العقبي لا في الدنيا ولا في الآخرة «بِمَنْ أَلِمْ السُّوءَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

وعلى هذا المحور المضى، ينتقل بنا المعلم القرآني إلى الآية الثانية عشرة من السورة نفسها وهي قول الله جل ثناؤه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾».

إنه ما دام المسلمون حَمَلَةً رسالة ختمت بها الرسالات، يراد لهم أن يبنوا المجتمع المنوط بهم قياده على هديها، كيما يكون صورة عملية ناطقة، تحكي صلاحيتها المطلقة لبناء الحياة بعيداً عن الزغل ونسيان الله واليوم الآخر، على الوجه الأكمل... ما دام المسلمون على مثل هذه القضية الكبرى في بناء المجتمع القدوة في العصر كلها: فلا بد أن يكون الفرد المسلم، والجماعة المسلمة، على المستوى الذي يتواءم مع عظم المسؤولية وضخامة التبعات.

من أجل هذا، نرى في معالم الكتاب العزيز ما نرى من حرص على استقامة السلوك عند الجميع، وعلى حسن العلاقة بين الأفراد والجماعات، في إطار الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وما يرتبط بها — وهو من بعض حقها — من أخلاق تزين التعامل، وتطبع سلوك الماملين.

وقد رأينا شيئاً من ذلك فيما صحبنا من آيات سورة الحجرات، والآية التي جرى إثباتها آنفاً، تحمل — أول ما تحمل من كريم التوجيه — أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِاجْتِنَابِ كَثِيرٍ مِنَ الظَّنِّ، لَأَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وتنتهي عن التجسس — وما أقبحه — وعن الغيبة التي لها من سوء الأثر ما لها.

وهذا النهي عن الغيبة أتبع بصورة فائقة التعبير، تنقّر من هذه الخصلة الذميمة أشد التتمير «يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ».

ثم ختمت الآية بالأمر بتقوى الله — والتقوى منبع الخير ومعيار العمل — فآله قواب رحيم لمن تاب عن ذنبه، وأناب إلى مولاه، وصدق في التوكل عليه.

هذا: وقد بدت الآية الكريمة — شأن التي سبقتها — بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» وهو النداء الذي يستثير القلوب والمقول لاستذكّار القاعدة التي ينبني عليها التكليف. وقد جاء الخطاب بـ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» على التغليف بين الذكور والإناث؛ لأن خطاب التكليف للجميع واحد، وهذا لا يتعارض مع وجود أحكام تختص بهؤلاء دون أولئك، تشير إلى حكمة الله في طبيعة التكوين، وعلى هذا: فالمراد — والله أعلم — «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» و (يا أيها اللواتي آمن).

ويصيفة الأمر الجازم بالاجتناب، نهى الله عباده عن كثير من الظن — وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض الظن إثم أي مؤثم، وما أشد ما يهاب المؤمن الوقوع في الإثم «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ» قال العلماء: وهذا الظن المؤثم كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين وهم كثير يخفه في الفساق منهم ومن على شاكلتهم ممن يرضون لأنفسهم الوقوف موقف التهمة ويأتون — فعلاً — ما يدعو إلى سوء الظن فلا إثم فيه في نحو ما ظهر منهم.

وإذا كان الأمر كذلك: فلْيُجْتَنَّبَ كثيرٌ من الظن احتياطاً في دين الله، لكيلا يقع المسلم في تلك المعصية وتلحقه أضرارها، وقد يكون لها من المقابيل على صعيد العلاقات الاجتماعية ما الله به عليم؛ ذلك بأنه يترتب على الظن المنهي عنه مفسد، ليس أقلها تقطيع الأواصر، وتفكك الروابط بين الإخوة في المجتمع الواحد — بل والأسرة الواحدة أحياناً — ناهيك عن فقدان الثقة وتمكير القلوب بين الأفراد، أو ما هو أوسع من ذلك.

وقد يتمدّد الوقوع في هذه الحماة إلى فتنة هوجاء، يؤجج نارها الشيطان؛ الأمر الذي يوهن — إن لم تطفأ نار تلك الفتنة — بنية المجتمع، ويحول دون الإنجاز والتعاون على البر والتقوى.

وكل هذا — كما ذكرت آنفاً — في أهل الخير والصلاح من المؤمنين. أما الذين فسقوا، وخالفوا عن طريق أهل الإيمان وربما أعانوا الظالم على ظلمه إضافة إلى ظلم أنفسهم؛ فهؤلاء لهم شأن آخر.

وقد كان من توجيه النبي المعلم عليه الصلاة والسلام — وهو يقود عملية البناء المباركة على أنقاض جاهلية جهلاء دمّرت ما دمّرت في حياة الإنسان — ويرتفع بحامل الرسالة المسلم، إلى مستوى تلك العملية الكبرى، ما روى ابن ماجه بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أعظمك وأطيب ريحك، وما أعظم حرمتك، وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، حرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه، وإن يظنّ به إلا خيراً».

والحق أنه لم يكن بدعاً — والبداية ترقى بالمسلم إلى هذا المستوى من الحرمة والتكريم — أن تكون هي التي شهد العالم فيها أسمى لون من ألوان الحضارة، تضافرت على بنائها بصدق وإخلاص، تلك الجهود التي تميّز أصحابها — في ظل أن جنسية المسلم عقيدته — بصدق الانتماء، وانصبّت في قنواتها كل الكفايات من البناء المؤمنين، حيث صفاء العقيدة والجهاد في سبيل الله — بشتى صوره — وكرامة الإنسان.

البناء.. ومؤشرات في سورة الحجرات

« ٨ »

هذه عودة إلى اصطحاب الآية الثانية عشرة – أو مفتتحها – من سورة الحجرات، في رغبة لاستلهم ما يمكن مما تشرق به من عطاء كريم فيما نحن بسبيله من الإشارة إلى ما حفل به المنهج القرآن من العناية بعسن التخلُّق المنضبط بضوابط الشريعة المطهرة واجتناب كل ما من شأنه التجافي عن معاسن السلوك ومكارم الأخلاق.

وميدان السلوك – عموماً – والعلاقات الاجتماعية: من أوضح الميادين التي تبدو فيها ضرورة هذا الانضباط، حفاظاً على بنية المجتمع أن ينالها أذى التخلخل، والمنافرة بين الأفراد الذي هم بناته ومنهم يتكوّن، والحيولة دونه ودون عوامل الضعف أن تتسرب إليه.

ولقد يتأكد ذلك أكثر وأكثر؛ إذا كنا على دُكرٍ من أن سورة الحجرات التي نسعد باصطحاب واحدة من أيها، تنزلت والمجتمع الأمتل يخطو على طريق البناء ضمن ملابسات ورواسب لا تخفى، والحياة نمور بالحركة والوقائع المتجددة يوماً بعد يوم.

والآية التي نعني هي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الآية. وقد كانت لنا وقفة قريبة عند هذا المطلع منها حيث الأمر الجازم باجتنب كثير من الظن – والخطاب بالأمر للمؤمنين – فالواجب اجتنب كثير من الظن بأهل الإيمان المستقيمين على طاعة الله، لأن بعض الظن مؤثم – يوقع في الإثم – وما أكثرها يمثث الشيطان بمقول البعض فيسيئون الظن بأهل الخير دون تثبُّت أو تبين، وقد يَغْضُون الطرف عن الْمَسَاقِ الخارجين على نهج

الاستقامة، غفلة، أو تهيباً من الضرر في دنيا من يسيه الظن بهم. وهذا ماخلف لما يقتضيه الأمر من الوجوب في الآية – لأن الأمر في الأرض للوجوب، ولا يصرف عنه إلا بقرينة، ولا قرينة، بل قرينة «إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ» تقرر ذلك الوجوب وتؤكد؛ فبعض الظن موقع في الإثم وهو كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين – وهو اليوم سلاح من أسلحة المواجهة بين أهل الحق وأهل الباطل – فما بالك إذا كان هذا الظن – في الأصل – متسع الجوانب وشعب التنقيب وتتبع المورثات، أما الذين ينقادون للهوى وما يزين لهم شياطين الإنس والجن من الافتئات على الحق وأهله؛ فأولئك لهم شأن آخر، وليسوا مغبين – والله أعلم – بهذا النهي عن اجتناب كثير من الظن لأن بعض الظن إثم، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل.

هذا؛ وقد قادنا الحديث عن هذه النقطة في الآية الكريمة إلى ما لا بد من التذكير به وهو ما جاء عند ابن ماجه في السنن من رواية عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، من تقرير النبي ﷺ لحرمة المؤمن عند الله وأنها أعظم حرمة من الكعبة المشرفة بيته المعظم، ماله ودمه، فالواجب أن لا يظن به إلا خيراً، وفي ذلك نوع بيان نبوي للآية الكريمة.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً».

يقول هذا عمر، وهو يعيش الحياة بكل شراشره في تعاون مع إخوانه على إحكام الواقع الجديد؛ فالأصل أن تظن الخير بما يقوله أخوك المؤمن، ولا يمد عقلك عن ذلك، ما دمت تجد لكلمته في الخير محملاً.

يوجه الخليفة الثاني هذا التوجيه، ولا يرتاب مرتاب في أنه كان – والحمد لله – على إرث من إرث النبوة فيما يزاوِل مهمة البناء المتكامل، والسهر على أن يكون الفرد والمجتمع على خير مستوى من القوة والسلامة، في توازن أقدر الجماعة المسلمة – بعمون الله – مع تحقيق الوجود الذاتي على مواجهة التحديات، وإنجاز

الفتوحات العظيمة - التي كان بابها فتح القلوب لدعوة الخير - تلك الفتوحات التي حملت رسالة الإسلام عقيدةً وشريعةً وسلوكاً إلى كثير من بقاع العالم، ورضي الناس بحكمها عن طمأنينة واقتناع.

ولا تخفى دلالة تلك الكلمات من عمر رضي الله عنه على فقهه الدقيق لما تتركه الملاقاة بين المؤمن وأخيه المؤمن من أثر فيما هو بسبيله من إنجاز ذلك البناء العظيم، حتى وصل إلى التنبه على الكلمة تقال وكيف يكون الحكم عليها؛ وذلك قبس من تدبره لكتاب الله، وفهمه عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولسنا هنا في معرض الكلمة البين سوؤها، ومعروف نهج صاحبها، في الإساءة، أو ابتغاء المسلمين الفتنة؛ فتلك قضية أخرى - خصوصاً وأن الضوابط التي نحن بصدها في نور الكلمات الهاديات تشمل كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ذكراً كان أو أنثى من المكفين، ولكننا في معرض الكلمة أو الفعل التي تجد لها في الخير محملاً حين تحسن الظن، دونما غفلة، ولا جهل بواقع الحال، وذلك كائن في مجتمع ينقاد لمقيدة التوحيد، وتحكم سلوك أفراد أخوة الإيمان والمعمل لمرضاة الله.

وقد أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناهسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكوّنوا عباد الله إخواناً، ورواه مالك في «الموطأ».

وروى الطبراني عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة، والحسد، وسوء الظن»، فقال رجل: وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض».

من أجل هذا، كان واجباً أن يبدأ التفسير والإصلاح: من داخل النفس، لأن ذلك إذا حصل من داخل النفس، فانشرح الصدر للإيمان وانفسح، كان انعكاس ذلك على التصور والسلوك، وفق ما هو من مقتضيات الإيمان جميعاً.

وذلكم ما يراه المتبصر في المنهج الرياني، وفي الواقع الذي يغمر بضياؤه المؤمنين طالباً للعهد المكي، الذي كان قياد المجتمع فيه بيد العدو، فكان التركيز على بناء الإنسان المسلم من داخله وإعداده للمرحلة القادمة. وظل هذا الطابع مستمراً في العهد المدني؛ لأن الحاجة لليقظة الداخلية وتنمية الانبعاث المستتير من داخل النفس تظل قائمة، وقد تكون أشد عندما تبدأ مرحلة العمل الجاد تماماً وجهاداً والتزاماً بالأحكام...

يكشف عن ذلك دائماً ما تكررت الإشارة إليه فيما سبق، من الارتباط الوثيق بين العقيدة التي لها ما لها من الحق في واقع الفرد والجماعة وحركتهم في بناء الحياة، وبين السلوك، هذا الارتباط الذي يقرره ويؤكد تصدير الخطاب بالتكاليف غالباً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أو ما يؤدي الفرض نفسه من إشعار المسلم والمسلمة بأن العمل بالتكاليف من مقتضيات الإيمان.

وما نحن بصدد من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ جارٍ على هذا السنن؛ فالمؤمن — بوصفه مؤمناً — واجب عليه اجتناب كثير من الظن، لما أن بعض الظن يكون إثماً محضاً، أو مؤثماً موقفاً في الإثم، والمؤمن — وهو — ينقاد من عقيدته، ويراقب ربه عز وجل، يقدر كلمة الإثم أو المؤثم قدرها، فيحاذر أن يتجاوز إلى ما فيه الإثم أو ما هو سبيل إليه — وما أكثر تسويلات النفس والشيطان.

لذا يفترض بهذا المؤمن أن يحتاط لنفسه، فيجتنب كثيراً من الظن بأهل الإيمان والاستقامة، لكيلا يقع فيما هو إثم محض، وهذا كثير — كما سلف من قول العلماء — كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين. قالوا: وهم كثير بخلافه بالفساق منهم، فلا إثم فيه في نحو ما يظهر منهم.

وبعد: فإن عنوان التوفيق في اليقظة الإسلامية، وتبشير استمرارها في صعود على الطريق المأمونة: أن يكون جيل التحويل واستئناف البناء المبتقى من جديد، على قدر لا يُعدُّ من الوثوق بالمنهج الذي قدَّمه القرآن — وهو كلام الله المبرراً من الخطأ بَلَّةً الباطل — وأوضح ملامحه قولاً وعملاً ومزاولة لشؤون الحياة بشتى ميادينها الخيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي كانت سيرته المعطرة ترجماناً عملياً محكماً لما دعا إليه وهو يبلغ رسالة السماء إلى الناس.

المنهج والعلاج على صعيد البناء

البناء وسورة الحجرات

« ٩ »

من سمات المنهج الرياني في القرآن الكريم: ما يرى الناظر المتدبر من ذلك الشمول الذي جعل المنهج لا يتقاصر – ولله المثل الأعلى – عن ميدان ما، وهو يوجه حركة البناء للفرد والجماعة في ميدان آخر، وكما كانت الممارسة الفعلية للعمل بدين الإسلام أسلوباً فذاً من أساليب البناء؛ إذ لم يعد الفكر وحده في الساحة ولكن شاركه – على صور متجددة – العمل نفسه الذي يدعو إليه الفكر وهذا من أوضح أمثلة الشمول وسبحان الحكيم الخبير.

وتطهير الجزيرة العربية من أدران الشرك والجاهلية، وما هو منهما بسبب، من خلال المعارك المتوالية – التي صعبت الدعوة إلى الله بالحجة والإقناع –، وما كانت تحتاجه من صبر ومصابرة ومرابطة في سبيل الله، وبذل للأموال والأنفس، كل أولئك لم يحلّ دون توجيه المسلمين إلى الشجاعة في النقد الذاتي مثلاً وتقويم التحركات، ما كان صواباً منها وما كان خطأ..

كما لم يحلّ دون التقبیه على ترابط حلقات التاريخ، ووجوب الانتفاع بذلك، والتوجيه المتكرر إلى الاعتبار بالماضين، وكذلك لم يحلّ ذلك دون المتابعة الدقيقة للسلوك؛ كالذي نرى في سورة الحجرات؛ شأن المتابعة الدقيقة أيضاً في تطبيق شريعة الله – ولست هنا بسبيل الاستيماب – وحسبي أن أشير إلى أن جماع ذلك كله: أن يكون المجتمع الذي يُبنى على هدي دعوة الإسلام، ترجمة عملية حيّة لما دعت إليه الرسالة الخاتمة التي تنزلت على محمد عليه الصلاة والسلام، ويلفها

بأمانة إلى الناس مبيناً كل ما يجب بهانه من القرآن الكريم، والتي تُسلم من يأخذونها بقوة وأمانة هي التطبيق، إلى التمكين في الأرض، وعمارتها بما ينفعهم، وينفع الآخرين، كما تسلمهم إلى سعادة الدارين، فهم بالفن سعادة الدنيا، فائزون بمَرْضاة الله وجنة عرضها السماوات والأرض يوم يقوم الأشهاد.

وهي سورة الحجرات - كما أسلفنا - عناية بالغة بالسلوك تجنب - المجتمع ويلات الفرقة والتفكك، وتساعد على نموه وازدهاره؛ لما أن بُناته يتعاونون بثقة متبادلة على الخير، والكل أمين على دمه وماله وعرضه - موطن المدح والذم من الإنسان -.

وما نحن أولاء نتابع الرحلة المباركة مع السورة المشار إليها والآية الثانية عشر منها وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

ولقد صحبنا الآية في صفحات قريبات سلفت، وألقينا عصا التسيار عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

والتجسس يطلق في الشر، ومنه الجاسوس لأنه يتتبع الأخبار للأذى، ويفحص عنه بواطن الأمور. والنهي عنه واضح في الآية؛ فهو فعل حرام ينمي سوء الظن، ويفسد العلاقات، وقد يوقع البريء فيما هو تهمة باطله ومحض افتراء، ويجعل الناس قلقين على مصيرهم بسببه، ناهيك عما يفسد من النفوس، ويعدم من الثقة بين الإخوة لأنه يفرق بين الصديق وصديقه والأخ وأخيه؛ إذ يبيع الجاسوس القيم الرقيقة بدراهم معدودة ويكاد يفقد إنسانيته والعياذ بالله. وقد روى أبو داود أحمد عن أبي أمامة وغيره عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم».

وهذا لون من ألوان البيان للآية يشير إلى واحدة من أسوأ صور التجسس وهي التي تكون بأمر من الحاكم: أما الآية الكريمة: فجاء النهي فيها عاماً حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ والنهي للتحريم: أي حرام عليكم أن يتجسس بعضكم على بعض فيتبعه تتبع تفتيش وتقيب، والجاسوس سمي جاسوساً؛ لأنه يتتبع الأخبار والأحاديث عند الناس ويفحص عن بواطن الأمور بسوء نية.

أما التحسس بالحاء: فيكون غالباً في الخير، كما قال سبحانه على لسان يعقوب عليه السلام في خطاب لأولاده: ﴿يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقد يستعمل كل من التجسس والتحسس فيما هو مستكر؛ وقد مر بنا من قبل ما روى مالك في الموطأ والبخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً» وقد روى ابن أبي حاتم عن الأوزاعي رحمه الله: «التجسس: البحث عن الشيء، والتحسس: استماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم، والتدابير: الصَّرم».

والتنافس المنهي عنه هو التنافس المؤذي الذي لا تحكمه ضوابط الشريعة وأخلاق الإسلام، أما التنافس في الخير: فمطلوب ومرغَّب فيه.

إن العلاج العملي لما يشكو منه المسلمون في مجتمعاتهم وبيئاتهم المختلفة من سلوك يعوق التعاون والإنجاز، وقد يعطل بعض الجوانب في مسيرة البناء، إن هذا العلاج كائن في إحلال المنهج الرياني مكانه اللائق على صعيد التربية والإعداد والسلوك، بدهة وتوجيه إيماني سليم.



سورة الحجرات — وكلمات أخرى في البناء والمنهج

« ١٠ »

ليس من مكرور القول أن نشير مرة بعد مرة، إلى أن عناية القرآن حتى بالجزئيات من السلوك، وتبصير المؤمنين بطبيعة العلاقة بين الإيمان وبين هذا السلوك؛ كالذي نرى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ الآية: دليل واضح — والله أعلم — على ما يرمي إليه المنهج الرياني، وهو من عند الله العليم علماً محيطاً بما يصلح عباده.. أن يكون المجتمع الذي يبنيه المسلمون على هدي دعوة الحق والخير، ذلك المجتمع النظيف، الذي لا تطفئ فيه الأهواء، ولا يرتفع بين جنباته لواء الانحراف والدخل الذي يصيب بعض النفوس.

المجتمع الذي يضم إلى قدرته الثقافية والاقتصادية والسياسية.. سلامة البنية الاجتماعية، والتسامي في علاقة الأفراد بعضهم ببعض، في أي حلقة من حلقات التعامل، وهم يعملون أعباء البناء على أنقاض الجاهلية علماً وعملاً وجهاداً وصبراً على لأواء الطريق متعاونين؛ لأنه كلهم منقادون للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي جمع الله عليها قلوبهم وآلف على نورها بينهم، مخلصون في ابتغاء مرضاة الله والنجاة يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

وفي الوقت نفسه: ترى هم الواحد منهم أن لا يصدر في تصرفاته — ولا ندعي لأحد العصمة بعد خاتم النبيين — ما دق منها أو جل — إلا عن الحق الذي نزل به الكتاب، ويئنه صاحب الرسالة محمد عليه الصلاة والسلام؛ غير ناس أن رياض الأخوة الإيمانية الذي يتحرك الجميع في ظله، قد عقد أصبرته ربُّ العزة من فوق سبع سموات؛ فكان المسلمون بنعمة الله إخواناً.

ولعل من الأهمية بمكان: التنبيه على أن هذا الذي نقول، ليس تحليلاً في عالم من التجريد تستعصي فيه الأفكار على الواقع في حياة الفرد والجماعة والحاكم والمحكوم — كما يزعم أولئك الذين يصرفهم الباطل الذي يتمرغون فيه عن رؤية الحق الذي عند غيرهم — بل إن المجتمع الذي نُلَمَّح إليه، تبصره — وأنت تقرأ تاريخ هذه الأمة ودون زعم المصممة لأحد بمد النبيين كما ذكرت آنفاً — تبصره حقيقة واقع في دنيا الناس، فما أن خالطت بشاشة الإيمان القلوب، وأحبَّ القوم رسول الله أكثر مما يحبون أنفسهم، وآمنوا بنبي الأخرى إيماناً جعلهم كأنهم يرونه رأي عين، حتى رأيت من هؤلاء البررة المعبود المجاب وهم بشر من البشر ولكمهم آمنوا وصدقوا، وأحبوا رسولهم وجاهدوا صادقين، وكانت هجيرا هم رضى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وبذلك استطاع الرعيل الأول أن يقدموا للبشرية ما هو ترجمة عملية لما وجه إليه القرآن، وبينه قولاً وفعلأ وإقراراً وعلى صعيد الممارسة والتطبيق في البيت والمسجد والسوق وساحات التعامل بمختلف صورها في السلم والحرب: خاتم النبيين محمد ﷺ؛ وبذلك كانوا الجنود الأمناء الأوفياء لهذا الإسلام وهم يمارسون إنشاء الواقع الجديد المبرأ من أوضاع الوثنية والجاهلية وكل ما هو منهما بسبب قيادة نبيهم المصطفى وإمامهم المجتبى محمد عليه الصلاة والسلام. والخير باقٍ في هذه الأمة إن شاء الله.

وغير خاف أن آيات الكتاب الكريم، ومن ورائها بيان النبي عليه الصلاة والسلام، تجمع إلى التوجيه البين وتحديد معالم السلوك — في بيان لما يعقبه الالتزام أو عدمه من مآل ومصير — تجمع إلى ذلك كله، متابعة لكل خطوة، ورعاية على كل بادرة — هذا مع ما يكون من الوازع الداخلي — فما كان من ذلك صواباً: أقرته وأعانت عليه، وما كان خطأ قومته ودلَّت على طريق تصويبه، أو الإقلاق عنه.

هذه كلمات في المنهج دعت الضرورة إلى ما قد يبدو إطالة فيها، وددت أن أسوقها هنا؛ لأنها ذات نسب إلى تلك الملامح التي ترسمها معالم القرآن الكريم على هذه الساحة — ومن تلك الآيات التي نحوم حولها في سورة الحجرات — لصيغ التعامل، وطرائق السلوك في المجتمع القدوة الذي برز في دنيا البشرية وهي أشد ما تكون عطشاً إليه في تلك الحقبة من الزمان، بعد أن طال انتظارها منذ أمد بعيد .

وفي حديث موصول بالآية الثانية عشرة من سورة الحجرات التي سبقت الإشارة إليها نذكر ما جاء في تلك الآية الكريمة من قوله تعالى بعد الأمر اجتنب كثير من الظن، والنهي عن التجسس: ﴿وَلَا يَقْبِضْ بِمُضْغِكُمْ بَعْضًا أَعْجَبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مِمَّا فَكَرَهُهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ .

ولا يخفى ما في هذا النص من التحريم القاطع للفتية التي هي: ذكر المؤمن أخاه المؤمن — كما بين الرسول ﷺ — بما يكره وإن كان منه، والمفروض بالمؤمن أن يهزه النهي في القرآن والسنة من الأعماق، فيخاف على نفسه الوقوع فيما حرم الله ورسوله، ويسمى جاهداً — ما وسعه الجهد — لاجتنب ذلك .

أخرج الإمام أبو داود في «السنن» بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قيل: يا رسول الله، ما الفتية؟ قال ﷺ: «تَكْرُكُ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قيل: أخرايت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول، فقد بهتته» .

وإذن: فما هو واقع ويقع في كثير من المجالس، والمجتمعات الضيقة والمتسمة في دنيا المسلمين، من التهاون بأمر الفتية والتفكه بها في المجالس بسهولة ويسر — وقد يكثر ذلك في بعض المجتمعات النسائية — إن هو إلا صورة من صور الغفلة وبلادة الحس، ومجاهرة الله ورسوله بالمخالفة عن أمر الشارع، والمأمول أن لا يكون من الأمراض المستعصية! .

وما من ريب في أن طريق المعالجة يبدأ من إيقاظ القلوب على كلمة الله، والحرص على مرضاته ومرضاة رسوله عليه الصلاة والسلام ومحاولة تحريك العقول؛ كيما تنتبه إلى المخاطر المرتقبة للتمرغ في حماة هذا الخلق السيء على صعيد الأفراد والجماعات، وما قد تحدث من فتن، حتى يكون الإقلاع عن ذلك، والتخلق بضدّه من أخلاق أهل الإيمان: سمة من سمات المسلم والمسلمة؛ وإن هذه المعالجة لا بد أن تكون هدفاً من أهداف المسجد والمدرسة والبيت والمؤسسات التربوية والإعلامية؛ لأن التماذي في الغفلة يعود على الفرد – قائماً كان بالقيبة أو راضياً بها – بسوء العاقبة عند الله إن لم تحصل التوبة النصوح، كما أن ذلك – كما ذكرت آنفاً – عامل مدمر من عوامل الهدم في البيت والمجتمع – وما أكثر الأدلة والوقائع على ذلك –.

من أجل هذا كان النهي الجازم عن القيبة: صورة من صور الدعوة القرآنية إلى صيانة حياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم مما يمكّر الصنف، ويحدث التخلخل، وقد يعود على عملية البناء في العديد من صورها بما لا تحمد عقباه.



مرة أخرى.. مع المنهج والبناء في سورة الحجرات

« ١١ »

ما يزال الحديث موصولاً بما كنا بسبيله من الاستئارة بما يدل عليه المعلم القرآني في الآية الثانية عشرة من سورة الحجرات وهي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

وهذا الحديث الموصول بما سبق: بآيته إلى ما تريد: كون هذه السورة سورة مدنية، تنزل آياتها على الرسول ﷺ، وهو يقود المجتمع الذي شاء الله أن يُبنى بقيادته وتوجيهه صلوات الله وسلامه عليه، بعد رحلة العهد المكي التي كان هياكل المجتمع فيها بمكة يستند إلى الجاهليين، وما أبعد منهجهم عن منهج الله الذي أشرقت به دعوة الإسلام؛ من هنا يمكن تقدير البناء الأخلاقي ضمن هذه الظروف والملابسات حق قدره، وتسويغ أن نكون على دقة في استذكار عناصره وفقراته.

وكما أسلفنا من قبل: يجيء النهي عن الغيبة في هذا البناء الأخلاقي المتوازن الشامل في أعقاب عدد من المناهي يبدو اجتنابها لصيقاً بسلامة البنية الأخلاقية لأصحاب رسول الله ﷺ مسلمين كانوا أو مسلمات، لأن المكلف هو الأساس في تطبيق الشريعة أحكامها وأخلاقها، وكان من تلك المنهيات النهي عن أن يظن بالمسلم ظن السوء، وعن التجسس طامّة الأذى، فإذا أضفنا ذلك إلى ما ورد في الآيات السابقة تبينت لنا ملامح منهج البناء الدقيق الذي لا يبارح حتى في الجزئيات، العناية بتعدد ما من شأنه على ساحة التوجيه، صيانة المجتمع عن الأذى بصيانة بُناته عن الوقوع فيما يتنافى مع الأخوة وصفاء القلوب، وتذليل الصعاب على طريق

البناء والنماء، لما أن الواحد منهم يُعدُّ ليكون القدوة في دنيا الناس. وبذلك يستمر نظيفاً معافى يترجم عن حقيقة الدين: في عقيدته وشريعته وأخلاق أبنائه، والقدرة من خلال هذا على المعطاء.

ولعل من الخير استذكار ما عرّف به رسول الله ﷺ تلك الخصلة المؤثمة – الغيبة – بأنها ذكر المؤمن أخاه بما يكره ولو كان ذلك موجوداً فيه. وقد أشرنا من قبل إلى أن الغيبة ذكر المسلم أخاه بما يكره، وذلك نص فيه النبي ﷺ ما جاء في الحديث الذي نصّ فيه النبي ﷺ على هذا التحديد، وهو يجيب سائلاً سأله عن الغيبة، وزاد على ذلك ببيان ما يكون بهتاً من المؤمن لأخيه حين يذكره بما ليس فيه ذلكم ما روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: «ذكرُك أخاك بما يكره» قال: «أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟» قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته، أي افترت عليه الكذب والعياذ بالله.

والحق أن الآية الكريمة، قد حملت ما يدل على تأكيد التحريم الجازم لهذا الانصراف الآثم الذي هو من العدوان على إنسانية الإنسان، لما يترتب عليه من مفساد، ليس أقلها تناثر القلوب، والفتنة الهدامة في بعض الأحيان. ناهيك عما يكون لذلك من انعكاسات سلبية على تحقيق ذلك الأمر العظيم الذي أمر به المسلمون من التعاون على البر والتقوى، بمفهوم البر الواسع وهو جماع كل خير، والتقوى بمفهومها الحقيقي الذي يسمو بها إلى مستوى أن تكون العنوان المشرق على الالتزام بالأحكام، والتخلق بأخلاق الإسلام، في جمع بين استقامة عمل الجوارح وعمل القلوب؛ وبذلك يكون التعاون على البر والتقوى تعاوناً لا يدع صغيرة ولا كبيرة مما هو من معدن الخير والفلاح – مهما تطور الزمن – للفرد والمجتمع والأمة إلا اتسمت له ساحة هذا التعاون، فإذا ذكرنا النهي عن التعاون على الإثم والعدوان كان ذلك أدعى لاكتمال الصورة المؤننة بالتكامل والشمول والتوازن بتكرار الإشارة إليه ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ومما يستوقف الناظر: هذه اللوحة من لمحات الإعجاز في تأكيد الصرف عن الغيبة: ما انضم إلى النهي الذي هو للتحريم، من تلك الصورة الصارخة المنفرة من ذلك الخلق الذميمة أشد التنفير!!.

حيث شبه الله الغيبة بأكل لحم الإنسان الميت، بل بأكل الإنسان لحم أخيه ميتاً، فهو لحم إنسان، وهذا الإنسان أخوه، وفي الوقت نفسه هو ميت ﴿أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: أي كما تكرهون هذا — وهو على هذه الصفات الثلاث — طبعاً، فأكروهوا الغيبة شرعاً وهذا أمر في غاية التنفير؛ فكان الشذوذ في أكل لحم الأخ ميتاً، يوضح الشذوذ في الغيبة التي هي هذا العدوان المعنوي المقيت المستكره. وحسبك أن الله نهى عن ذلك وحرمه!!.

وفي سيرة الرسول ﷺ وهي التطبيق العملي لشرعة الإسلام: ما يلقي مزيداً من الضوء على هذه القضية وحجمها في البناء الأخلاقي؛ فقد روى أبو داود في «السنن» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: «حسبك من صفة — تعني قصرها — فقال رسول الله ﷺ: «نقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» قالت رضي الله عنها: وحكيت له إنساناً — حاولت تشبيهه — فقال: «ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا» ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

حكى الإنسان: فعل مثل فعله من حركة يكرهها أو غير ذلك.

وهي توجيه إلى إحكام البناء من داخل النفس كيما تستقيم الجوارح، ويصلح بمصالحها السلوك، ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

فإذا استتار القلب بالتقوى، فعمل العبد على وقاية نفسه من غضب الله وعذابه، قياماً بالطاعات، واجتناباً للمنهيات واستزادة من القربات — ومن عيونها الجهاد في سبيل الله — بصديق وجهه وإخلاص في الدين، ناهيك عن مراقبة الله وخشيته في السر والعلن، كان من وراء ذلك الخير الكثير الوفير في الدنيا والآخرة. والتقوى كما تنشئ الوازع الداخلي، تمنى الاستمرار في طريق السالكين الأوفياء بمهد الله

الأمناء على العمل بدينه بصدق وإخلاص؛ ذلك بأنها تصبح ملكة عند المسلم تستثير تصرفاته بنورها بدون تكلف. الأمر الذي يضمن استمرار ذلك الوازع النفسي من الداخل ونماء وقوته.

والله تعالى تَوَّابٌ - وهذه صيغة مبالغة دليل عظيم الفضل والإحسان - على عباده يتوب على من تاب منهم التوبة النصوح، رحيم بهم، يدلهم على الخير ويهديهم إلى ما فيه سعادة الدارين.

ولكم يريح المربون أنفسهم، ويوفرون للمجتمع كثيراً من الطاقات المهدرة، إذا عملوا على إحكام البناء على التقوى وحسن الصلة بمعالم الكتاب العزيز وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، فيما تهدي إليه على كل الأصعدة، ومن ذلك سعادة الدنيا والآخرة.



وفقات مع آيات البناء الذاتية.. وعدم الوقوع في التقليد الأعمى وسورة النساء

التالي لسورة النساء، يقرأ فيما يقرأ قول الله تعالى في الآية السادسة والأربعين: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْرَبَ وَلَكِن لَّمْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقد جئنا على ذكر هذه الآية الكريمة بإشارة عجلى عند الحديث عن عطاء المعلم القرآني في الآيتين الرابعة بعد المائة والخامسة بعد المائة من سورة البقرة وهما قول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

وقد أدير الحديث المشار إليه حينذاك: على تحرير المسلم الذي أؤتمن على بناء المجتمع المسلم من التبعية وتقليد اليهود في منهجه الفكري والسلوك، حتى في قول هؤلاء اليهود (راعنا) خطاباً للنبي ﷺ زاعمين أنهم يريدون بها راعنا ستملك، والواقع أنهم يستخدمونها مصطلحاً يريدون به الرعونة أو ما هو أشد منها سباً للنبي عليه الصلاة والسلام وإيذاء للمسلمين. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ فكان هذا ضماناً وقائياً من التقليد وذوبان الفرد والجماعة في مصطلح أعداء الله والإنسان، وكان في الوقت نفسه وضماً للمسلمين على المحجة ذاتية وتميزاً، الأمر الذي يضمن سلامة المنهج حتى تكون الكلمة التي يخاطبون بها رسول الله ﷺ والتي يريدون بها أن يُرعى بهم

سمعه ويعينهم أكثر وأكثر على وعي ما يقول: كلمة خالصة من الشوائب وهي كلمة (انظرونا) بدلاً من كلمة (راعنا) التي كان اليهود عليهم لعائن الله وغضبه يريدون بها المساءة والإيذاء. وهكذا جاء النهي عن قول راعنا، واتبع بالأمر بقول انظرونا وختمت الآية بتهديد الكفرة بما يستحقون من العذاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١:١٤).

وأفصحت الآية التي تلتها — كما أسلفنا — عن أن الكفار سواء أكانوا أهل كتاب أو مشركين لا يريدون شيئاً من الخير للمسلمين، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وتتمية الشعور بهذه الحقيقة ضرورة لسلامة البناء عند الفرد والجماعة، لأن الواقع يدل على أن هذه الحقيقة قائمة ثابتة تتجاوز عصر النبوة الذي كان فيه سبب النزول ووعي الأمة لها: يعين في علاج جانب خطير من هذا الواقع الأليم في علاقتهم بأعداء الله وبخاصة اليهود. إذ إن القرآن نبه بما لا يدع زيادة لمستزيد على ما يجب التنبه إليه فيهم.

قادني إلى التذكير بهذا ما قصدت إليه من الإشارة إلى أن الآية السادسة والأربعين من سورة النساء والتي استهل بها حديث اليوم، وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ﴾ الآية حملت فيما حملت من العطاء تفصيل ما أجملته الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة بشأن كلمة (راعنا) فكشفت عن عدد من المساوئ التي تبيى عن منهج سوء متكامل عند اليهود في تفكيرهم وسلوكهم مع النبي ﷺ والمسلمين، ومنها سوء استخدامهم للكلمة (راعنا). إذ إنهم حتى في الكلمة يقولونها، ينأى بهم الانحراف عن أن تكون كلمة ذات مدلول طيب، فيتجاوزون ذلك إلى ما فيه سوء القصد وإرواء الغليل من الحقد الدفين والمكر السيئ ولا يحيط المكر السيئ إلا بأهله.

هذا شيء من الظاهر، وما يخفونه من الحقد الذي يمتلج في الصدور: أكبر وأشد مرارة، وتبارك ربنا الذي يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون إذ يقول في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْيَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

والى حلقة قادمة نتابع فيها تجلية هذه النقطة بالغة الأهمية!!



الواقع والبناء.. وزيادة اليقين بأن القرآن من عند الله وسورتا البقرة والنساء

« ١ »

مما يزيد يقين المؤمن بأن الكتاب العزيز كلام الله تبارك وتعالى: أنك حين تقرأ ما تقرأ من آية: تُحسُّ ارتباط المعنى – في كثير من الأحيان – بسبب النزول، وحين يمتد بصرك إلى الواقع الذي تعيشه أمتنا: تجد كأن تلكم الآيات الكريمات تنزل اليوم على هذا الواقع، كيما تأخذ بيد المسلمين إلى ساحل النجاة والقدرة على تجاوز الصعاب وإنشاء واقع جديد يتواءم مع العقيدة التي يحملون، والرسالة الخاتمة التي بها يؤمنون. والآيات التي سمعنا بها فيما أسلفنا من قريب، وما قبله وهي الآيات الرابعة بعد المائة والخامسة بعد المائة من سورة البقرة والآية السادسة والأربعون من سورة النساء والتي تتعلق بموقف أعداء الله – واليهود منهم بخاصة – من المسلمين: واحد من الأدلة الكثيرة المستفيضة على ما نقول.

وفي حديث موصول بما كنا بصددده في هذا الباب: أود أن أعود إلى الكشف عن أن الإجمال فيما جاء في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢: ١٨) قد جاء بيانه في سورة النساء: ذلكم قوله جلت حكمته في الآية السادسة والأربعين: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْرَبَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٤: ٦١) وحين لا نتخلى عن النظرة إلى الواقع عند الكلام عن البناء وضرورة الإحسان فيه على جميع الأصعدة وفي كل الميادين، ضمنا

لسلامة الموارد البشرية والاقتصادية والثقافية وغيرها ووضع ذلك كله في خدمة البناء بعلم وموضوعية... حين لا نتخلى عن النظرة إلى الواقع على هذه الشاكلة، يكون من الضرورة بمكان تبين مواقع الخطأ على هدي ما جاء به الكتاب العزيز وبينته السنة المظهرية، خصوصاً وأن العلم والمبرة بالواقع وحسن الإفادة منها، واستخلاص النتائج التي ترقبت على المقدمات: من المقاصد الكريمة لهذين المصدرين العظيمين الأساسيين في شرعة الإسلام وبناء الكيان الذاتي للأمة.

وعلى هدي هذه الحقيقة ننظر في الآية السادسة والأربعين من سورة النساء لنرى أنها — كما أشرنا من قبل — بينت ما جاء في الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة، ففي سورة البقرة نهي المؤمنون عن قول (راعنا) وأمرنا أن يقولوا بدلاً عنها: (انظرونا) وأن يسمعوهم سماع طاعة ووعي وتطبيق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾. وفي سورة النساء وصف اليهود بأنهم يأتون عدداً من القبايح منها قولهم لرسول الله ﷺ (راعنا) ليأ بالسننهم وطعننا في الدين.

فهم يحرفون الكلم عن مواضعه فيؤولون كلام الله على غير تأويله ويفسرونه وفق ما تمليه أهواؤهم، وبدلاً من أن يسمعوهم ويطيعوا فيقولوا: سمعنا وأطعنا: يسمعون ويعصون ويقولون: سمعنا وعصينا، وسيثبون إلى رسول الله أكثر وأكثر فيقولون: عليهم لعائن الله و غضبه —: اسمع غير مسمع أي اسمع لا سمعت، كما يقولون: (راعنا) ويريدون بها الرعونة أو ما هو أسوأ سباً للنبي عليه الصلاة والسلام.

والى أن تلتقي على متابعة ذلك أود أن ألقت النظر إلى أن الوقائع المتجددة فيما نرى ونسمع كل يوم عما يصنعه اليهود وأعوانهم —: يفترض أن يشد أهل الوعي والتأثير من أبناء هذه الأمة إلى أن الأمر جد لا هزل فيه، وأن مسلمات القرآن يجب أن تأخذ حجمها الطبيعي عند البناء الذي نريده قنطرة للواقع الأمثل الذي تكون فيه الأمة صاحبة الكلمة في تقرير المصير، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس عن هذا غافلون.

سورتا البقرة والنساء.. ووقفات مع آيات

« ٢ »

سلامة البنية الثقافية عند المسلم وما يقتضيه التكامل في منهج التفكير، يوجب أن تؤخذ القضية من مصادرها في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، كما هي دون زيادة أو نقص، مع الانتفاع بمعرفة الواقع كما هو.

ولقد كان من عناية القرآن ببناء شخصية المسلم: أن عمل على تنمية شعوره بالحقيقة بعد وعيها كاملة في شأن علاقته باليهود ويفرهم من أعداء الله والإنسان.

وعلى هذه الساحة كانت لنا من قريب وقفة عند واحدة من أي سورة النساء وهي الآية السادسة والأربعون المبدوعة بقوله جل ذكره: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ الآية والتي أشرنا إلى أن فيها بياناً لما أجمل في سورة البقرة في شأن كلمة (راعنا) من قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٤٥﴾.

والواقع أن هداية الكتاب المميز فيما يمتد من رواثها على الإنسان أياً كان هذا الإنسان، فتدله على الطريق وتوضح له المعالم.. هذه الهداية أشارت في ختام الآية المشار إليها من سورة النساء إلى أن اليهود لو عدلوا عن الانحراف وسلكوا السبيل السوي فيما يقولون ويفعلون، لكان خيراً لهم ولكن حلت عليهم اللعنة بسبب عنادهم في الكفر، فلا يؤمنون إلا قليلاً. ولنعد إلى ذكر الآية الكريمة ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ سَمِعَ وَرَاعِنَا يَا بَالِغِيهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْرَبَ وَلَكِنْ لَمْنَهُمْ اللَّهُ يَكْفُرْهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٦﴾.

هكذا يجيء الحديث عن كلمة «راعنا» التي نُهي المسلمون عن أن يقولوها، وأمرُوا أن يقولوا بدلاً منها (انظرونا) لكيلا يقوموا في حمأة التقليد الأعمى ويذوب المجتمع في مصطلحات الآخرين وانعكاساتها الهدامة.. يجيء الحديث عنها في بيان تقصيلي يشعر أنهم كانوا يقولونها خطاباً للرسول ﷺ لياً بالسنتهم وطعناً في الدين، فليعدل المسلمون عنها إلى غيرها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى دلت الآية — وهذا ما يجب أن تتفتح عليه الأعين عند البناء والإعداد — أن كلمة (راعنا) التي يقولونها لياً بالسنتهم وطعناً في الدين: جاءت في سلك مجموعة من القباحات هي تحريف اليهود كلام الله عن موضعه، وقولهم: سمعنا وعصينا، وإساءتهم لرسول الله بقولهم. (اسمع غير مسمع) ومقصودهم الدعاء عليه إذ المراد: اسمع لا سمعت..

وإذن: فالقضية قضية منهج متكامل يتمم بهذه القباحة — والعياذ بالله — والتناسب واضح بين كل فقرة وأخرى من فقراته. ويحين التنبيه بمد ذلك على أن هؤلاء اليهود لو عدلوا عن هذا المنهج لكان خيراً لهم وأقوم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ ولكنه الطرد من رحمة الله، حلّ عليهم بإصرارهم على الجنوح عن الصراط المستقيم واستجابتهم للحقد يفلى في صدورهم.

فهل نكون على ذكر من ذلك ونحن نتطلع إلى مستقبل أفضل ونحاول لمّ الشعث ونبذ التخلف كيما نكون أقدر على إعادة الأمور إلى نصابها؟ نسأل الله العون.



التفسير.. واحكام بنى المجتمع والتواؤم بين العهدين المكي والمدني في ذلك سورتا آل عمران والحجر « ١ »

هذه عودة إلى تلك الآيات الكريمة التي جرت الإشارة إليها في كلمات سلفت، من أجل متابعة الانتقاء بدلالة المعلم القرآني فيها.

والآيات هي قوله تعالى في سورة «الحجر» المكية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ٨٦ ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ٨٨ ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ٨٩﴾ وقوله جل وعلا في سورة «آل عمران» المدنية: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَبِثَ لَكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفُتُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَرَكَ عَلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٦٠﴾.

فالنظرة المتعدبة في هذه الآيات المكي منها والمدني وأمثالها مع ما جاء من بيانها في السنة المطهرة تؤكد حقيقتين اثنتين ما بدَّ من الإشارة إليهما فيما تعملان من عمل هادٍ بناءٍ في نطق الفرد والجماعة.

أولاهما – مكانة المنهج الخلقي في رسالة الإسلام، وبناء الفرد والمجتمع على قيم هذه الرسالة ومبادئها، إذ إن القضية بدأت من العهد المكي واستمرت إلى العهد المدني؛ فالأخلاق في العهد المكي: حيث الاستعلاء المتجدد ومحاولة فتن المؤمنين عن

الدين: لبنة كريمة من لبنات البناء وتتمية الفاعلية عند تلك الفئة المؤمنة التي كان عليها أن تصارع الشرك وأهله وترتاد للإنسان - على المستوى العالمي - بدءاً من الجزيرة المربية - طريقة إلى التخيير وتجاوز ما هو واقع به من التمزق والصراع.

والأخلاق في العهد المدني: حيث شرع القتال واتجهت واجبات البناء اتجهاً آخر من الإمساك بالزمام، والمسؤولية عن صياغة الواقع الجديد، الذي ينتقل بالمبادئ والقيم في تنظيم شؤون الإنسان والحياة إلى الوجود العملي في كل ميدان وعلى كل صعيد.. هذه الأخلاق في العهد المدني بدت أيضاً لبنة كريمة من لبنات البناء، وأساساً من أسس التنمية للطاقة البشرية والاجتماعية.. وانعكاس ذلك على كل ميادين الحياة في الاقتصاد والثقافة وإنشاء القوة الذاتية للأمة: واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

وإذن: فهناك نوع من التكامل بين المهددين المكي والمدني في منهج الأخلاق والسلوك، فحين لم يكن زمام الصياغة للمجتمع وينائه على الشكل الذي يتبني بين المسلمين: كانت العناية ببناء الإنسان على العقيدة وتطويع الأخلاق والسلوك لمقتضياتها، وذلك ما مهد بشكل طبيعي للبناء على شموه واستيعابه لحملات السلم والحرب في العهد المدني.

وحين جاء العهد المدني - والبناء على العقيدة وتطويع الأخلاق والسلوك لها مستمر -: شمر أولئك الذين أحكم بناؤهم على النهج المشار إليه وشرعوا بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام بإنشاء الواقع الذي يمليه الإسلام على صعيد الفرد والمجتمع بل والأمة بشكل أعم. وتلكم الأخلاق ثابتة ثبات الآيات والأحاديث المرتبطة بها، كما سنشير في حديث قادم إن شاء الله. والمهم أن يصدق المسلمون في المودة إلى تلك المنابع الخيرة وصياغة الواقع على هديها وتوفيق الله كائن ما صدقت النيات، واستقام السلوك، وعزم جند الحق عزهم مع الوفاء بما عاهدوا الله عليه فلم ييخلوا بالعطاء وكانوا جد شاكرين لكل نعماء.

التغيير والتكامل.. في منح الأخلاق والسلوك وحقيقة أخرى على طريق البناء آل عمران والحجر « ٢ »

ما كان لعامل أن يماري في أن الطاقة البشرية التي بنتها يد محمد ﷺ الصناعات في ضوء ما جاء به القرآن وأشرفت به معالمة الخيرة المباركة: قد استطاعت – بعون الله – أن تمارس عملية البناء الكبرى على قواعد أخذت طابع العموم وقابلية الاستمرار، في تجاوز للحدود الإقليمية والزمنية.. ومنهج الأخلاق والسلوك جزء لا ينفصم عن تلك المقومات التي قدمت للإنسانية على صعيد الفرد والمجتمع، ما أن لو أخذت به، وانتهت السعادة في الدنيا والآخرة.

والآيات في سورتي الحجر وآل عمران – وأمثالها كثير – توحى بتكامل المنهج المشار إليه – كما أسلفنا في قول قريب – لأننا نرى الأخلاق في العهد المكي ونراها في العهد المدني، وفي كل منهما أخذت حجمها الذي يتسق مع سلامة العقيدة وتطويع الأخلاق والسلوك لمقتضياتها.

والآيات البيّنات هي قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** (٨٦) **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** (٨٧) **لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** (٨٨) **وقوله جل شأنه في سورة آل عمران خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَرَكْ عَلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** (١٥٩) **إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** (١٦٠)﴾.

هذا وقد وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول — من خلال الآيات في السورتين — على واحدة من حقيقتين وهي التكامل في منهج الأخلاق والسلوك في المهدين المكي والمدني وهو ما أسلفناه من قريب.

أما الحقيقة الثانية: فهي أن ما كان من صنيع رسول الله ﷺ في توظيف الأخلاق — وهي مرتبطة بالمقيدة — وإعطائها مكانها اللائق على طريق البناء الاجتماعي وإحكام التماسك في بنية المجتمع.. ما كان من ذلك واضح فيه أن منهج الأخلاق يتسم بالثبات، ثبات الحقيقة المرتبطة بالدين، فهو منهج لا يعرف النسبية والتذبذب بين المصالح، بعيداً عن سلامة السلوك.. النسبية التي تجعل ما يكون اليوم خلقاً مرغوباً فيه يدعى إليه.. خلقاً محظوراً في الفد يُرغب عنه وينفر منه، فهو فضيلة اليوم ولكنه رذيلة غداً، تتقاذف صاحبه أو أصعابه — كما نرى في أعداء الإسلام — المصالح النابئة من الهوى والأغراض التي لا تقيم وزناً للعق في ذاته، ولا للفضيلة كما هي بإطلاق. تقول هذا وجراحات الأمة لا تتفك تشعب دماً من صنيع أولئك الأعداء في دنيا الواقع حيث ما يسمى زوراً وبهتاناً بالأخلاق.

المنظمات الدولية تظل حبراً على ورق، إن لم تكن هناك قوة تحمي الحق من حيث هو حق، وتدافع عن الفضيلة من حيث هي فضيلة. وهذا ما يؤكد وجوب أن يكون للأمة مع منهجها في الأخلاق والسلوك: قوة تحمي الدعوة وتحرر المسلمين وديارهم من الطفلة والفاصبين «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» ومن الإعداد: البناء على المقيدة وحب الجهاد والاستشهاد، ومن الإعداد للقوة: أخذ الأسباب بالعلم التجريبي والاقتصاد وما إلى ذلك، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.



التغيير والبناء.. وعودة إلى آيات سورة الحجر

« ٣ »

نعود اليوم إلى آيات سورة الحجر بدءاً من الآية الخامسة والثمانين لنرى أن النبي ﷺ أمر بأن يصفح الصفح الجميل في آية وأمر بأن يخفض جناحه للمؤمنين في آية أخرى. ذلكم قوله تبارك وتعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَتْ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضِ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾».

المشركون — في المعهد المكي — يعملون على سلوك الأسباب التي يرون أنها تقضي على الدعوة في مهدها، ومن ذلك: الإيذاء المستمر لرسول الله ﷺ والمسلمين — على قلة عددهم — بالقول والفعل والافتراء وكل ما هو من ذلك بسبيل.. ويؤمر رسول الله ﷺ بأن يصفح عن هؤلاء المؤذنين من قومه الصفح الجميل، فيمرض عنهم إغراضاً لا جزع فيه.

ولقد عمل هذا الخلق عمله وأعطى نتائج الطيبة.. وبخاصة في تلكم الفترات التي كان يتسنى لبعض العقلاء أن ينتصروا على دواعي السلطان والهوى والتقليد الأعمى للأباء والأجداد، فيراجعوا أنفسهم ويروا أن الفضائل التي يتحلى بها رسول الله ﷺ وأصحابه من ورائه. جديرة بأن تسلمه قيادة الركب، وأن يكونوا من جنوده، فيسمعوا في عاجل أمرهم وأجله، ويجدوا ذواتهم بمد أن كانت ضائفة في كهوف الوشية والخرافة وما يعليه المرأفون، والمشموذون. ولقد ظل العفو والصفح الجميل، والصبر على الأذى، واحتمال ما لا تحتمله الجبال الرواسي من صنيع المشركين.. ظل ذلك كله يدين رسول الله ﷺ والفئة القليلة المؤمنة الصابرة طوال العهد المكي الذي استدام ثلاثة عشر عاماً بشهورها وأيامها ولياليها.

حتى إذا جاء الإذن من السماء بالقتال: نسخ وضع هذه الأخلاق في مواجهة أعداء الله الذين كان همهم وشغلهم الشاغل القضاء على الإسلام وأهله.. فحركة الإفتاء التي كانوا يحاولونها لا يصددها، ويفسخ لدعوة الله أن تنتشر في الأفاق إلا الجهاد الذي يصحبه ويسبقه ويلحقه دائماً الحوار الواعي الأمين، والعلم والتعليم، في مخاطبة موضوعية للعقل والقلب والفترة، ناهيك عن السلوك العملي الذي لا يتجافى عن القول، بل يؤيده ويكون صورة حية له. ها نحن أولاء نقرأ في سورة مدنية هي سورة الحج قول الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصُلُوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ٤١﴾.

وموعدنا – إن شاء الله – في متابعة قادمة نستلهم من خلالها بعضاً من عطاء المعلم القرآني في هذه الآيات، وكونها تمثل نهج المرحلة التي تلت مرحلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأمر الذي يدل على وجوب التعامل مع أعداء الحق باللفة المناسبة، دونما عدوان على الأخلاق، وجمل قول شاعرنا:

ووضع الندي في موضع السيف بالعلو مضرب كوضع السيف في موضع الندي
وفي واقع أمتنا وما تعاني في شتى البقاع: ما يدعو إلى وجوب تمثل هذه الحقائق وبخاصة عند المؤمنين على صنع القرار وتفيذه. ولله عاقبة الأمور.



التغيير والتكامل في منهج البناء وقبسات أخر من آيات الحج « ٤ »

وفاء بموعده قريب، أعود اليوم إلى متابعة ما سبق وفي الجمعية قبسات أخر من عطاء المعلم القرآني حول آيات كريمات من سورة الحج هي قول الله جلّت قدرته بدءاً من الآية التاسعة والثلاثين: ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَقَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ غَافِقٌ الْأُمُورِ ٤١﴾.

وجمهور العلماء على أن الآية الأولى هي أول آية نزلت بشأن الجهاد، حيث أذن الله للمسلمين بأن يقاتلوا في سبيله بعد أن ظلوا طوال العهد المكي وهم لا يؤذن لهم بقتال، وإنما هو الصبر والصفح واحتمال الأذى وضبط النفس قدر المستطاع. قال الحافظ ابن كثير: (قال الموهبي عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد).

وأخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾» قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. ورواه الإمام أحمد وزاد: قال ابن عباس: «وهي أول آية نزلت في القتال».

والحق أن هذه الآية - كما اشتملت على الإذن بالقتال لمن يقاتلون ويصدون عن طريق الهدى ويفتتقون عن دينهم: اشتملت على أمرين عظيمين آخرين: نشرير اليوم إلى واحد منهما وندع الآخر لما بعد إن شاء الله.

فأولهما - تعليل الإذن بالقتال: ببيان سببه (بأنهم ظلموا) بسبب أنهم ظلموا، وتمرية الظلم على هذه الشاكلة خلال رحلة البناء وارتداد السبيل الأمثل للإنسانية وهي سبيل التوحيد وأن تُعلن الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» إعلانها في الأرض.. تمرية الظلم على هذه الشاكلة خلال تلك الرحلة: أمر عظيم.. يكشف عما لهذا الانحراف العظيم، من آثار سيئة لا على الفرد فحسب بل على الجماعة عموماً: وفي الحديث القدسي الصحيح الذي رواه مسلم «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» فالفتنة المؤمنة في مكة ظلمت ظلماً شديداً وبقي عليها المشركون وتجاوزوا في معاملتها حتى أبسط ما توجبها الرجولة في معاملة الإنسان لأخيه الإنسان. ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢٩) إن بقاء السببية هذه (بأنهم ظلموا) تعطي الكثير الكثير على طريق البناء وتنمية المشاعر الصادقة عند المسلم، بأنه على الحق الذي ينكر الظلم ولا يرضى عن الجور، وأنه عندما يقاتل أعداء الله بعد ثلاثة عشر عاماً من تحمل الأذى والفتنة عن الدين، والصبر والمصابرة مع العفو والصفح: يمكن للعبد والمساواة والنصفة في الأرض، ويحول دون الظالمين أن يكون لهم الكلمة على عباد الله سبحانه وتعالى الذي حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرماً.



التغيير والوعي في منهج البناء... والآية التاسعة والثلاثون من سورة الحج

« ٥ »

هذه عودة إلى متابعة رحلتنا المجلى مع الآية التاسعة والثلاثين من سورة الحج التي أعلنت في أعقاب العهد المكي الإذن بجهاد أعداء الله والقتال في سبيله وهي قول الله جلّت حكمته: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩).

ولقد كان من عطاء هذه الآية على صعيد البناء الذاتي، والافتتاح بطبيعة الحركة التي يتحركها المسلم وهو يشق طريقه إلى الإصلاح والتغيير إلى ما هو الأفضل للإنسان بوصفه إنساناً أينما كان.

لقد كان من عطائها: أن الشق الأول منها حمل مع الإذن بالقتال تعليل هذا الإذن ببيان السبب فالسبب المباشر أن المؤمنين – على قلة عددهم – قد ظلموا والظلم هو التجاوز في الأصل.. قد ظلموا، فحصل التجاوز على الحريات والحقوق والحرمان، وانتهكت حتى أبسط قواعد التعامل والتعايش المشترك بينهم وبين المشركين. ثلاثة عشر عاماً تمضي في مكة والمصد عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام ومحاولة الفتنة عن الدين بشتى الأساليب كل ذلك قائم ليل نهار.. حتى انتهى الأمر بإخراج المؤمنين مهاجرين من ديارهم وأموالهم.

كان ذلك هو الأمر الأول مما أشرقت به الآية الكريمة وهي تمثل منعطفاً جذرياً في حياة المسلمين ودعوة الإسلام. وقد أشرنا إليه فيما سلف. أما الأمر الثاني – فهو ما يدل عليه ختام الآية الكريمة وهو شقها الثاني في قول الله جل وعز: ﴿وَإِنَّ

اللَّهُ عَلَىٰ نَعْرِهِمْ قَدِيرٌ». ألا إنها لمحة مضيئة مباركة من لمحات المنهج الرياني في البناء ودرس أي درس في تنمية الوعي عند المسلمين وبخاصة في المراحل الحاسمة، وما أشد احتياجنا إلى ذلك اليوم وكل يوم. أرأيت إلى هذا التأكيد بأن وباللام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَعْرِهِمْ قَدِيرٌ﴾. إنه سبحانه قادر على نصر عباده المؤمنين ورفع الظلم عنهم، والتمكين لهم في الأرض.. هكذا دون قتال.. ولكنه جل وعلا: أقام الحياة على سنن لا تتخلف وريط المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات، فهو يريد لعباده المؤمنين أن يُعدُّوا العدة، وأن يسلكوا سبيل التمكين ببذل الأموال والأنفس في سبيل الله.. إنه يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته.. ومن الطاعات العظيمة بذل الجهد قتالاً في سبيل الله، تحت راية الجهاد الخالص لإعلاء كلمة الله.

والآن أفلا يشاركوني القراء الرأي بأن ما حملته الآية الكريمة – على وجازتها – من الإذن بالقتال مع بيان السبب، والتوجيه إلى أن الله قادر على نصر عباده بلا قتال ولكن يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته. أفلا يشاركونني الرأي بأن الآية تحمل الكثير الكثير من توعية المسلمين وتبصيرهم بطريقهم، وبطبيعة المرحلة التي تمر بها الدعوة، وتجعلهم يدركون الأبعاد الحقيقية لهذا الإعلان الخطير على رأس العهد المدني بعد الهجرة.. وبأن المسلم عندما يخوض المعركة باذلاً ما استطاع من النفس أو المال والنفس يخوضها على بينة من أمره، قد تبصر بالفاية والوسيلة وليس رهنماً جامداً يقاد إلى ساحة القتال دون وعي ولا إدراك، إنه يبتغي الشهادة في سبيل الله ويقاتل امتثالاً لأمر الله فلا اعتداء ولا ظلم!!.

ثم إن في ذلك الخير كل الخير لبني الإنسان؛ ذلك ما أخبرت به الآية التي تلت آية الإذن بالعدل مباشرة وهي قول الله جل شأنه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ مَوَاقِعُ وَبِيعَ صُلُواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَصْرُنَّ اللَّهُ مِنْ يَمِينِهِ إِذْ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].



البناء.. والنقلة من الماضي إلى الحاضر

« ١ »

ما يقفنا عليه المعلم القرآني في سورة الأنعام وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَلَمْ نُعَلِّمِمْ هَٰؤُلَاءِ بِجَمَلٍ رِسَالَتَهُ سُبْحَٰبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (٦٢) وثيق الارتباط - من بعض الوجوه - بما جاء في سورة الفرقان كما يوحي السياق - من قول الله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَصَوْا عَنْرَٰ كِبَرًا﴾ (٢٦) [الفرقان: ٢٥].

وهو ارتباط بيان لنزعة نفسية جاهلية؛ فقد كشف الله عن حقيقة الموقف الجاهلي المعادي التابع من التراكم المنحرف في النفوس، وبين أن هذا يشير بوضوح إلى ظاهرة استكبارهم في أنفسهم وعتوهم الكبير، ثم توعدهم على ذلك بقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (٢٧) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ (٢٨).

وهذا يؤكد بما لا يحتمل إثارة شك: أن المؤمنين على البناء وتتمية فاعلية الفرد والمجتمع، كما يتحقق للأمة ما تصبو إليه من وجود ذاتي كريم... يؤكد ما يبدو لأهل البصيرة من ضرورة أن يكون هؤلاء على الجادة وعياً لرسالتهم في الحياة، ومعرفة دقيقة بطبيعة المواجهة مع الهدم والهدامين. وهذا يقتضي أن تبدأ عملية البناء من الفرد، وبخاصة من يراد له أن يكون على خط المواجهة.. كما يؤكد ضرورة أن تمرى مواقف التحدي الماكرة المبطللة، وأن يخاطب أصحابها باللغة المناسبة ضمن ما يكون من ظروف وملابسات.

وذلك ما نراه في سورة الفرقان، ورأينا في سورة الأنعام، وكان ذلك خير عون للفئة القليلة المؤمنة كيما تتبين منهجها ولا تتخضع بالمظاهر الكاذبة، وفي الوقت نفسه، لا تتهيب مشقات الطريق).

وفي الرسالة الإسلامية التي تنزلت وحياً من السماء، وأعطت العقل مكانه الطبيعي في فهم النص، والتفكير في آلاء الله، والاجتهاد فيما لا نص فيه.. هذه القيم: منهج بناء ومسالك نماء، تأخذ طابع الشمول وتجاوز الحدود الزمانية والمكانية: من طبيعة الرسالة نفسها، مصداقاً لقول الله تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام في سورة سبأ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا».

ومن ثم فإن النقلة ليست بعيدة بين الزمن الذي تنزلت فيه آيات سورتي الأنعام والفرقان ونظرائها، وبين الزمن الحاضر محتوي الواقع الذي تعيشه الأمة، وهي تتطلع إلى مستقبل تتبدل فيه المواقع، ويتحول ميزان القوى على الصورة التي كان عليها بالأمس، يوم كانت الأمة الإسلامية صاحبة القرار، مكنة في أرض الله، وهنالك وتتفلس الإنسانية الصعداء من جديد..

إن هذه النقلة أمل يراود أهل الإصلاح والإصلاح المتبصرين من المسلمين، كما يراود المنصفين من غيرهم، أولئك الذين يحكمهم حب الحقيقة ويرجون لله وقاراً!!.

وما أحسبني مغالياً إذا ذهبت إلى أن انعكاس هذه المقولة كائن لا محالة على الميادين كلها: ثقافية كانت، أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية..

ذلك بأن وعي البناء المؤتمنين على إحداث المؤسسات – التي تترجم المبادئ إلى حركة واقعية في مرضاة الله عز وجل – لطريقهم، وحسن الإعداد لهذه الطريق على الشكل الذي ينبغي ويتناسب مع عظمة الفاية المطلوب الوصول إليها، وهو الإعداد الذي لا يهمل جانباً من الجوانب ذات العلاقة بإحكام البناء وفق مضمونات الإسلام، في حرص على تنمية الموارد البشرية والاقتصادية وغيرها، ومعرفة بطبيعة المواجهة والتحدي، مع مراعاة الظروف كلها والملايسات، والوعي لسنن الله الكونية التي لن تجد لها تبديلاً ولن تجد لها تحويلاً.

كل أولئك جدير — بإذن الله — أن يجعل الصلة بين القيم التي تطرحها معالم الكتاب المميز، وبيانها من السنة النبوية، صلة حركة ودفع للفاصلة إلى الأمام، صلة إنشاء للوعي الذي ينبغي، والحوافز الفعالة التي تصنع — بعمون الله — الكثير الكثير، خصوصاً إذا لوحظ أن البناة الصادقين المؤهلين لا ينطلقون من فراغ؛ فمع الرسالة الخاتمة، والتاريخ المريق، والحضارة المثلى: ما يتوافر لعالم الإسلام من المقومات البشرية والاقتصادية والجغرافية، وما هو في خدمة ذلك كله.

والمهم أن تصدق المعزائم طلباً لطاعة الله، وتوظف المعرفة بقيم الإسلام على طريق اليقظة التي لا تتفصل عن الانتفاع بالعلم والتجربة، وتثمر البناء المحكم القويم.



وفقات مع آيات النقلة والبناء... ومدلولات الوقائع

« ٢ »

تنمية الوعي - الذي لا تقتضيه قاعدة المعرفة - لدلالات الوقائع المتجددة على ساحة الصراع بين قبيل الحق وقبيل الباطل في تاريخنا، يوم كان رسولنا النبي الأمي عليه الصلاة والسلام يسهر - بدءاً من العهد المكي الذي ابتدأ بإشراق نور الرسالة - على تجديد حركة الإنسان مع الحياة، ويعمل على أن تكون تلك الحركة عنوان نجاح وفلاح في الدنيا والآخرة «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» رواه أحمد.

هذه التنمية لتكتم المدلولات على هدي العطاء القرآني الذي يلاحق الواقعة، خطوة فخطوة، وينشر عليها معالم هدايته.. تبدو اليوم وكل يوم، ضرورة تربوية وثقافية، يقتضيها - مع مراعاة التمهض الإقليمي والمالي - ما يرجئ من إعداد المسلم - ذكراً كان أو أنثى - إعداداً سليماً بفكره وتصوراته، وبنائه بناءً يمكنه من الإنجاز المثمر بموضوعية واندفاع ذاتي في كل ميدان من ميادين الحياة، لأنه يحمل رسالة الحياة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» [الأنفال: ٢٤].

ذلك بأن عطاء المرحلة التي تشير إليها، والتي قاد فيها رسول الله ﷺ رحلة الإخراج من الظلمات إلى النور، المذكورة المشكورة في التاريخ: عطاء متجدد، لا ينال منه امتداد الزمن، بل يزيد اختلاف الليل والنهار من إلحاح الحاجة إليه، ولا يمدو على ذلك تباين البيئات والظروف، بل يكشف عن شدة الافتقار - أيضاً - إليه؛ ذلك بأنه عطاء يحمل سر النفاذ والتأثير، ويذكر - على المدى - بالانتصار على أولئك الدعاة على أبواب جهنم أكابر مجرميها، والذين كان مما أنزل الله فيهم - وهم يمكرون بدعوة الحق - قوله جل ثناؤه في سورة الأنعام: «وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ

حَتَّى نُوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٦٤﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وقوله تباركت أسماءه في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴿٦٦﴾﴾.

والمهم في الموضوع: أن يكون الفرد المسلم والمجتمع المسلم على المستوى الذي يمكن من الاستفادة المبصرة وتوظيف ما يستفاد من الوقائع على طريق اليقظة التي توميء بتأشيرها إلى الكثير الكثير من الواجبات، والتقليل الثقيل من الأعباء..

والملاحظ من خلال الآيتين المشار إليهما – وهما من آيات العهد المكي ولهما في الكتاب الكريم نظائر –.. الملاحظ أن القرآن الكريم كان واضحاً فيما ذكر من التحديات التي واجهت الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يُفدُّ السير أداءً للرسالة على طريق البناء.. فتري الآيات تكشف عن صنيع أهل الشرك فيما أجمعوا، وحكموا أهواهم، ومكروا، وتبين عما توعدهم الله به من العقوبة والعذاب..

وهي ذلك ما فيه من تنبيه المؤمنين على ما يجب في هذا المضمار وتربيته على استكمال المفومات التي لا بد منها لمواجهة التحدي، وتنمية إحساسهم بالجريمة التي يرتكبها أولئك الهدامون عندما يصدون عن سبيل الله، فيعرضون عن الحق ويمكرون بدعوة الخير والبناء، وإحساسهم كذلك بالمسؤولية على صعيد المواجهة التي لا تتوقف، ولا تغبو نارها على كل صعيد وهي كل ميدان، ما دامت رعى الصراع بين الحق والباطل دائرة ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ﴾.

ويجيء الرد الواضح الذي يضع الأمور مواضعها ويكشف عن أن المعايير التي تحكم جمل الرسالة أين تجعل: هي المعايير التي يقتضيها علم الله وحكمته، لا تلك التي توحى بها الأهواء ونزغ الجاهلية والشيطان.

يجيء الرد الواضح بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ويتلو ذلك توعدهم بالعقوبة على صنيعهم فيقول سبحانه: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

هذا الوضع الذي نراه في عرض الوقائع على ساحة التعدي ومُظاهرة أهل الشرك على التوحيد وأهله، يحذرُ مغبة التهاون، ويضاعف مسؤولية المؤمنين على بناء الجيل – تربية وتزكية – أن يصلوه جاهدين بتلك المنابع الأصيلة في كتاب الله والسنة المطهرة، وأن يعملوا بمنهجية جادة – من خلال ذلك – على تنمية إحساسه بالواجب، وإنشاء الحوافز الداخلية التي تفوق الحوافز المشروعة الأخرى على أهميتها، علماً بأن العدو المتريص لا يعرف مهاودة ولا يدع فرصة تقوته في أي ميدان من الميادين. إن الله قوي عزيز.



وفقات مع آيات البناء.. وصورة أخرى من صور المواجهة والتنبه إلى دقة المعايير « ٣ »

في اصطحابنا لواحد من المعالم القرآنية من قريب، سعدنا بالكشف عن الطريقة التي سلكها الكتاب الكريم في إيضاح ما كان من بعض صور التحدي التي واجهت الرسالة والرسول منذ اليوم الأول من العهد المكي، والتي كان من أمثلتها ما شهدنا في سورتي الأنعام والفرقان، حيث دلت الكلمة الهادية على صنيع أكابر مجرميها، وتحديد المعايير التي تحكم – يعلم الله – جمل الرسالة أين يكون، والوعيد الشديد لأولئك الذين جاهروا الله ورسوله بالعداوة، وكان شغلهم الشاغل تمويق مسيرة الخير، والحيلولة دون البناء الشامل للفرد والمجتمع أن يأخذ طريقه إلى الوجود، عبودية صادقة لله عز وجل، يعقبها – مع عمارة الأرض – استقرار وطمأنينة في الدنيا، وسعادة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

شهدنا ذلك وشهدنا معه كيف أن الحاجة إلى العطاء القرآني على هذه الساحة المتسعة الأرجاء: حاجة متجددة؛ فالتنسب بين الماضي والحاضر، نسب متصل، والحركة الواضحة على النسق الذي حملته معالم الكتاب العزيز – وهي حركة نابغة من صميم الهداية – لا بد أن تكون بداية الطريق.

ولعل مما يزيد هذه القضية وضوحاً ما نجده من تلك الصورة الأخرى من صور التحدي في سورة الزخرف – وهي سورة مكية – بدءاً من الآية الثلاثين؛ ذلكم قول الله جلّت حكمته: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾.

ففي الآية الأولى بيان لصورة من صور العناد التي تكشف عن إهمال العقل والبحث عن الدليل، وعن الاستملاء البليد على الخضوع للعبة القائمة والبرهان الساطع «وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ» وهو القرآن الذي أنزله الله بلفتهم ودلت البراهين على صدق أنه كلام الله تبارك وتعالى: عتوا عن أمر ربهم وانصرفوا عن البحث الجاد والحوار الذي يمليه العقل السليم إلى قضية هي عدوان على العقل والفكر السليم، وكرامة الإنسان؛ فزعموا أن هذا الكتاب المنزل بلسان عربي مبين سحر، ومن أجل ذلك هم به كاهرون «قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ» ومسلکہم هذا سمة من سمات الجاهلية الرعناء التي تستبدل التقاض وتعطيل الملكات الفاعلة، وإعمال العقل ووسائل المعرفة، بالتفكر والتدبر واستخدام العقل بالنظر في الدليل والاقتناع بما فيه مقنع.

وشتان بين السبيل الإيجابية البانية التي تنمي الملكات والقدرة على تكوين الرأي الصائب والحكم السليم، وبين تلك الترهات الهدامة التي تستخف بكل ما لا يجوز الاستخفاف به والانصراف عنه، لما أن ذلك يعود على الإنسان بالضياع وعلى المجتمع بالمسامة والفوضى، ويعرم الأمة من كثير من الطاقات التي تبدو معطلة عندما يستحوذ ظلام الجاهلية على القلوب، ويتكبد الناس المنهج السوي الذي يستمد وجوده من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

أما الآية الثانية: فتشير إلى شيء من التفصيل لما رأينا إجماله في سورة الأنعام. هنالك نجد قوله تعالى: «وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَهِّبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ» وجاء الرد عليهم بقوله سبحانه: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ».

وهنا نقرأ في سورة الزخرف قول الحكيم الخبير: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ».

حدّدوا المكان بمكة والطائف، وحدّدوا الصفة التي يرونها تؤهل صاحبها لأن يتنزل عليه القرآن، وهي أن يكون عظيماً حسب تصوراتهم القبلية، ومعاييرهم الجالية وتعريفاتهم. فالمراد رجل عظيم على زعمهم من أيّ القريتين كان!

ومقولة المعايير هذه مطلوب ممن يكرمهم الله بمسؤولية البناء على العقيدة ومفاهيم الإسلام، وهي المسؤولية المثقلة بالتبعات الجسام: أن يكونوا على بينة من أمرهم فيها وهم يواجهون معايير جاهلية متجددة، وأن يحتكموا بذلك إلى حقائق القرآن والسنة وثوابتهما، ثم ما فهم أئمة الهدى من نصوصهما المشرقة بالهداية والخير. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.



مع آيات من سورة الزخرف البناء...

ومعرفة الواقع ودقة المواجهة

« ٤ »

نعود اليوم لنصعب المعلم القرآني في سورة الزخرف حيث نستجلي قبسات أخرى من ضياء تلكم الآيات التي تبدأ بالآية الثلاثين وهي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ أَهْمُ يَفْسِمُونَ رَحِمْتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِشَتَهُمْ لِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم مَّعْضًا سُلْفِيًا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٣٢﴾

إن هذه الآيات تدل أوضح دلالة على أن مهمة البناء التي عهد إلى رسولنا الكريم أن يضطلع بأعبائها — بدءاً من تحويل الإنسان عن الشرك إلى التوحيد — لم تكن تلك المهمة السهلة الميسورة، ولكنها مهمة صعبها الكثير من المشاق لم يكن أهلها ما كان يلجأ إليه سدنة الكفر والجاهلية من تحديات يُبتغى من ورائها الحيلولة دون القرآن ودون أن يأخذ طريقه إلى القلوب والعقول، وصرفُ الناس عن التصديق بنبوته عليه الصلاة والسلام وأنه رسول يوحى إليه.

لقد ضافوا ذرعاً بالكتاب الكريم، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله، فزين لهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم أن يقولوا: هذا سحر وإنا به كافرون. كما قال تعالى في شأن الوليد بن المغيرة المخزومي الذي أثار فيه أبو جهل نخوة الجاهلية فرجع عن رأيه الحسن في القرآن وزعم أنه سحر من قول البشر، وذلك بدءاً من الآية الحادية عشرة في سورة المدثر: ﴿ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا

﴿١٦﴾ وَتَيْنِ شُهُودًا ﴿١٧﴾ وَمَهَّدَتْ لَهُ تَمَهِّدًا ﴿١٨﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٩﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ
لَآيَاتًا عِيدًا ﴿٢٠﴾ سَاءَ رَقِيقًا ﴿٢١﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿٢٢﴾ فَفَعَّلَ كَيْفَ قَدَرٌ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ قِيلَ
كَيْفَ قَدَرٌ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٧﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ أي سحرٌ يَأْتُرُهُ عن غيره.

وقصة هذا اللون من التحدي الجاهلي الذي يهمل العقل ويجنوَ طرائق الحكم
المسلم ويخاصة من أناس هم أولى الخلق يومذاك بأن يدركوا عظمة كلام الله
وإعجازه — لأنه نزل بلفتهم وعلى مهوداتهم وأعرافهم القولية في الخطاب وهم
أرباب الفصاحة والبلاغة — وأنه يستحيل أن يكون من كلام البشر فضلاً عن أن
يكون من السحر الذي يهذي به السحرة وأهل الكهانة ويتطعمون.

قصة ذلك ما روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل الوليد بن
المغيرة على أبي بكر فسأله عن القرآن فلما أخبره خرج على قريش، فقال: يا عجباً
لما يقول ابن أبي كبشة — يعني الرسول عليه الصلاة والسلام — هو الله ما هو بشعر
ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لن كلام الله. فلما سمع بذلك انفزع من
قريش اثتمروا وقالوا: والله لئن صبا الوليد لتصبأن قريش.

فلما سمع بذلك أبو جهل قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل إلى بيته
فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألسنت أكثرهم مالا
وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من
طعامه، فقال: أو قد تحدثت به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر
ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾
الآيات أخرجه الطبري.

ومما يروى عنه: أنه قال في القرآن — قبل مكر أبي جهل بإثارة نخوته الجاهلية بدل
أن يقول مثلاً: عندنا من يقول مثل هذا الكلام أو خيراً منه —: لقد نظرت فيما قال
الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لميلو وما يعلى عليه.

حتى إذا غلبه الهوى وأثار فيه أبو جهل حمية الجاهلية العمياء: عدل عن قوله الأول القائم على المعرفة والتذوق، وجنح إلى الجهالة ودعوى أن هذا الكلام المعجز سحر يآثره رسول الله عن الناس. إنها المشقة تكثف طريق الماملين البُناة بإيمان ومنهجية وأخذ بالأسباب وفق سنن الله في هذا الكون؛ ولكن الماقبة لهم، إن هم صبروا وصابروا، وأتوا البيوت من أبوابها بموضوعية، فلم يفلخوا عن الله، وصدق التوكل عليه ودأبوا – مع الأخذ بالأسباب – على الوقوف ببابه طلباً للتأييد والنصر موقنين بأن ما شاء – سبحانه – كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو سبحانه ولي الصابرين.



إحكام البناء.. وسورة الزخرف المواجهة بإيمان.. معرفة الواقع ودرء المعيار الجاهلي

مرة أخرى نعود إلى آيات سورة الزخرف المكية في متابعة لعطاء المعلم القرآني المشرق بالبر على هديها، وهي قول الله جل وعز: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَاذِبُونَ﴾ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَكْرًا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾.

والنظر في هذا اللون من العطاء الذي أضاء به قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَاذِبُونَ﴾ (٣٠) وما كشف عنه من التحدي الذي ووجه به الرسول الكريم ﷺ وبارك عليه من قبل سدة الجاهلية والمكر، في شأن القرآن والرسالة؛ حيث قادنا ذلك إلى موقف الوليد بن المغيرة المخزومي، الذي غلبت عليه شقوته – والعياذ بالله – فارتدَّ خاسراً عن كلمة الحق التي قالها في القرآن الكريم، وأنه ليس من كلام البشر، وهو الخبير بفنون القول من شعر ونثر، بعد أن خضع، لاستتارة حمية الجاهلية من قبل أبي جهل الذي دبَّر له مكيدة الاغتراء بأن عشيرته تتحدث بأنه يتردد إلى أبي بكر وعمر والرسول عليه الصلاة والسلام رغبة في أن يصيب شيئاً من الطعام عندهم مع أولئك المستضعفين، فقال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٣٥).

وهذه الصورة من الإنكار المعادي للموضوعية والتجرد في الحكم، بله الخضوع للحجة والبرهان: تسلمنا إلى ما يحمله قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) ويعنون به «القريتين» مكة المكرمة والطائف..

تري لو أنزل هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على رجل من القريتين عظيم - على حد قولهم - أكانوا يؤمنون به؟

القرائن كلها تعطي أنهم لن يؤمنوا حتى في مثل هذه الحال؛ لأن القضية قضية تعجيز - على هواهم - المراد منها تسويغ بقائهم على الجحود حتى بعد أن يستبين الصبح لكل ذي عينين.

وحين نقول هذا لا نقول افتراءً، ولكن تنوع المطالب والتعلّلات يدلُّ أوضح الدلالة على هذا.

هذه واحدة، أما الثانية: فإن الحق تبارك وتعالى - وهو العليم بذات الصدور ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء - أبان عن هذه الحقيقة في محكم كتابه الكريم: فلو افترضنا حصول ما يطلبون وعلى الصورة التي تحتها يراوغون؛ فما سر ادعاء أن ما حصل هو لون من ألوان السحر، وأنهم قوم مسحورون؟! جاء ذلك في أكثر من موطن.

من ذلك قول الله تبارك وتعالى في الآية السابعة من سورة «الأنعام»: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

تلا ذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

وتطالعنا سورة الحجر بقوله تعالى في الآيتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة منها: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

إنها التمحلات الشيطانية التي يثيرها العناد الأبله، والإصرار على اللبث في حماة الضلة وعماية الجاهلية، مهما حمل ذلك من التناقض، وإهمال العقل عند الحكم الذي يلقونه على القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام.

ولئن اشترطوا في بعض الحقب للإيمان — كما سبق أن رأينا في سورة الأنعام — أن يؤثوا مثل ما أوتي رسل الله، ورداً الله عليهم قالتهم الماكرة بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ إنهم هنا — كما نرى في الآية الحادية والثلاثين من سورة الزخرف — يعترضون — والمياذ بالله على الذي أنزله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣٦).

فكانهم يقولون: هل كان إنزال هذا القرآن على رجل من القريتين — مكة والطائف — كبير في أعينهم، حسب المعايير المألوفة عندهم للمظمة من مال وجاه وما إليهما، ولو كان هذا العظيم في أعينهم ألمعية بيد الشيطان، وعنصر هدم وتخلف عن قافلة الخير للجماعة والمجتمع.

ويبدو من الروايات في ذلك: أنهم كانوا يفتنون في حضنهم البارد: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، أو الوليد ومسعود بن عروة الثقفي، أو الوليد وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أرادوا جباراً من جبابرة قريش... ولكن الذي في علم الله وحكمته — وهو المعلم الحكيم — غير هذا الذي يريدون بمعاييرهم الهابطة، وهو جل شأنه أعلم حيث يجعل رسالته، تحقيقاً لما يصلح المباد في عاجلهم وأجلهم دنيا وآخرة أن لو استجابوا لدعوة الحق والخير.

إن الرسالة التي ترمي — كما شاء ربنا تبارك وتعالى — أن تكون رسالة بناء تبدل ما عليه الجاهليون في جزيرة العرب وغيرها من الأصقاع، حيث الوثنية الظاهرة عند المشركين، والوثنية والمقتنعة عند أهل الكتاب الذين غيروا وبدلوا، وتحول سلوكهم وتصوراتهم في أنفسهم وفي مجتمعاتهم عن الطريق المموجة اعتقاداً ونظام حياة، إلى الطريق السليمة المأمونة، وتخرجهم والإنسانية كلها من الظلمات إلى النور....

إن هذه الرسالة محال أن تُجعل إلا فيمن هو أهل لحمل أمانتها، وتبليغها على الوجه الذي ينبغي، وصنعه الله على عينه لذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وهي رحمة من الله لا تأتي بالدعاوى والأمانتي الكاذبة ﴿هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۝١٩﴾.

فإذا كان الله هو الحكيم فيما قسم من الرزق، فليكن الإنسان على يقين من أنه — جلّت حكمته — قد وضع الأمور مواضعها على الوجه الأكمل والأسمى، عندما اختار للرسالة الخاتمة التي هي التخيير في نفوس بني الإنسان وحياتهم إلى ما هو الأفضل أبداً على وجه اليقين بل على حق اليقين؛ محمد بن عبد الله سيد ولد آدم صلى الله وسلم وبارك عليه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.



خاتمة سورة المجادلة.. وبناء الفرد والجماعة

« ١ »

لعل من الخير أن أذكر بأن الرحلة التي يقضيها المسلم في رحاب المعايير المقررة للموالاتة والمعاداة والتي يقطبها مع آيات مباركات من مثل سور «المنافقون» ودآل عمران» ودالمائدة» ودالتوبة» ترى المنطلق إليها: موقف الصعابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبيه الضال في كلمات هابطات ألقاها الشيطان على لسانه، تتم عن نفاق ضرب على قلبه بالأسداد، وفي هذه الكلمات ما يدعو إلى عدم الإنفاق على المهاجرين عليهم الرضوان، والعمل على أن يضطرب الوضع الاقتصادي في المجتمع المسلم، كيما يتفرق من حول رسول الله ﷺ عنه.. إلى كلمات آخر تتضح بالسلم الزعاف يزعم فيها أن العزة له ولزمرته من المنافقين — هكذا زعم، فخصيـة كيف زعم — وأقسم أنه عند الرجوع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأدل... قال هذا، وكأنه ولي الأمر هناك.

ثم أقسم كاذباً أمام رسول الله ﷺ أنه لم يقل متخذاً من إيمانه جنة، قصد عن سبيل الله ونزلت سورة «المنافقون» وفيها قول الله تعالى: «يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾».

وموقف عبد الله بن عبد الله بن أبي الإيمان المستير: يتلخص في أنه كان على استعداد لأن يزيح رأس أبيه من الطريق إن أراد رسول الله ذلك، ثم برهن لأبيه بشكل عملي أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، لا لرأس المنافقين، عبد الله بن أبي ومن حوله من مرضى القلوب معطلتي العقول الطغام!!.

وفي أعقاب الرحلة المومي إليها: نحن على موعد مع آيات كريمات في سورة «المجادلة» المدنية تكشف عن وقائع تمكس صدق المواقف عند أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم يواجهون الامتحان الصعب على طريق الريادة وبناء المجتمع المسلم القدوة بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام، في أعقاب جاهلية جهلاء لا تفرق بين الفت والسمين.

كما تمكس التزامهم الدقيق بالمعايير التي حددتها معالم الكتاب الكريم والسنة والمطهرة للموالة والمعادة، والحب والبفض.

فالموالة عندهم — كما أراد الله ورسوله أن تكون —: لله ولرسوله والمؤمنين، وتراهم وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله، هو المقدم على حب كل قريب مهما بلغت قرابته وصلته، ومن كل مبتغى في هذه الحياة، مهما كان شأنه وموقفه من النفوس!!.

ذلك قول الله جل ثناؤه في خاتمة السورة المشار إليها، بدءاً من الآية العشرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۚ﴾ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۖ﴾ (٢١) لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

لقد تنزلت هذه الآيات، ورحلة البناء تتحرك خلاياها وتتكاثر على كل صعيد، والمؤمنون غير غافلين عما كان يمجُّ به المجتمع في سابق الأمر، من رواسب الجاهلية، وآثار التمزق القبلي والانحراف الوثني، وفكر اليهود والمنافقين.

وليسوا قاعدين عن مواجهة التعاون الظالم والتحالف غير المقدس بين المشركين واليهود والمنافقين وما يبيته أعداء الله خارج الحدود، مما يظهر أو يخفى حسب الظروف والملابسات.

غير أن بناء المسلم على الإيمان والمعرفة، والصلة المنورة بالله عز وجل، ناهيك عن وعي الواقع، وسلامة الغاية والوسائل إليها: كل أولئك، جعل الجماعة المؤمنة قادرة – بمون الله – على تجاوز العقبات والانتصار على ما يفترض طريق الحق وأهله من الصماب، وتحقيق ما نُدبت إليه من رفع القواعد لبُنية حضارة سامقة في مجتمع مسلم يحمل دعوة الله إلى العالمين، ويمثّل الأنموذج الحيّ على طريق البشرية الطويل)).

وموعدنا كلمات قدامات – إن شاء الله – نتبين من خلالها بعض المواقف التي كانت ترجمان الالتزام الصادق لأمر الله ورسوله في هذا الباب، والتي تملن – بأبعادها كافة – أن البنية السليمة التي أثمرتها حركة أولئك الميامين، أمانة في أعناق من يحملون عبء الريادة اليوم، كيما يكون في أدائها استمرار العطاء على طريق الهداية، وتزويد الأمة بما يزيح ركام التخلف، وينهض بها من عثار، ويمكن لها تحت راية التوحيد التي هي دائماً لخير البشرية جماء.



سورة المجادلة... وحقيقتان على طريق البناء

« ٢ »

ألقينا عصا التسيار من قريب، عند خواتم سورة المجادلة وقول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية المشرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذِينَ ٢٥﴾ كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢٦﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَوَّعُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٢٧﴾.

وهذه الآيات الكريمات وأمثالها — كما يبدو للناس المتدبر — زاحرة بما ينمي بواعث الحركة القادرة بإذن الله على تجاوز العقبات، والارتفاع فوق ما يكون من الصوارف الظاهرة حيناً، والمموهة المزخرفة حيناً آخر، فضلاً عما يجترحه الظالمون الصادون عن سبيل الله، وما يلحقونه من الأذى بدعاة الحق المستضعفين.

صحيح أن الغاية هي سموها وعظمتها: صعبة المرتقى، ولكن المنهج الرياني حل العقدة الكبرى، وذلك الصعب بمختلف الوسائل والأساليب الصحيحة، بدءاً من داخل النفس وإثارة القلب والعقل فبناء المؤمن على العقيدة وصدق الالتزام بالمعايير المتوائمة معها، وصادق الإيمان أنه — وهو يوجه حركة الحياة — على الحق الذي لا تشويه شائبة، وأن الذين يحادون الله ورسوله: هم المبطلون أعداء أنفسهم وأعداء الإنسان، موقناً حق اليقين أن النصر في خاتمة المطاف للحق وأهله. كل أولئك يضمن — بإذن الله — أن يكون المؤمن كفاء الغاية.. وصدق الوجهة في الطريق إليها،

وتحقيق كل ما فيه مرضاة الله ورسوله، لأن الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من كل شيء، ودون مرضاة الله ورسوله كل ما يكون من مبتغيات الحياة وزينتها وما تهفو النفوس وتميل إليه فيها.

وصلى الله وسلم وبارك على الأسوة الحسنة يوم قال في دعائه بالطائف الذي رواه الطبراني برجال ثقات: «إن لم يكن بك سخط عليّ فلا أبالي غير أن عاهيتك أوسع لي».

وغير خاف أن قوله تعالى في سورة «المجادلة»: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ...﴾ الآية قد سُبقت بحقيقتين أساسيتين ما يد من أن يكون الفرد والجماعة في المجتمع المسلم، على حق اليقين منهما، وحسن التصور لموقع كل منهما من معركة البناء المتشعبة المهادين – في عمقها وشمولها – ومواجهة ما يكون من التحديات المستوطنة في نفوس مرضى القلوب، أو الطائفة على صعيد التطور في الأعراف والمصطلحات والقيم عند كثير من الناس^١.

وهاتان الحقيقتان: حملت أولاهما الآية العشرون من سورة «المجادلة» المشار إليها آنفاً، وحملت الثانية الآية الحادية والعشرون منها.

فمن وضوح الرؤية في الإحاطة بالفاية المطلوب الضار إلى الله لتحقيقها، مصحوباً ذلك بسلامة المنطلق إليها: أن يكون المؤمن على يقين لا يتزعزع البتة، بأن الكفار المعاندين الذين يحادون الله ورسوله – يعادون الله ورسوله ويصنون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً –: هم في الأذلين، في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، المتسريطين في الذلة والصغار في الدنيا والآخرة.

وما ذلك إلا لأنهم رضوا لأنفسهم مختارين هذا المسلك الضال المضل؛ فهم في حد، والشرع الذي فيه خير العباد والبلاد في حد. ومن هنا جاءت المحادة لله ورسوله – والعياد بالله –.

وهكذا تجد هؤلاء السفهاء في اعتقادهم وسلوكهم، مظاهرين للباطل، مجافين للحق شاهقين له، هم في ناحية، والهدى والصلاح في ناحية مخالفة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ (٢٠).

أما الحقيقة الثانية: فهي أن الله تعالى — وهو القوي المميز الغالب على أمره — كتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يبدل ولا يمانع: أن النصر له ولكتابه ورسله وعبياده المؤمنين المجاهدين، في الدنيا والآخرة، وأن العقاب للمتقين، أن لو سار هؤلاء العباد مع سنن الله، وما أمر به ونهى عنه سبحانه.

ولقد نطقت بذلك الكلمات الهاديات في عدد من المواطن، وفي مقدمتها الآية التي تلت ما نحن بصددده وهي قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِيَّ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢١).

ذلكم هو القدر المحكم والأمر المبرم الذي يشعن همم المؤمنين، وينمي في أنفسهم حوافز العمل والجهاد، مهما اشتدت الأزمات وطال الطريق.

كما قال جل وعلا في سورة «غافر» المكية: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢).

ولكم تسعف المؤمن هاتان الحقيقتان في مواجهة التحديات، ومطاردة كل ما من شأنه إدخال اليأس إلى النفوس، أو النزول على ما يكون — ظاهراً وباطناً — من تسويات الشياطين شياطين الإنس والجن.

وبذلك يكون هذا المؤمن — وهو يعمل على تجاوز الواقع غير السليم، وإنشاء البديل الصالح — أقوى — بإذن الله — من التحديات، وعوامل التشبيط التي يفرج بها مرضى القلوب والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



خواتم المجادلة.. وحقيقة ثالثة في البناء

« ٣ »

نحن على موعد مع وقفة أخرى نستأنف من خلالها صعبة المعلم القرآني في خواتم سورة مدنية هي سورة المجادلة، وقوله جل وعلا في الآية العشرين منها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُعَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لِلْعَلْبَنِ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٢٢﴾.

وهي الطريق إلى الآية الثالثة من هذه الآيات كان المعلم القرآني قد وقفنا في الآيتين العشرين والحادية والعشرين على حقيقتين أساسيتين: ما بدَّ من اليقين بهما وحسن التصور لأبادهما؛ فتعلق إحداهما بحكم الكتاب العزيز على الكافرين المماندين المحادين لله ورسوله أنهم في الأذلين وذلك ما نطقت به الآية الأولى.

وتتعلق الأخرى ببيان أن الله هو القوي العزيز، وأنه قد حكم وكتب في كتابه الأول وقرَّبه الذي لا يمانع ولا يتبدل؛ بأن النصر له ولكتابه ورسوله وعباده المؤمنين الصادقين المجاهدين في الدنيا والآخرة وذلك ما نطقت به الآية الثانية.

وغني عن البيان أن القراءة المتأنية لتاريخ الصراع بين الحق والباطل في الماضي وما فيه، والحاضر وما فيه، وما حمل المتهج الرياني - في دعوته الخيرة إلى بناء الإنسان والحياة - من نصوص توجب إعداد القوة المستطاعة، علماً وعملاً، وأخذاً بالأسباب المتسقة مع القاعدة الإيمانية، وإلى البذل والتضحية عن طواعية ورضى،

جهاداً في سبيل الله، يصعبه ما يجب من الخضوع في الحركة والتصرف للمعايير التي حددها ذلك المنهج المبارك للموالاتة والمعاداة والحب والبغض، وما ينبغي من التساوق مع سنن الله التي لا تتبدل... كل أولئك يسمو بالمؤمن إلى حقيقة ثالثة، هي أن المؤمنين الصادقين عاهدوا الله عليه، أولئك الذين همهم إعلاء كلمة الله، في أخذ للنفوس بتلك المعايير المومى إليها، لما فيها من ضمان الثبات على الطريق دونما تلفت إلى هنا وهناك... هم الصورة العملية لنفاذ قدر الله فيما حكم على الكفار المعاندين، وفيما أبرم - وهو الغالب على أمره - من أن النصر في خاتمة المطاف له - جلت قدرته - وكتابه ورسوله وأولئك المؤمنين الذين يوفون بما أعطوا لله من عهد وموثق، وأيديهم ميسوطة بالمعطاء طاعة لله، وتجدهم - على كل الأحوال وقد ذاقوا حلاوة الجهاد في سبيل الله - وقافين عند مقتضيات الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) وأخلاق المجاهدين.

وكم في هذا الوقوف عند هذه المقتضيات والعمل بها من قوة البرهان على الصديق، ومن ثمرات الخير والنماء لهم ولمجتمعهم وأمتهم، بل للإنسانية جمعاء!!

من هنا كان هذا الذي تلمح إليه: بعضاً مما يفسر النقلة في الآيات الكريمات بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُعَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَى﴾ (٢٠) الآية إلى قوله جل ذكره: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الآية.

وليس من الجنوح عن الفهم السليم في شيء: أن نشير إلى أن تكلم الكلمات الهاديات ونظائرها في كتاب الله العزيز مما تشرق به معالمه، وما جاء في سنة النبي ﷺ في هذه الباب: الجواب الشافي عن كثير من التساؤلات التي تدور في عالم الواقع، عما ينال الكفار من غلبة ونصر، وعما هو واقع بالمسلمين من الأذى... فله سنن لا تتخلف، وهذه الدار قائمة في شؤونها على الأسباب والمسببات كما هي سننّه في هذا الكون في النصر والهزيمة والقوة والضعف، وما إلى ذلك....

فهو مع المؤمنين إن هم نصره — بكل ما تحمله كلمة النصر هنا من المعاني — وكانوا على توافق مع سُننه في الكون والحياة ولكنهم لا يظفرون بذلك إن هم جانبوا طريق النصر، وأخذوا وجهة عكسية من سنن الله في الأسباب والمسببات وما إلى ذلك، وأعداؤنا — وهم أعداؤه — لا تتخلف سنن الله في تعاملها معهم إن هم تساوقوا معها.

وهذا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]. إن المسلمين اليوم يجنون مرارة ما زرعوا من التفسير النفسي عن الحق حتى غير الله ما بهم من نعمة الغلبة والتمكين. والمطلوب اليوم نقطة حقيقية تعيدهم إلى استنارة النفوس بالإيمان الصادق واليقين الذي لا يتزعزع، والسير مع سنن الله في الكون، حتى تعود إليهم النعم التي غيرها الله بهم، بسبب تغييرهم ما بأنفسهم وهو المحمود على كل حال.



البناء والآية الأخيرة من سورة المجادلة..

العقيدة والموالاتة

« ٤ »

هذه عودة إلى الآية الأخيرة من سورة المجادلة؛ ففي سبب نزولها ما يعين على مزيد من التبيين لتلك الحقائق التي طرحها المعلم القرآني هناك، وهي بعض، من العطاء في خواتم تلك السورة المسنية المباركة. والآية الكريمة هي قول الله جل ذكره: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وقد سبقَت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢١﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ لَفِيَّ عَزِيزٍ ﴿٢٢﴾﴾.

فالمؤمنون بالله واليوم الآخر، لا يوادُّون من حادَّ الله ورسوله، فكان هو في حدِّ والله ورسوله في حدِّ، يلتزم طريق الضلال ويحارب الحق وأهله.. المؤمنون بالله واليوم الآخر لا يوادُّون من هم في فكرهم وسلوكهم على هذه الشاكلة ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

فمميّز الحق عند المؤمن أن يكون أبداً في عمله وسلوكه وتعامله مع الآخرين؛ منضبطاً بضوابط الموالاتة والمعاداة التي وضعها الشارع الحكيم؛ فالموالاتة لله ورسوله والمؤمنين... وحبُّ الله ورسوله والجهادُ في سبيله مقدَّم على كل حب أو ميل.

وبناءً على ذلك: فالمادة الصادقة إنما تكون لإخوته المؤمنين ولو بُدوا في النسب، ومن مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا تكون هذه المادة للمعادين لله ورسوله، ولو كانوا من أهرب الناس نسباً كالآباء والأبناء والإخوان والعشيرة.

وهذا ما يذكرنا بقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتْلُوا مِنْهُمْ ثِقَةً وَبِحَذَرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨]. حيث النهي القاطع عن اتخاذ أولئك المعادين أولياء من دون الله، وقوله في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْرَبْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: ٢٤]. حيث الوعيد الشديد على تقديم حب ما ذكر على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله، وأن الفسق — الخروج عن ذلك — ضلال مبين.

والحق أن الآية التي نسعد باصطحابها من سورة المجادلة تقدم الصورة العملية الناطقة بالامتثال العملي لما جاءت به تلك النصوص؛ فقد روى الحافظ البيهقي وغيره أن قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ الآية قد نزل في أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، حيث قتل أباه المستميت في قتال الرسول ﷺ وأصحابه يوم بدر. وهو موقف يبدو فيه الانصياع التام لمعايير الموالاة والمعاداة، كما أراد الله ورسوله، ولا بد أن يكون هذا الصحابي — بشهادة النبي ﷺ — أمين الأمة المحمدية. ومن أجل ذلك قال عمر رضي الله عنه حين جمل الأمر شورى بعده في أولئك الستة عليهم الرضوان (ولو كان أبو عبيدة حياً لاستغففته).

ولا بد من متابعة اصطحاب الآية التي نسعد باصطحابها هنا فيما يأتي من القول إن شاء الله، كيما نلّم أكثر وأكثر بأبعادها على طريق البناء، وما يجب على الرواد في حمل الأمانة والحرص على المنهجية، في بناء الفرد والجماعة، وعمل كل

ما من شأنه تأصيل النسبة والتحقق بها إلى أولئك البناة الذين حطموا قيود الجاهلية، وانتصروا على المواقف في أنفسهم وفيما يمرض سبيلهم وهم يرفعون قواعد الحضارة المثلى ويقدمون للناس ما يسمدهم في الدنيا ويوم تُزلزل الأرضُ زلزالها وتُخرج الأرض أثقالها .



خواتم سورة المجادلة وأولويات في بناء الإنسان المسلم..

« ٥ »

مما وقفنا عليه المعلم القرآني في خواتم سورة المجادلة، بدءاً من الآية العشرين فيها: أن الجيل الذي تمهده رسول الله ﷺ بالبناء ونمي فيه طاقات الخير وحواضر العمل الإيجابي المثمر: كان في مقدمة ما تميّز به: صدقُ الوجهة في الموالاة والمعاداة والحب والبغض؛ فهو على كل أحواله، لا يتولى إلا الله ورسوله والمؤمنين، سواء أكان ذلك على صعيد التصور أم كان على صعيد الممارسة والتطبيق.

وتراه لا يوادُّ من حادَّ الله ورسوله، مهما بلغوا من قرابة النسب، والله ورسوله والجهاد في سبيل الله أحب إليه من أقرب ما يُحِبُّ وأثمن ما يبتنى؛ ذلك لأنَّ همَّهُ أبداً وشغله الشاغل: أن يكون على التزام تام بالمعايير التي حدّتها للموالاة والمحاداة معالم الكتاب العزيز وبينتها بالقول والفضل والإقرار سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

من أجل هذا لم يكن عجباً من العجب: أن ينجز هذا الجيل في حِقبة زمنية يسيرة في ميادين العلم والعمل وأفاقهما، وفي التأسيس الحضاري: ما لا ينجز في أضعاف أضعافها.

والآيات المشار إليها في سورة المجادلة هي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ٢٥﴾ كَسَبَ اللَّهُ لِأَعْلَى أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَرِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٦﴾.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٢٧﴾.

وأصرة ما بين هذه الآيات الثلاث وبين المقولة التي نلمح إليها في شأن الجيل الذي حُمِلَ أمانة البناء - فحملها - مستمعيناً بالله - على خير وجه: ما حملت الكلمات الهاديات من حقيقة أن الذين يحادون الله ورسوله هم الأذليون ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ (٢٠).

ومن حقيقة أن الله قد كتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يمانع ولا يبدل: ما نطق به قوله جل شأنه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢١).

ثم ما دلت عليه الآية الأخيرة التي ختمت بها السورة من أن أولئك المؤمنين الذين وهوا بمهد الله، وأخضعوا سلوكهم في الظاهر والباطن، وممارستهم لشؤون الحياة في السلم والحرب: إلى تلك المعايير الربانية في الولاء والبراء، والمالاة والمعاداة، والحب والبغض: إن أولئك المؤمنين الذين سلمت لهم تلك البنية المتكاملة في الاعتقاد والتصوير والتطبيق: هم الصورة العملية لنفاذ قدر الله فيما دلت عليه الآيتان الكريمتان.

والآية التي نغنيها هي قول الله جل ذكره: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية.

وقد نزلت هذه الآية - كما دلت بعض الروايات التي أشهر إليها فيما سبق - في شأن أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه - وقد قتل أباه الذي آمن في الحرص على إنزال القتل بالمسلمين يوم بدر.

والى أن نلتقي مع كلمات آخر نستودعها مزيداً من الاستقارة بعماء المعلم القرآني: لا أجد بدأ من الإشارة الجازمة إلى ثقل الأمانة في تبصير الجيل الممد للبناء الذي يعيد للمجتمع المسلم وجوده الحقيقي بالإذعان للحنيفية السمحة، أحكامها وأخلاقها وآدابها، والتي ينتمي إليها صنيع أبي عبيدة وأضرابه رحمهم الله ورضي عنهم، أولئك الذين وضعهم الله موضع الريادة الأمينة، والتربية بالقودة لما يليهم من أجيال أمة الشهادة على الناس.

والحق أن هذا الجيل الذي تولى الله ورسوله والمؤمنين، فلم ييخل بعطاء، ولا تقاعس عن مكرمة، ولا أمسك عن بذل، وكان – بعون الله – أقوى من الرغبات والمخاوف: يكشف سلوكه الفادُّ عما كان للمنهج القرآني الذي حوله نندن من أثر فمأل في صياغة التاريخ، وبناء حضارة الإنسان التي لا تشكو عوجاً، ولا يعرف التناقض إليها سبيلاً.

والتبصر بذلك على الوجه الذي ينبغي: حجر الزاوية في استئناف مسيرة الخير، وإحداث النقلة النوعية التي يتوخاها المصلحون، وفي إنشاء الحوافز الإيمانية التي أراد لها المنهج الرياني أن ترعى مسيرة المؤمن كيما يكون على الصراط السوي في دينه ودنياه وآخرته، وكم لذلك من عظيم الآثار في الأسرة والمجتمع والأمة، والله يتولى الصالحين.



أولويات في البناء.. ووضوح الرؤية

سورة المجادلة والجيل القدوة

« ٦ »

الجيل المرشح – في ظل بقطة العالم الإسلامي – لحمل الأمانة في تجديد البنية عند الفرد وبناء مجتمع تقوده – على وجه الحقيقة – الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) حيث ترد الأمور إلى محاضنها في شجوب الإسلام، ويزينه انماء المطرد في ميادين الحياة كافة، سواء كان اجتماعية، أو ثقافية، أو اقتصادية، أو سياسية وغيرها، ضمن ظروف تخضع للتحديد أحياناً، وتستعصي عليه أحياناً أخرى... هذا الجيل ما بد من تبصيره بحقيقة ما بني عليه الجيل الرائد الذي شهد تنزل الوحي، وكان طوع الكلمة الهادية يلقيها رسول الله ﷺ – وهو المبلغ عن الله ما أراد ولا ينطق عن الهوى –: فقدّم للبشرية كلها – وهو الجيل القدوة في جزيرة العرب – ما قدّم للبشرية من منجزات لا ينكرها منصف متبصّر مدرك لما كانت عليه الحال في الجزيرة العربية وغيرها في أرجاء المعمورة، وما آلت إليه الأمور بعد الإسلام الذي حمّله عن رسول الله ﷺ وبلغه الناس ذلك الجيل الفريد!!.

كان لا بد من الإشارة إلى هذه الحقيقة لأنها – كما أسلفت فيما سبق – حجر الزاوية في منهج يراد له أن يحقق سلامة التصور للفاية المنشودة – كما حددتها الرسالة الخاتمة – والسبيل الموصلة إليها وفق سنن الله في كونه وخليقته، وأن ينشئ الحواضر إلى العمل والإنجاز من داخل النفس المؤمنة التي استتارت بحقائق الإسلام، وهي حواضر تصنع – بإذن الله – الكثير الكثير، الأمر يؤذن باختصار

المراحل إلى ما يجب أن يكون؛ لما أنها وليدة الإيمان الصادق، والانعكاس الطبيعي لما يأخذ به المسلم — ذكراً كان أو أنثى — نفسه من ضوابط ومعايير أشرقت بها نصوص الكتاب والسنة على صورة لا يمتريها التباس أو تخمين!.

نقول ذلك، لأن الأنموذج العملي الذي سدها ولحمته فقه الدعوة، والاستعلاء بالذوق الإيماني على الموهقات: يبني بالقنوة، ويسمف — تربوياً وتزكية — بإحداث النقلة التي لا بد منها، من المعرفة والتصور، إلى العمل والتطبيق، وذلك دليل الثقافة الحقيقية التي تجمع بين المعرفة والسلوك عند الفرد والجماعة.

من أجل ذلك — وغيره كثير — أراني — وهذه المقولة المباركة التي هي من الحق وإليه — تقودني مرة أخرى إلى اصطحاب المعلم القرآن في خواتم سورة المجادلة، وقول الله تبارك وتعالى في الآية الأخيرة منها: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعَا عَنْهُمْ أُولَئِكَ حِزْبَ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وليس من مكرور القول التذكير بما سبقت الإشارة إليه من ارتباط سبب النزول — كما نصت بعض الروايات — بصنيع أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه يوم بدر.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «السنن» عن عبد الله بن شاذب قال: جمل والد أبي عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر — يعني من طعن المسلمين — قصده أبو عبيدة، فقتله، فنزلت ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا...﴾ الآية.

والحق أن الأمر في هذا المسلك وأمثاله، هي تقديم حق العقيدة على العلاقة القريبة المضاد أصحابها ولو كانوا من أقرب الناس نسباً أو ما هو على شاكلته؛ يتعلق — بعد الإيمان الذي خالطت بشاشته القلوب — بوضوح الرؤية عند المسلم — ذكراً كان أو أنثى — الذي يتحرك في ميادين البناء على وجوهها المتعددة المتنوعة

سلباً وحريراً، ويعمل على أن يوجه حركة الحياة وجهة لا تنأى — وهي تتعامل مع الواقع أو تتشبه — عن شريعة الإسلام التي تفرها بالخير، وتحصنها في مواجهة الأذى والتحديات..

فهذا المسلم، بوضوح الرؤية المشار إليه: يكون مدركاً بوعي ومنهجية سليمة لغاياته التي يتطلع إليها، وما ينبغي لتحقيق ذلك من فهم وبذل ورعاية؛ لذا تراه يتخذ ما يتخذ من المواقف وهو الواثق المطمئن الثابت الخطا، المدرك لطبيعة الحركة تحت الراية التي يسالم أو يحارب من أجل ما هي رمز له وتدل عليه، ويجب أو ييفض وهو على اليقين من أن تلك الراية هي التي نسجت وجودها الكلمة الطيبة ذات العطاء الذي لا يُحد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) الكلمة التي حُدثت المعايير لذلك كله على هديها وفي نورها.

ومن هنا ذكر عدد من المفسرين يرحمهم الله أن المعنى بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ...﴾ أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح في موقفه مع أبيه يوم الفرقان؛ فهو لم يواده وإن كان أباه على حساب الإيمان بالله واليوم الآخر، وكان الباعث على الجهاد تحت الراية المحمدية أقوى من أي عاطفة أو رغبة من أمور الدنيا، ويقول تعالى: ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أبو بكر الصديق، إذ هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، إذ قال عبد الرحمن لأبيه: منعني من قتلك عاطفة الأبوة، فقال أبو بكر: لو تمكنت منك لما نجوت مني.

ويقوله جل ذكره: ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ. أما قوله سبحانه: ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فالمعنى عمر؛ قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وحمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم أجمعين، قتلوا عتبة وشيبة، والوليد بن عتبة في تلك الواقعة المباركة يومذاك، كما ذكر الحافظ ابن كثير.

وهكذا تكون الآية واضحة الدلالة في تزكية ما صنع أولئك الصحابة عليهم الرضوان وتقعيد هذه القاعدة العظيمة التي حُدثت ضوابط العلاقة بين المؤمنين والكنار في حالة الحرب والمواجهة.

وهذا لا يتنافى مع وضع الأمور مواضعها في حالة السلم أخلاقاً وحسن تعامل، ومصاحبة بالمعروف مع شدة الحرص على أن يكون هؤلاء من المؤمنين.

ومهما يكن من أمر: فإن العمل على أن تتسم الرؤية عند من يرشحون لحمل العبء بفهم ووعي وأمانة، وقدرة على توجيه الطاقات الفاعلة، وجهة البناء والنماء؛ بالوضوح المرموق: مطلب أصيل تدعو الضرورة إلى تحقيقه، كيما يكون أبناء المجتمع المسلم على الجادة في الاندفاع إلى العمل الإيجابي المثمر، يتجاوزون ما يلقي على طريقهم من الفكر الوافد المضاد، والصورة المشوهة المفتراة على الإسلام في موقفه من بناء الإنسان والحياة، وعلاقة الإنسان بالكون والحياة التي جعلها الإسلام علاقة تثمر الحفاظ على إنسانية الإنسان في ظل حضارة تقوم على الأسس السليمة التي تشرق بها الرسالة الخاتمة الموحى بها إلى صفوة الله من خلقه وخيرته من رسله معلم الناس الخير محمد بن عبد الله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته المجاهدين الصابرين الذين كانوا على خير ما يكون من الوضوح في الرؤية، وما ينبغي لتحقيق الفايات الكبار من إعداد صحيح للقوة في شتى منابها وميادينها. ولله الأمر من قبل ومن بعد.



مع سورة الأنعام التحضير المبكر للبناء والأولويات

« ١ »

أشرنا غير مرة إلى أن تزويد الجيل المد للبناء، بالقدر الكافي من المعرفة بالإسلام ومنهجه في بناء الإنسان والحياء، مع مراعاة السلوك والعمل على تطويره لمقتضيات العقيدة: كل أولئك من الأولويات التي يجب أن تأخذ حجمها الحقيقي في الثقافة التي تنشئ التصور وتحوله إلى سلوك عند الممارسة والتطبيق.

وبذلك تكون العاطفة الإسلامية عند الشباب وقوداً متجدداً لهذا التطوير الثقافي والتربوي.

ولقد يكون من المفيد حقاً أن نُعين شبابنا وفتياتنا — وهم يتطلعون إلى بناء مجتمع يزينه التكامل في بناء الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها ولا يشكون من عوامل التمزق والضعف، كالذي يصيب المجتمعات المنقطعة عن هداية الله — .. لقد يكون من المفيد حقاً أن نحسن خطابهم ونُعينهم على إدراك أن الرسالة الخاتمة — وهي رسالة بناء يشمل ميادين الحياة بأكملها، وإنماء لقاعلية الخير والعطاء في المجتمع: قد كانت نظرتها مبكرة إلى الكشف عن مواطن الضعف وأسبابه في المجتمع الجاهلي — بشكل عام — وفي الجزيرة العربية بخاصة، وذلك، ببيان شاف مؤيد بالدليل الواقعي. وكان ذلك بمثابة تمهيد لبناء مجتمع تحكمه شريعة الله، وتزينه العافية من تلك الأمراض المهلكة، كمباداة الأوثان والتقليد الأعمى للأباء والأجداد ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ناهيك عن العادات والأعراف الجاهلية الرعناء التي كانت تضيق معها في كثير من الأحيان، جملة من الأخلاق الكريمة التي كانت كالجزيرة المضيئة في بحر الظلمات، وتهدر

بسببها كثر من طاقات الفرد والجماعة، أو نوضع في غير موضعها على حال تكون في خدمة الجاهلية ونظراتها التي تتافى مع الحق، بل ومع إنسانية الإنسان في كثير من الأحيان.

وشاهد ذلك كثيرة وفيرة فيما نزل من القرآن الكريم، خصوصاً في العهد المكي. ومن ذلك ما نفع عليه في سورة الأنعام المكية – على سبيل المثال – وهي من السبع الطوال في كتاب الله من آيات تشمر بخطين متلازمين.

أولهما – ذلك الخط المتعلق ببناء الإنسان الذي ينأى عن حماة التغلف الجاهلي بفوضاه وخضوعه للهوى والشيطان.

ثانيهما – الخط المتعلق بالتحضير لبناء مجتمع يُشرق في جنباته – بإطلاق – نور شريعة الله يوم يأذن الله بذلك، ويسلم المجتمعُ قياده لدعوة الإسلام التي يحمل لواها النبي الأمين محمد عليه الصلاة والسلام.

وقد حصل هذا بعد الهجرة – والحمد لله – حيث أنشئ المجتمع النموذج الجديد، بواقع أنموذج جديد على طريق البشرية في كل زمان ومكان، وحسبك أنهما مجتمعٌ وواقعُ المهاجرين والأنصار. والخصائصُ الفريدة المميزة لهذا الأمر الجلل: لا تخفى على ذي بصيرة، وليس هذا موضع بسطها، وهي متوافرة في مظانها لمن أراد.

وسبحان من اختار للرسالة الخاتمة – وهو أعلم حيث يجعل رسالته – سيد العالمين محمداً صلوات الله وسلامه عليه، واختار لحملها عنه إلى الناس: أولئك الجنود الأمانة وهم أصحابه الكرام مهاجرين وأنصاراً، الذين آمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ففتح بهم مغاليق الحياة، وحطم الأوثان من داخل النفوس ومن خارجها.

وأكرم بجند قائدهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، قاموا بمهمة التحويل من الجاهلية إلى الإسلام، ويا لها من مهمة مذكورة مشكورة أضاعت لبني الإنسان طريقهم إلى يوم الدين، ولكن كثيراً من الناس لا يفقهون. أجل لا يفقهون، لأنهم يؤثرون ظهورهم للدليل القاطع والبرهان الساطع، وليس أقل ذلك ما كان لتلك

النفقة من الجاهلية الجهلاء إلى الإسلام من آثار إيجابية بناءة عبر تاريخ الحضارات الطويل؛ لما أنها مع النفقة الكاملة لما كان من نثارت خير في الجاهلية أنشأت - فيما أنشأت - حضارة الإسلام المثلى التي شهدت وتشهد بأحقية هذا الدين الذي ارتضاه لعباده رب العالمين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي عود على بدء، بعد هذه اللمعة التي لم يكن بد من الاستطراد إليها: ها نحن أولاء نقرأ في تلك السورة المباركة سورة الأنعام، بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المائة قول الله جل ذكره في شأن سمات المجتمع الجاهلي التي يكشف عنها ما كان يفعله الجاهليون: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لَكُم مِّنَ الشَّرِّ إِنَّكُمْ لَرِئَاسَآءُ فِيهِمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَلَحَ قَوْلُهُمْ وَمَا يَقْرُؤُونَ ﴿١٦٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سَجَيزٌ بِهِمْ بِمَا كَانُوا يَقْرُؤُونَ ﴿١٦٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بَطْنِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَجَيزٌ بِهِمْ وَمِنْهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٩﴾﴾.

هكذا ترى أن الفرية المؤقتة التي كانت تعاني منها دعوة الإسلام في مكة في المهد المكي، ومحاولة، الفتنة عن الدين، والابتلاء الذي كان يطارد الفئة القليلة المؤمنة، ويُحكم عليها الحصار بأساليب غاية في السقوط: تجاوزت إلى إيذاء الرسول الكريم نفسه فداء أبي وأمي عليه الصلاة والسلام..

كل أولئك لم يكن بكل ما فيه - كما شاء الله تعالى وهو الحكيم الخبير - حائلاً دون الكشف بأسلوب غاية في الوضوح والإحاطة عن مساوئ المجتمع الجاهلي، وعناصر الضعف والتخلخل فيه، والأسباب المباشرة، والأسباب غير المباشرة لذلك؛ الأمر الذي يشمر بأحقية دين الإسلام أولاً، وبصدق محمد ﷺ في أنه رسول من عند الله، يُوحى إليه بهذا القرآن بلسان عربي مبين.

كما يشعر ثانياً بحكمة الحكيم سبحانه بالتعضير والإعداد للمجتمع المعافى من تلك الأوضار التي تشير إليها الآيات، وبهذه المعافاة يكون المجتمع الأمثل المنتج على دروب الخير، الذي يأتي نتيجة طبيعية لما تحدثه عقيدة التوحيد بأبعادها الشاملة – في النفوس – من تحويل على صعيدي الفرد والجماعة، حيث يصبح الفرد لبنة صالحة فاعلة في مجتمع إيماني لا تعوزه مقومات السلامة والإحكام، قادر على أن يبدأ مسيرة حضارة جديدة مبرأة من تلك العيوب التي تثن منها الحضارات المادية من مختلف الأزمنة والأمكنة. وواقعنا اليوم مع حضارة القوة الطاغية.



البنية الثقافية والسلوك وسورة الأنعام

« ٢ »

سبقت الإشارة من قريب إلى ما يجب أن يمان عليه شبابنا وفتياتنا على صعيدي الثقافة وتطويع السلوك للمعرفة: من إدراك واع وشامل منهج الإسلام في بناء الإنسان والحياة.. وأن التحضير لبناء مجتمع متماسك الأركان تقوم قواعده على محور إيمان قوامه الإنسان المؤمن المتفتح العقل المنور القلب، بدءاً من التنديد بمساوئ المجتمع الجاهلي: قد وقع في العهد المكي مصاحباً لبناء الإنسان على عقيدة التوحيد والتسامي عن كل ما هو من أضرار الجاهلية بسبب: الأمر الذي يجعل منه تلك الطاقة القادرة — بإذن الله — على إنشاء البنية الحضارية السليمة.

وعلى هدي هذه المقولة سمعنا بواحد من الشواهد القرآنية في سورة مكية هي سورة الأنعام. ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ آبَاؤُهُمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرِدُّوهُمْ وَلَيْلَسُوا عَلَيْهِمْ دِينُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٦٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثَ جَدُّنَا لَهَا بِطَاعَتِهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيِّئُ بِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٦٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بَطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةٌ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيِّئُ بِهِمْ وَصَفَهُمْ أَنَّهُ حَكِيمٌ عَلَيْهِمْ ﴿١٦٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا آبَاؤَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

وأنت واجد أن هذه الآيات تشير إلى عدد من المساويء التي كانت تحكم المجتمع الجاهلي فيما يتصل بالزروع والأنعام وألوان من المطاعم المتعلقة بها، والتفريق بين الرجل والمرأة بيمضئها، بالإضافة إلى تلك الظاهرة القبيحة أشد القبح التي كانت عند عدد من القبائل وهي قتل الأولاد من الإملاق أو خشية الإملاق على زعم من يفعل ذلك، ناهيك عن وآد البنات خشية المار إذا كبرن ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَفِيمٌ ٥٨﴾ [النحل: ٥٨]. ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ٥٩﴾ [التكوير: ٨-٩]. كل هذا في تحليل وتحريم لم يأذن به الله، وهو محض افتراء عليه سبحانه.

والحق أن ما ذكر في هذه الآيات من أمور الجاهلية وأعرافها: ذو دلالة واضحة على التقليد الأعمى دون تبصُّر، وعلى انحسار العقل عن أن يكون له دخل في الحكم أو تحديد المواقف..

ودلالة ذلك — كما يلاحظ — على أن كابوس الوثنية والخرافة قد أرقق الفرد والجماعة وعطلَّ الكثير من الطاقات، وأسلم المجتمع إلى التمزق والضياغ، واضحة كل الواضوح.

والى أن نلتقي على نظرات في الآيات الكريمات وعطاء المعلم القرآني فيها: لعل من الخير أن ننظر إلى ما ختمت به كل آية منها لأن الخواتيم مرتبطة أيما ارتباط بالمضامين!.

ها نحن أولاء نرى ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، ﴿فَلَرَّهْمَ وَمَا يَقْرُُونَ﴾، ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَقْرُونَ﴾ ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِلَهُ حَكِيمٌ عَلَيْهِمْ﴾.

ونعود إلى الآية الأخيرة لنرى الحكم عليهم بالسفاهة والافتراء والبعد عن طريق الهداية ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ١٤٠﴾.

وأنت ترى أن ذلك يحمل ما يحمل من توجيه الفئة المؤمنة إلى شيء من سمات المجتمع المسلم كيف يجب أن يكون..

والتذكير بذلك منذ العهد المكي: درس للأمة في كل عصر وفي كل جيل: أن تكون على المورد الأصيل أخذاً قوياً بالمنهج الرياني في بناء الفرد والجماعة، وإنشاء المجتمع الأمثل المبرأ من الأمراض التي تشل حركته على طريق المعطاء المجدي، وتموّهه عن النماء المثمر الخير، والحمد لله على نعمة الإسلام!!



سورة الأنعام وإحكام البناء..

بين يدي المجتمع الأمثل صاحب الرسالة

« ٣ »

في عود على بدء: نحن على موعد مع بعض من آي سورة الأنعام المكية، نسعد باصطحابها، لنضع أيدينا على تلكم المآخذ التي ندد بها القرآن الكريم، والتي هي من صنع الجاهلية الجهلاء والقواية العمياء: تحليلاً وتحريماً على ساحة الأنعام والحرث، لم يأذن بهما الله سبحانه، مضافاً إلى ذلك موقف شائك من المرأة عموماً، ومن الأزواج في حكم بعض الأطعمة بشكل خاص..

ناهيك عن ظاهرة قتل الأولاد من قبل آبائهم سفهاً بغير علم – والعياذ بالله – علماً بأن تعبير – بغير علم – لا يعني أن هنالك قتلاً يكون سفهاً بعلم، فليس للعبارة مفهوم مغالض، ولكنه تقرير واقع؛ فهم يقتلون الأولاد سفهاً بجهل وجاهلية.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿... لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً...﴾ فليس المراد أن ما لم يكن أضغافاً مضاعفة فهو حلال، ولكن المراد تصوير الواقع وهم أنهم كانوا يأكلون الربا أضغافاً مضاعفة في الجاهلية فتُهي المسلمون نهياً قاطعاً عن ذلك.

وقد تأيد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ﴿وَأَن تَبْتَغُواْ رِئَاسَةً لَّكُمْ رِئَاسَةً مِّنْ أَمْرِكُمْ لَا تَقْلُوبُونَ وَلَا تَقْلُوبُونَ﴾.

وبعد: فالتنديد المبكر بهذه المساوئ التي كانت عنوان البعد عن هداية الله، والتي أضعفت كيان الفرد والجماعة، وقعدت بالمجتمع عن أن يكون مجتمع خيرية ومساواة وعطاء على الوجه الذي ينبغي..

أجل: التنديد بهذه المساوي تحت سمع الدنيا ويصرها بآيات قرآنية تنزلت بلسان عربي مبين، بدءاً من العهد المكي، والشدة الشادة تحيط بالفئة القليلة المؤمنة، حيث الفتنة عن الدين، وإيقاع صنوف الأذى في النفس والمال والولد وموطن الولادة والنشأة والعيش: يثمر - كما أسلفنا - بالتمهيد لبناء المجتمع المسلم المعافى من تلكم الأمراض والترهات، الأمر الذي يشي بأن هذا التمهيد - الذي هو بمثابة التحضير لإنشاء المجتمع المنشود الذي يليق بإنسانية الإنسان وطاافته وخلافته في الأرض -: يبلغ من الأهمية ما يجعله مصاحباً للبناء المراد للإنسان، على العقيدة التي هي من الفطرة وإليها والذي كان المحور في آيات الكتاب الكريم يومذاك، والشغل الشاغل لرسول الله ﷺ وصحبه المؤمنين الأخيار؛ إذ التخلية قبل التحلية كما يقول علماء السلوك.

والآيات الكريمة التي هي مدار هذه الإشارة المعجلى هي قول الله تباركت أسماءه في السورة المذكورة بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المائة: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٦٣) الآيات.

وغير خاف أن الآية تحمل الذم والتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدءاً وكفراً وشركاً، فجعلوا لله شركاء وأنادوا من خلقه أو مما صنعت أيدىهم، وهو سبحانه خالق كل شيء، وهو الذي يجب أن يدعى ويستعان، وينصاع العباد لأحكامه - جل شأنه - فيهم.

وعمل هؤلاء المشركين الذي قررت وجوده الآية الكريمة فيهم، ونددت به شديد التنديد: أثر من آثار ذلك الضلال المبين حيث يشرعون ما لم يأذن به الله، فيحللون ويحرمون حسب أهوائهم وتقليدهم الأعمى للأباء والأجداد دونما تعقل أو تبصر!!

وما من ريب في أن هذا الصنيع الذي كان يحظى برضى المجتمع عنه، يوحى بما كانوا عليه من التثنت والضياع في التصور والعمل المتلائم مع هذا التصور.

وانعكاس ذلك على بنية هذا المجتمع التي تتمثل بالتفريق بين فئة من الناس وفئة، وسير التحليل والتحرير على مركب من المصطلحات الفارغة من الحق، ولون من ألوان الاستهانة بالمرأة والأزواج.. إلى غير ذلك.. هذا الانعكاس لا يخفى على ذي النظرة المتكاملة للأمور!!

إن هذا الصنيع ظلمة من ظلمات تلك الحقبة الجاهلية، وما تنزل به القرآن تعرية للباطل وبياناً للعق وكيف يكون الطريق إليه: هو النور الذي أزاح الظلمات والحمد لله. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ جعلوا لله مما خلق ويرا من الزرع والثمار والأنعام نصيباً - جزءاً وقسماً -: هشيء لله بزعمهم، وشيء لشركائهم من الأوثان.

وقد جاءت الآية على هذا الزعم الباطل المبني على تصور في غاية الفساد، فقال جل شأنه: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾.

ولننظر ماذا سيكون من بعد!! إن ما يجعلونه من القسمة لشركائهم لا يصل إلى الله، أما ما كان لله: فهو يصل إلى شركائهم، وانت لا تدري أي حقيقة بزعمهم أم فرضية!!

ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

أي استخفاف بالعقول هذا، وأي سخرية من الإنسان هذه! لذا ختمت الآية بالتبعية على سوء حكمهم هذا، فقال سبحانه: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

إن ظاهرة المبت هذه، والتلاعب بأمر لصيق بالقضية اليقينية الكبرى وهي قضية الاعتقاد بوجود الله تباركت أسماؤه على صعيد الممارسة، وإلقاء الأحكام المفتراة جزافاً من هنا وهناك دونما وازع أو رادع: يقصي الإنسان عن ممارسة الحياة بحضور فكري وإرادي على الوجه الذي ينبغي، ويضعه الموضع غير الملائم، له بوصفه إنساناً له عقله وفطرته وأهليته وتطلعاته، ناهيك عن قلبه ونفسه ومشاعره.

وليس هذا فحسب؛ ولكنه أيضاً يعرض المجتمع لألوان من عدم الاستقرار، والضباب، والكشف عما يحمل الصنيع الجاهلي من الأذى بنوعيه الظاهر والمبطن، وأن ذلك يردُّ إلى سوء حكم الجاهلية، وإظهار عواره في تلك الحقبة من عمر الدعوة المبكر؛ إيداناً - كما أسلفت غير مرة - بأن على الفئة المؤمنة - على اختلاف الأزمنة والأمكنة - أن تحرص على إعداد العدة لبناء المجتمع الذي لا ترهق بناء هذه الشوائب وأمثالها مما تطلقه الجاهليات الحديثة؛ لأن العقيدة التي شرفهم الله بعملها، ما بدَّ من أن تكون منطلق التحويل إلى المجتمع الفاضل القوي في لبناته وبناءه، المجتمع الذي يعتدُّ أبداً بما للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» من حقوق، ويلبي حاجات الفرد والجماعة بمنأى عن كل ما يسيء إلى الاستقامة والتعاون على البر والتقوى والخلق الكريم.

وعطاء المعالم القرآنية - ومنها هذا الأنموذج من بسط ألوان الداء، ومقومات الدواء: أمانة في أعناق ذوي الكلمة المسموعة من المسلمين، والأمة على وجه العموم؛ أن يكون هذا العطاء موضع الاهتمام البالغ والانتفاع في ظروف حديثة تذكرنا بقول القائل:

«ما أشبه الليلة بالبارحة»

أجل: ومطلوب أداء هذه الأمانة وإن اختلفت المظاهر حسب القشرة الخارجية!! ولله الأمر من قبل ومن بعد.



سورة الأنعام أوضاع الجاهلية.. والتغيير

« ح »

وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول — ونحن نصطحب الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة الأنعام: على بعض من المساويء التي جاءت — كما دلّ البيان القرآني المعجز — نتيجة لصنيع أهل الباطل من اتخاذهم شركاء لله عز وجل، حيث كانوا على درجة من الاستهتار حملتهم على أن يجعلوا لله مما خلق وبراً من الزروع والثمار والأنعام نصيباً، يقابله نصيب لشركائهم من الأوثان، ورتبوا نتائج غاية في التفاهة على هذا التقسيم، هكذا قالوا — كما أخبر القرآن —: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا ومن هم شركاؤهم الذين يظفرون بهذا النصيب إنهم الأوثان التي صنعوها بأيديهم؛ فهي لا تتلق ولا تسمع ولا تعقل، وراحوا يعبدها من دون الله.. ويبلغ بهم العبث والبعد عن تحكيم العقل السليم — وهذا من أوضاع سمات الجاهلية — أن يقرروا كما زين لهم الهوى أمراً غاية في الغرابة مدعاة للمجب وهو من النتائج التي ترتبت على التقسيم المزري: أنه ما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم.

وحكم الله على صنيعهم هذا في الفكر والعمل — وهو خير الحاكمين — بأنه سوء، فقال تعالى: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» إنها للظاهرة التي تدل على إهمال العقل والسير وراء الخرافة، وذلك من عناصر الهدم للمجتمع وتعطيل طاقات الفرد والجماعة.

والآية الكريمة التي سعدنا بصحبتها في هذه الرحلة المباركة — كما سبق — هي قول الله تبارك وتعالى: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦٣﴾».

أرايت إلى هذا الدرس العظيم فيهما يلزم للحكم في أمر من الأمور من التعمق والتدبر والاحتكام إلى الحق بعيداً عن الوقوع في شرك الهوى والغفلة؟

ولنستمع إلى ما قاله حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية كما نقل ذلك عنه علي بن أبي طلحة والمؤلفي: يقول: (إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا منه لله جزءاً، وللوثن جزءاً؛ فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيهما سمي للصبء ردؤه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقتهم الماء الذي جعلوه للوثن، فسقى شيئاً جعلوه لله: جعلوا ذلك للوثن. وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوها لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير ولم يردؤه إلى ما جعلوه لله.

وإن سبقتهم الماء الذي جعلوه لله، فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن. وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قرية لله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ (الآية).

ومعلوم أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من الأنعام لكل منها صفات خاصة تميزت بها وسموها بهذا الاسم من أجلها.

والذي قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد. رواء الطبري في «جامع البيان» وأورده ابن كثير في تفسيره.

وأثر الشرك فيهما يصنعون، حيث العدوان على العقل والتقليد الأعمى، ناهيك عن التناقض مع دعوى الإيمان بالله وأنه الخالق الباري... هذا الأثر، تطالعنا المصادر أنه جاء أيضاً في صورة أخرى وراء الذي رأيناه آنفاً، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية التي نحن بصدها: (كل شيء يجعلونه من ذبح يذبحونه، لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله عليه، وقرأ الآية حتى بلغ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ رواء الطبري وغيره.

أجل: ألا ساء ما يقسمون ويتأولون نتيجة شركهم وضلالهم، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أي ساء ما يقسمون فإنهم أخطأوا أولاً القسم لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالفه وله الملك وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيتته لا إله غيره ولا رب سواه، ثم لما قسموا - فيما زعموا - القسمة الفاسدة، لم يحفظوها بل جاروا فيها، كقوله جل وعلا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ مِثْلَ بَنَاتِهِ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]. وقال تعالى: ﴿الْكُفْرُ وَلَهُ الْأَنْفَى﴾ (٢١) ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (٢٢) [النجم: ٢١-٢٢].

لقد جاء هذا التنديد بموامل الهدم في المجتمع ومظاهر الاستهتار بالإنسان؛ ليكون مع التقويم، عنواناً حضارياً أمثل، وسيظل عنوان الحرص في الرسالة الخاتمة على بناء الإنسان ومن ورائه المجتمع، بناءً يسلم إلى القدرة على المطاء، وأن يكون الإنسان يعق ذلك المخلوق الذي كرمه الله وسخر له من كونه ما سخر، يعيش في مجتمع تقوم قواعده على الخير والهدى، في تكامل يتسع لميادين الحياة كافة دون وكس ولا شطط والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



سورة الأنعام.. وعقابيل الجاهلية البناء على طريق التغيير إلى الأقوم « ٥ »

مع الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة الأنعام كانت لنا رحلة قصيرة وقفنا المعلم القرآني من خلالها على لون من ألوان الضعف في المجتمع الجاهلي تصوراً وسلوكاً، يبرزه ما كان من عمل المشركين في أنهم جعلوا لله تعالى – وهو الخالق المنعم الذي له ملك السماوات والأرض والكل تحت مشيئته وقدرته – جعلوا له مما خلق وبرا من الزرع والثمار والأنعام جزءاً وقسماً؛ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، ويعنون بالشركاء الأوثان التي يعبدون؛ فما كان لتلك الأوثان: فهو مصبون محفوظ، وإن سقط منه شيء فيما سموه للصمد: ردوه إليها وما كان لله فالحيلة قائمة لردّه إلى الوثن، حتى لو اختلط منه شيء بالذي جعلوه – كما شاء لهم هواهم – للوثن: تركوه له ولم يردّوه إلى ما جعلوه لله.

إنه لضلال في القسّم؛ لأن الله ربُّ كل شيء ومليكه، والخلق كلهم تحت تصرفه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وضلال فيما زعموا من القسمة الفاسدة؛ إذ لم يحفظوها، بل جاروا ووقعوا في التافض.

وهكذا ضلّوا مرتين على صميدي التصوّر والسلوك كليهما؛ مرة بإقدامهم على التقسيم من حيث هو، ومرة فيما رافق التقسيم بين الله والشركاء المزعومين من الجور في القسمة نصفين والتلاعب فيما بعد.

والآية الكريمة المشار إليها هي قول الله جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ﴾ الآية.

تلكم هي الجاهلية الأولى - وما أكثر ما تتكرر شؤونها وأوضاعها، ولكن حسب المصطلحات المفتراة ومسالك التطور في الفكر الجاهلي - فيما تنزل بالفرد والجماعة إلى هذا المستوى من التفكير الذي ينعكس تلقائياً على التصرفات والسلوك، حيث الإعراض الصارخ عما قام عليه الدليل الواضح، ونطقت به الحجة الساطعة، الأمر الذي يجعل المجتمع نهياً للمقاييس المهزوزة البلهاء التي تسلك بهذا المجتمع وأبنائه الذين ينشؤون في هذه العماية الطاغية: سبيل التاكل والضياغ، ويفوت ما يفوت من الفرص التي لو ملئ الوقت فيها بالنافع المجدي لاستقامت الأمور، وسارت بُنى المجتمع على طريق القوة والإحكام.

وإلا فاية قاعدة يرضى عنها العقل السليم، تلك التي يترد إليها هذا الذي اقترفوه من جعلهم لله مما خلق بقدرته وأنعم بفضله، نصيباً أشركوا أو ثانهم فيه؟ إنه الزعم الباطل وكفى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾.

ثم ما هي الحقيقة التي استندوا إليها عند توزيع الأنصباء - على زعمهم أيضاً - فكان الجور الذي بدا عنواناً آخر مؤكداً جاهلية التقدير عندهم والتدبير، سواء أكان ذلك في القسم، أم كان في الحكم، وهو ما كشفت عنه الكلمة الهادية في ختام الآية المذكورة ﴿فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهَرُ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وانظر إلى الوجه الآخر من عطاء التعبير القرآني المعجز في ختام الآية ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾!!

فلئن كان الوجه الأول حكماً على صنيع المشركين وما اقترفوه في هذا الباب بالسوء في القسم والحكم: إن طريق المؤمنين أبداً - وفي مقدمتهم من عاشوا تنزل آيات الله البينات - يصارعون الباطل والخرافة والتناقض المزري، ويعملون على اقتلاع المساويء الضارة بالأفراد والمجتمع من الجنور...

إنه إعلان كريم عن واحد من مقومات البناء الحضاري السليم الذي يأخذ الإنسان - ذكراً كان أو أنثى - دوره المتميز المنتج فيه، وفق سنن الله في خلق الإنسان وتكوينه وما أودعت القدرة الإلهية فيه من أهلية قادرة على الانتفاع بالتسخير الذي من الله به عليه..

كما يكون المجتمع فيه على اليااسة في بناء الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. فمقيدة التوحيد التي يضئ بنورها العقل والقلب، وتطوّر الجوارح لأداء حقها كاملاً غير منقوص: هي الضمان للفرد أن يكون على الجادة في عدم العدول عن مقتضيات الفطرة، وهي استخدام العقل في ميدانه الطبيعي، والدوران مع الحق - أبداً - حيث دار.

كما أنها الضمان للمجتمع حين يسلمها قياده على الوجه الصحيح: في أن يقوم بناؤه على أفضل الأسس وأحكمها، الأمر الذي يؤهله للنماء الذي يتوخاه أهل الاستقامة المخلصون الذين توّرقهم هموم الأمة: في كل مجال وميدان، دونما جهل بالواقع أو تجاهله وما يطرأ من مؤثرات وتحديات، لا بد من مواجهتها، واتخاذ السبل الحكيمة النافعة في التعامل معها.

وإن ما كشف عنه القرآن في صنيع من أزرت بهم الوثنية، وعبثت بمقولهم، فهجروا الفطرة أن يكون لها وجود في تصرفاتهم، وراحوا يطلون عقولهم أن تعمل عملها فيما يقدمون عليه من أحكام: فاهتزت القيم، واضطربت المعايير، وراحت الطاقات تضرب في أرض الخرافة والتقليد الأعمى، ناهيك عن مصائب عدم الوضوح في الرؤية!! كل أولئك أمور ليس وراها إلا الهدم والفوضى.

وإن هذا وأمثاله من مسلك التواؤم الصادق الواعي، مع الإيمان الذي نشير إليه، والذي يعطي في نور عقيدة التوحيد ما يعطي من عظيم النتائج وأطيب الثمرات!.

وما أجمل أن يكون للعبارة التي أفاد منها المسلمون الأولون – وهم يحررون الإنسان رجلاً كان أو امرأة – من قبيد الجاهلية، وسجن الأهواء الضالة، والمماهير المضطربة المهترئة، وما يصحب ذلك من بروز معالم الهدم والتخريب..

ما أجمل أن يكون لهذه العبارة اليوم – عملاً بقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. مكانها اللائق في مناهج التزكية والتربية والإعداد، كيما يتوافر للفرد والجماعة على صعيدي البناء المثمر والإعداد المتكامل؛ ما تقتضيه هذه العملية الكبرى في عمقها واتساع مجالاتها – في النفس الإنسانية وخارجها – من وعي شمولي، ووضوح في الرؤية – ضمن المساواة وتكافؤ الفرص والتمكن من الأخذ بالأسباب، كما تقتضيه السنن الإلهية – تلك الأسباب التي تنتج بإذن الله فرص التمكين في الأرض الذي يتيح أن يكون للدعوة الإلهية سلطانها المنجي من الهلكة، وأن تكون كلمة الله هي العليا على صعيد العقيدة والشرعية والأخلاق ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].



مع سورة النحل الدلالة القرآنية على مواطن الضعف من أجل التحول إلى الأفضل

ما كنا بصدده في صفحات قريبات ونحن نصطحب الآية السادسة والثلاثين بمد المائة من سورة «الأنعام» المكية في شأن مسلك المشركين المجاهي للفطرة والعقل، والذي كان من بعض دلائله كونهم جعلوا لله مما ذرأ من الأنعام والحرث نصيباً يقابله نصيب لشركائهم، مصحوباً هذا التصرف الجاهليّ بجور في القسمة فيما بعد.. هذا الذي كنا بصدده يذكرنا بما يقرره ويؤكد به إشارة إجمالية في سورة «النحل» المكية أيضاً، حيث التنديد يضع أهل الجاهلية في هذا الباب والوعيد الشديد بالمساءلة يوم الحساب.

ذلكم قول الله جل ذكره في السورة المشار إليها: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسَاءَلُنَّ عَمَّا كُتِمَ تَقَرُّونَ ۖ﴾.

من هنا اعتبر الحافظ ابن كثير أن ما جاء هنا في سورة «النحل» نفع على تفصيله في سورة «الأنعام» قال رحمه الله: (يغبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله، وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افترروه واتفقوه، وليقابلنهم عليه، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال: ﴿تَاللَّهِ لَسَاءَلُنَّ عَمَّا كُتِمَ تَقَرُّونَ﴾.

ولعل من الخير أن نورد آية سورة «الأنعام» مرة أخرى بنصها كيما تتضح المعالم أكثر وأكثر في هذا الجانب الكريم من الهدى القرآني، وتستبين العلاقة الحميمة بين هذه الآية وما هي من نظائرها في سورة «النحل» وهي الآية الأنفة الذكر.

يقول تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

وليس من مكرور القول التذكير بما سبق أن قلناه من أن القرآن الكريم هنا يكشف للمؤمنين عامة، ولأولئك الذين كانوا يمهّدون بسلوكهم الأمثل بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام، للمجتمع المبرأ من عقابيل الجاهلية وأعرافها ذات الانتماء – في كثير من الأحيان – إلى الوثنية العمياء والمفاخرة بما كان عليه الآباء والأجداد.. يكشف لهم – وهم أصحاب الرسالة الخاتمة التي تبنى في نور هذه الرسالة. الإنسان والحياة فتحسن البناء – يكشف لهم عن أن أولئك المشركين الذين اكتنوا بنار الوثنية، قد أخطأوا وجنحوا عن طريق الهدى مرتين: مرة في القسم، لأن الله تعالى هو الخالق الرازق، وهو رب كل شيء ومليكه، ومرة حين جاروا في تلك القسمة المزعومة فجعلوا الأفضلية دائماً لشركائهم الأوثان.

والحق أن هذا الجور في القسمة التي زعموها وربّوا النتائج عليها خضوعاً للهوى وتسميولات النفس والشيطان كما أشارت الآية الكريمة: له نظائر متعددة في المعتقد والسلوك عندهم.. وهي قضية كانت لها انعكاساتها على الفرد والأسرة والمجتمع جميعاً.

ها هم يزعمون أن الملائكة عليهم السلام بنات الله؛ ومن علم اليقين وحقّ اليقين أن الله تباركت أسماؤه وصفاته، هو – سبحانه – الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. والملائكة خلق من خلقه، عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

ذلكم قوله جل ذكره في سورة «النحل»: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) .

هكذا يقسمون كما يشاؤون وتشاء لهم أهواؤهم، كما قال جل شأنه في سورة «الطور»: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ وفي سورة «النجم» نقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (٦١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٦٢) .

وإنما زعم هؤلاء ذلك — وكما تفعل الجاهلية في ظل انحسار العقل وجفوة الفطرة من أخاعيل — لأن لهم موقفاً جائراً من المرأة، لا يتسق مع إنسانيتها وكرامتها؛ ولذلك رد الله عليهم فريتهم، وسفّه رأيهم، وكشف — مستثيراً العقل للمناقشة والحكم — عن تناقض القسمة التي زعموا عندما جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن الذي يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور... عندما جعلوهم إناثاً، ثم نسيوهم إليه.. تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

ففي سورة «النحل» بعد أن عرضت الآية السابعة والخمسون لتلك القضية الأثمة المفتراة بقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) : جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) .

هكذا يزعمون الإيمان بالله وأنه الخالق البارئ، ثم ينسبون إليه الملائكة ولادة وهم إناث على زعمهم! فآين العدالة في هذه القسمة الفاسدة مع الموقف الهابط من الأنثى؛ لأنها قد تمرّض القبيلة للعار — كما يتخيلون — وليس لها تلك القوة التي هي للذكور في الذود عن القبيلة وحماية النمار، ومقارعة الأعداء! فالأنثى شيء، والذكر شيء آخر، ومع ذلك على نهجهم الهابط، لم يكتفوا بادعاء أن الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، له نسل، بل هذا النسل أيضاً من درجة هابطة — على زعمهم — وهم الإناث، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إن ما جرى عليه المنهج الرياني في الدلالة على مواطن الأذى في التفكير والسلوك، حيث يقع المجتمع تحت سلطان الجاهلية ويتلظى بنارها: يحمل القدر الوافر من إعداد الفئة المؤمنة التي كانت تمناني ما تمناني في العهد المكي: لتحمل العبء في بناء المجتمع

البديل عن المجتمع الجاهلي، المجتمع الذي يتنزه المنتمون إليه أفراداً وأسراراً عن هذا الاضطراب في التفكير، والتناقض في ترتيب الأولويات، ويرتفعون عن ذلك السلوك الذي ليس من كرامة الإنسان، ولا من العقل السليم في شيء.

ومطابع الاستمرارية في عطاء هذا المنهج المبارك الذي تضيئه في أرجائه معالم الكتاب العزيز: يوجب الاستمسك به والعمل على صياغة الإنسان والمجتمع على هديه، بعيداً عن قيود الزمان والمكان، شأن كل قضية يطلب فيها التحويل عن الجاهلية أو ما هو منها بسبب - على اختلاف الأسماء والمصطلحات التي ما أنزل الله بها من سلطان - إلى الإسلام بمنهجه الرياني وهديه القويم.

وهذا لا يعني انحساراً عما تلقى التجارب والمعاناة على طريق العاملين، والإفادة من كل ما وصل إليه العلم النافع من مراحل، بل العكس هو الصحيح، خصوصاً وأن الإسلام يقدر العلم قدره ويوليه - كما هو معلوم - الاهتمام المتميز، ويقدر التجربة قدرها، ويدعو إلى الانتفاع حتى بتجارب الماضين وسيرهم دون وكس ولا شطط، كما نرى في القصص القرآني وقصص السنة النبوية المطهرة.

فما كان صواباً تبين من خلال النص أو الاعتبار: انتفعت به الأمة وسلكت سبيله، وما كان غير ذلك انتفعت بالبعد عنه وعن كل ما يمكن أن يكون من أسبابه ودواعيه، وسبحان من قال في كتابه المحكم الآيات: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَهُ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ﴾ [فاطر: ١٠].



البناء.. وعوامل الهدم في المجتمع الجاهلي من سورتي الأنعام والصفاء مؤشرات التغيير.. والدروس

« ١ »

يقتضينا إبراز الوحدة الموضوعية فيما جاء عن بعض عوامل الهدم في المجتمع الجاهلي، في معالم الكتاب العزيز: أن نعود إلى المحور الذي هو محط الارتباط بين آيات سورتي الأنعام والصفاء وغيرهما، وذلك هو الكشف عن بعض من افتراءات المشركين، وجورهم في القسمة المزعومة بين الله الخالق الباري، سبحانه وبين شركائهم الأوثان، مضافاً إلى ذلك حرية تأنيث الملائكة، وأنهم بنات الله بزعمهم الباطل.

ففي الكلام عن عوامل الهدم المومي إليها وما يصحبها من الضياع والفوضى التي كان يئن المجتمع تحت وطأتها وهي جائحة على صدره: جرت الإشارة إلى ما يجبر ذلك من ويلات ليس أقلها إبعاد العقل ووسائل المعرفة عن مساحة التفكير السليم، وما لذلك من انعكاس على الممارسة والسلوك، الأمر الذي يأتي ضغثاً على إباله.

وقد قادنا إلى الحديث عن ذلك: ما دلت عليه الآية السادسة والثلاثون بعد المائة من سورة الأنعام وهي قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِماً ذُراً مِنَ الْحَرِّثِ وَالْأَنْعَامِ﴾ الآية.

إذ دلت الكلمات الهاديات — كما سبق أن ذكرنا — على وقوع المشركين في لونين من ألوان الضلال والتناقض ناهيك عن الافتراء:

أولهما — جعلهم لله — وهو الخالق الباري الرازق — جزءاً ممماً براً من الزرع والثمار والأنعام، يشركه فيه ما يعبدون من أوثان هي شركاؤهم على حد تعبيرهم.

ثانيهما — جورهم في القسمة بعد هذا حيث يوجهون بأيلولة الحظ الأكبر إلى تلك الأوثان على حساب ما زعموا أنه لله سبحانه..

أما آيات سورة الصافات التي أشرنا إليها من أجل التذكير بالوحدة الموضوعية في صدر هذا الحديث: فهي — كما سبق — قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاسْتَغْنِمْ أَلْرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ الآيات.

والحق أن النظرة المتأنية في منحى الهداية الذي سلكته هذه الآيات لتجلية حرية المشركين في شأن الملائكة عليهم السلام والرد عليها: تُشعر بنوع من التسمامي في التشدان المتبصر للحقيقة، والحوار المقعم بالتوثيق من خلال الواقع، والحكم العقلي السليم، أن لو كانت هنالك حرية الحركة للسليم من العقول..

الأمر الذي كان يراد — والله أعلم — للفتة المؤمنة التي تتلقى مطامع الفتنة ومكاره الابتلاء أن تبلغه، وهي تصارع الشرك والخرافة وعقائيل الجاهلية، فيما ضريت على الإنسان والمجتمع بالأسداد.

فمن خلال الكشف عن سينات المسار الذي يسلكه المشركون حين يفترون على الله، ثم على الحقيقة، ويقعون في التناقض المخزي وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وحين يكررون ذلك، بدعوى جعلهم نصيباً لله فيما ذراً ويرأ من الحرث والزرع والأنعام، ثم جورهم في القسمة، إلى افترائهم المشين بجعل الملائكة إناثاً — بزعمهم — ثم الجور بجعلهم بنات لله على هذه الصورة التي تشكل وحدة الموضوع في تلكم الوقائع جميعاً...

من خلال الكشف عن هذا كله بهذا البيان الموجّه المعجز الذي يؤدي إلى المراد بأوضح تعبير وأحكم طريقة: كان يحظى الإنسان المؤمن — ذكراً كان أو أنثى بوصفه واحداً من تلك الفئة القليلة المؤمنة الفريدة على وجه الأرض — بإعلان كلمة التوحيد والتضحية في سبيلها: ويقدر كبير من الإعداد لبناء إنسان المستقبل، ومن وراء ذلك، لبناء المجتمع الذي يكون فيه هذا الإنسان — ذكراً كان أو أنثى — لبنة قوية صالحة

تتشكل منها بُناء القوة المحكمة البناء، حيث تمتد إليه يد ذلك الإنسان الذي أسلم وجهه صادقاً لله، ورفض بإيمان وصبر وشجاعة على ساحات التصور والفكر والعمل، كل أمر يتنافى مع العقيدة السليمة ومقتضياتها.

كما تمرد — بلا فتور ولا ملل أو سامة — على تلكم الأوضاع والأعراف الجاهلية التي لم يجن منها الفرد والمجتمع إلا الصَّاب والمَلَقَم، وإلا التخلف عن الركب الحضاري الذي يفترض أن يقوده الإنسان بإيمان ووعي، ليبني ما تهفو إليه البشرية من حضارة ذات هوية جديدة تختلف بإشراق بواعثها وأهدافها عن تلكم الحضارات القائمة يومذاك، وتقيم الوزن لكل ما هو من مرضاة الله، ونصرة الحق، والحفاظ على كرامة الإنسان وحرية بسبب: الأمر الذي يؤدي إلى الطمأنينة والراحة النفسية مع التمكن في الدنيا، والنجاة من غضب الله وعقابه، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

وما أحسبني بحاجة إلى الإلحاح على أن المؤمنين على بناء الجيل المراد إعداده لبناء المجتمع، والإسهام في تجديد بناء الأمة، وتوجيه حركة الحياة وجهة النماء النافع المطرد: مطلوب منهم أن يعبدوا الطريق لهذا الجيل — ذكوره وإناته — ويرتفعوا به إلى مستوى النهوض بالعبء ضمن الظروف المحيطة والأوضاع الإقليمية والعالمية، على الوجه الذي رسمته الهداية الريانية المتصلة بوحى السماء، وأن يكونوا على يقين لا يتزعزع بنصر الله لمن يسلكون سبيل النصر وفق سننه الحكيمة التي لا تتبدل، وهو سبحانه ولي هذا النصر والقادر عليه.



مؤشرات التغير على طريق البناء ووقفه أخرى مع سورة الصافات « ٢ »

أشرت فيما سلف من الحديث إلى بعض من عطاء المعلم القرآني في آيات من واحدة من السور المكية سورة «الصافات» وما كانت تحظى به الفئة المؤمنة من خلال تلكم الآيات وأمثالها، من زاد مبارك على طريق البناء الذي كانت تكتفه - وهو يمثل صراع الحق مع الباطل في المجتمع - رواسب الجاهلية الفائضة في كثير من النفوس هنا وهناك..

إذ إن الكشف عن مسالك الهدم، وعوامل التخريب في كيان الإنسان والمجتمع - كما يبدو ذلك في آفاق القرآن الكريم ومعاله - يحمل في طياته ما يحمل من توجيه للفئة المؤمنة - وهي تنصر كلمة التوحيد - إلى ما هو الصواب في التصور والعمل والسلوك، وإلى ما هو المعيار الحقيقي لسلامة الوجهة في بناء مجتمع تتوافر له سلامة القواعد والأمن، ولا تموزه مقومات العطاء، وكل ما فيه القدرة الذاتية في شتى الميادين والمجالات، سواء في ذلك ما كان على صعيد التنقيف والإعداد، والتصوير لرحلة البناء، وما كان على صعيد الاجتماع والسياسة والاقتصاد، وما إلى ذلك..

ولقد رأينا من قبل أنموذجاً من نماذج الهدم في المجتمع: كشفت عنه سورة «الأنعام» ولهذا النموذج الكثير من النظائر..

وليس بدءاً من القول أن نشير إلى أنه ليس من التكلف في شيء - والله أعلم - : أن نحكم على ما أفصحته عنه الآية السادسة والثلاثون بعد المائة من تلك السورة المكية المشار إليها، من جمل المشركين نصيباً لله فيما برأ وخلق، من زروع وثمار

وأنعام، ونصيباً لشركائهم، وما كان من العبث العاثر عند تطبيق القسمة المزعومة على الشكل الذي أفضح عنه ما نقل العلماء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره...

أقول: ليس من التكلف في شيء — والله أعلم — أن نحكم على ذلك أنه من بعض الوجوه: عامل من عوامل التخلغل الاقتصادي في المجتمع، وفتح باب التعاليل على الحق على مصراعيه: ناهيك عما يدل عليه من ضعف في التصور، وإبعاد للعقل عن ساحة التفكير المجدي في مواجهة التقليد الأعمى للأباء والأجداد، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، وما يحمله الانصياع لما تملبه الوثنية العمياء، والخرافة البلهاء!!

وفي عود على بدء: تجدر الإشارة إلى أن الآيات التي ألحنا إليها من سورة «المصافات»: هي قول الله تبارك وتعالى — بدءاً من الآية التاسعة والأربعين بعد المائة —: ﴿فَاسْتَغْفِرُكَ رَبُّكَ الْبَاتَ وَلَهُمُ الْبُيُوتُ ۖ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۚ﴾ (١٥٤) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ لَدُنْهُمْ يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَلَهُمُ الْبُيُوتُ ۚ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ﴾ (١٥٥) ﴿أَصْطَفَى الْبَاطِلَ عَلَى الْبَاطِلِ ۚ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۚ﴾ (١٥٦) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ﴾ (١٥٧) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ۚ﴾ (١٥٨) ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ﴾ (١٥٩).

ومما يستوقف الناظر المتنبّر على الوجه الذي ينبغي: ما تحمله الكلمات الهاديات من الكشف عن الزيف المتمثل في دعوى المشركين أن الملائكة إناثٌ وأنهم بنات الله.. بأنها دعوى مفتراة باطلة من كل الوجوه.

فبعد الاستهزام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُكَ رَبُّكَ الْبَاتَ وَلَهُمُ الْبُيُوتُ ۚ﴾ (١٥٤) جاءت مطالبتهم بالدليل، فقال جل شأنه: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۚ﴾ (١٥٥).

كيف حكموا على الملائكة — الذين هم عباد الرحمن سبحانه —: أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم، وهي قضية تحتاج إلى معاناة، كما قال تعالى في سورة «الزخرف»: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَّابُ ۖ﴾ (١٩) ﴿شَهِدَتْهُمْ وَمُسْأَلُونَ ۚ﴾ (٢٠).

أرأيت إلى هذا الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد؟! ستكتب شهادتهم بذلك ويُسألون عنه يوم القيامة، والويل لهم ثم الويل، حين يسألون ولا يملكون لتصرة باطلهم من نقيير ولا قلمير!

وبعد الإشارة إلى إفكهم وكذبهم الصارخ بنسبة الولد إلى الله: جاء الإنكار الشديد عليهم بقوله تعالى: ﴿أَصْطَلَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَيْنِ ۖ﴾ (١٥٧) أي شيء يحمله جل شأنه - وهو القاهر فوق عباده - على هذا الاختيار - المزعوم؟!

ثم يستثار العقل ليعمل عمله، فيقول تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ اليس لكم عقول تفقهون بها وراء ما تقولون؟! إنكم تلقون الكلام جزافاً، وتُصبرون الأحكام على هذه الشاكلة وكانكم بلا عقول، أنتمولون هذا فلا تذكرون. وإن كان لديكم دليل فأتوا به ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ۚ﴾ (١٥٨) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٩) وأنى لهم الدليل! إن قولهم هو الإفك المفترى، وليس شبهة فيما يدعون، ولكنه عنوان التخلف الفكري، والسير وراء الهوى والبعث الجاهلي المابث، ولو أدى ذلك إلى إهدار الطاقات، وضياع أهلية الإنسان في فكره وتصوره، وما لديه من قدرة على العطاء؛ الأمر الذي ينعكس على بنية المجتمع، ويخلف وراءه عنصراً مؤثراً من عناصر الهدم والتخريب.

ومما تجدر الإشارة المؤكدة إليه: أن هذا المحور الذي ينكر أشد الإنكار ما كان يحصل من السفه والادعاء الباطل وتوعد المشركين على ذلك: يدل أعظم الدلالة على ما أعطى المنهج الرباني من أهمية لتكوين المسلم على انتظام التفكير والقدرة على محاكمة الأمور في استخدام منهجي للعقل ووسائل المعرفة المتاحة، وسير وراء الدليل، وذلك حجر الزاوية في بناء الإنسان المؤمن المؤهل لحمل العبء في رحلة البناء التي جاءت تطبيقاً عملياً للرسالة الخاتمة التي تنظم شؤون الدارين، صورة عن الإفراج بهذه الرسالة من الظلمات إلى النور.



البناء... ومؤشرات التغيير وعودة إلى سورة الأنعام

« ٣ »

كان خيراً على خير.. والرحلة مع الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة الأنعام، وهي المبدوءة بقول الله جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ الآية.. أن قادتنا هذه الآية الكريمة التي عرّت موقف المشركين بجعلهم – كما يحلو لهم أن يجعلوا – لله نصيباً فيما برأ من الزروع والثمار والأنعام، ولشركائهم نصيباً، ثم جاروا في تلك القسمة الفاسدة.. أن قادتنا إلى نظائر في آيات مكيات آخر من سورة النحل والإسراء والصفات والزخرف والطور، تكشف عن واحدة من مساوئ الجاهلية في الحكم أيضاً، والقسمة الجائرة، وهي افتراؤهم بجعلهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن، إناثاً ثم زعمهم المخزي أن هؤلاء الملائكة الذين يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون عليهم السلام: بنات الله..

وكانت لنا وقفه شبه متأنية عند الذي جاء في سورة الصفات من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْنِيهِمُ اللَّهُ رَبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (١١٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٢٠)﴾ الآيات.

وواضح أن هذه النقمة على المشركين فيما يصنعون بأيديهم من عوامل الهدم في المجتمع، وسلوك السبيل التي تبدد الطاقات، وتسير الإمكانات في قنوات الضياع والتخلف.. واضح أن هذه النقمة تحمل في وجهها الآخر خطأ من خطوط البناء للإنسان المسلم – ذكراً كان أو أنثى – والتحضير لإنشاء واقع مستدير ينور التوحيد، مشرق بأحكام العقل السليم الذي يأخذ مكانه الطبيعي في فهم نصوص الوحي، وإدراك عطائها المصنوم من الزيف وعوامل الهدم، واقع يجعل المجتمع في منجاة من

تلك المساويء التي تفتاله من الداخل، وتدفع أبنائه إلى حيث المركب الخشن الذي يودي بهم إلى شفا جرف هار، بدءاً من الفكر المتعرج عن جادة الصواب، والكلمة غير المسؤولة، والدعاوى التي يموزها - أول ما يموزها - الدليل على أبسط وجه ينشده العقل السليم. خصوصاً إذا لاحظنا أن كثيراً من خصال الخير التي كانت موجودة عند أولئك الفئام من الناس الذين يعيشون في المجتمع الجاهلي: ينحسر ظلها تحت وطأة تلك العوامل التي يدور حولها حديث البناء سلباً وإيجاباً.

وحين ينجو المجتمع من تلك العوامل التي تحمل ما تحمل من الآفات، ويتوافر له المورد البشري الذي يأخذ مكانه الطبيعي في حركة الحياة وفق منهج الله، حيث العقيدة الصحيحة والتصور السليم والفكر المنظم الذي يضع العقل والمعرفة في مكانهما اللائق ويقيم للحجة النيرة الوزن المناسب.. حين ينجو المجتمع من هذه العوامل المخلطة بتلك الآفات: حدث ولا حرج عما يكون لذلك من الانمكاسات الطيبة على شتى مجالاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وعما يكون له من أهلية الاستفادة من خيرات تفضل الله بها عليه، وقابلية لاستمرار النماء والمطاء.

وعلى هذا السنن من الرحلة مع آيات كريمات تكشف عن عوامل الهدم في المجتمع الجاهلي. وتبصر بما يرسم التنديد بها والتواعد عليها من خطوط نيرة على صعيد بناء الإنسان والتحضير للمجتمع القدوة..

على هذا السنن، نعود إلى آيات سورة الأنعام التي حملتنا إلى تلك الساحة المباركة لنقرأ في الآية السابعة والثلاثين بعد المائة قول الله جلّ وعز: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكُنْهِرِ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَلَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

والى أن نلتقي على متابعة لعطاء المعلم القرآني في هذا الأفق المشرق بالإرشاد إلى الطريق التي هي أقوم، حيث تشير الآية المذكورة بأصبع الاتهام إلى هذا الصنيع من قتل الأولاد لأسباب تنتمي إلى غشاوة الجاهلية أيما انتماء: أود أن أؤكد أن

المزيد من اصطحاب هذه الزمرة التي نحوم حولها من تلكم الآيات التي نفع عليها في سورة الأنعام وعلى نظائرها في سور آخر: يشعر القارئ المتدبر بكثير الكثير من عناية الله بعباده المؤمنين، وبخاصة تلك الفئة التي عاصرت الأحداث أو كانت قريبة المهدي بالحديث عنها، وعرفت الجاهلية، وعناصر الهدم، والتعفية على كثير من خصال الخير، تعفية أسهمت أيما إسهام فيما كشف عنه القرآن من تلك الأوضار.

وإنما كانت هذه العناية — والله أعلم — لأن الفئة المؤمنة كانت هي المرشحة يومذاك في ضوء الرسالة المحمدية: للتبصر الحضاري المتسق مع إنسانية الإنسان، وما ينبغي أن ينتهجه في تعامله مع الكون والحياة.. وأعني به التبصر فيما يعاني إنسان الجاهلية ومجتمع الجاهلية من ويلات التخلف، والضياع، وإعداد المدة من داخل النفس ومن خارجها، لحمل العبء الجديد، عبء الأخذ بأسباب التحضير لبناء مجتمع جديد تقوده كلمة التوحيد، وتنظم شؤونه بعقل وحكمة وتساق مع سنن الله: شرعة الله السمحة المباركة التي تشرق بتلك المقاصد التي ترمي مصلحة الفرد والمجتمع والأمة على خير وجه، وتوجه إلى وضع الأمور مواضعها، وتسيير الطاقات في جور من الحرية وتحقيق كرامة الإنسان: في قنواتها الطبيعية المنتجة الأمر الذي يشعر بتوجه حضاري له تحيئه في حياة الإنسان.

والمطلوب اليوم — والمسلمون على ما هم فيه من العنت والمصاعب — هم المرشحون في الحقيقة لمداواة ما يعتري البشرية من أمراض، وهي رسالة شرفتهم بها رسالة السماء، ونقطة البدء كائنة ببناء الإنسان والمجتمع على الوجه المبرر من الدخل والزيف.. المطلوب اليوم: وعي إيماني عميق لتلك المقولة التي هي واحدة من أفاق المنهج الرياني.

وإنها خطوة على طريق تنتهي بالأمة — بعون الله — إلى أن تكون صاحبة الكلمة في تقرير المصير الذي تتطلع إليه البشرية التي تعاني ما تعاني من مشكلات لم يستطع — حلها — ما أنجز العلم التقني من تقدم مذل، لأن الإنسانية بحاجة إلى شيء لا تجده إلا في الإسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد.

البناء.. ووقفه مع الآية السابعة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام « ٤ »

كما صحبنا المعلم القرآني في ضيائه وعطائه من خلال الآية السادسة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي الآية التي كشفت عن سقوط المشركين ضحايا لتزيين الشياطين والانصياع للهوى والتقليد الأعمى، فجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، وتلا ذلك ما تلاء من العبث في القسمة المزعومة والجور فيها، تقتضيها متابعة الآيات التي تدور حول هذا المحور في السورة نفسها: أن نصحبه كذلك في الآية التي تلي، لنرى واحدة أخرى من مساوئ الجاهلية التي تدل على أن كثيراً من الناس يومذاك شرعوا يسلكون طريقاً تتجافى مع إنسانية الإنسان وتقف على النقيض من سنة الله في العاطفة بين الوالد والولد والتي تعتبر بحق من أبرز العوامل التي تضعف بنيته المجتمعية والاقتصادية والاجتماعية الأمر الذي يسهم في تقويضه ويحول دونه ودون المعطاء على الشكل المطلوب، والآية الكريمة التي نمنحها والتي أشرنا إليها في حلقة أمس هي قول الله جل شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْثُوهُمْ وَلِيَلسُوا عَلَيْهِمْ ذِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

يبين الله سبحانه وتعالى أنه كما زينت الشياطين لعبدة الأوثان أن يجعلوا لله مما خلق من الزرع والثمار والأنعام نصيباً، كذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم، زينوا لهم قتل هؤلاء الأولاد من الإملاق أو خشية الإملاق. وقد جاء النهي

عن الحالتين كليهما؟ ففي سورة الأنعام نقرأ قول الله جل شأنه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ونقرأ في سورة الإسراء قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١) [الإسراء: ٢١].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد زينوا لهم أن يثدوا البنات بغصاة - أيضاً - خشية العار. وهذا كقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِيهِ التُّرَابُ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٥٩).

الا ساء ما يحكمون، فيفعلون ذلك في الدنيا متجاوزين كل حد من حدود الإنسانية في أنفسهم، جالين المساء والأذى إلى الأسرة والمجتمع، وسوء الماقبة ينتظرهم يوم القيامة، وذلك ما أُنذِر به قوله تعالى في سورة التكاوير: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٤). ترى بماذا ستجيب وهي المجني عليها من أقرب الناس إليها وهو والدها، وكان يقنيه عن ذلك أن يحسن تربيته ويسهم في تخفيف مستقعات الأذى من المجتمع، والالتزام بضوابط تحول دون التقتل الذي كان قائماً في علاقة الذكر بالأنثى يومذاك، لا أن تفتَح أبواب ذاك التقتل على مصاريعها ثم تواد البنت العطفلة خشية العار حيث يدسها أبوها في التراب.

هكذا زين للمشركين شركاءهم الشياطين قتل أولادهم ليردوهم فيهلكوهم وليلبسوا عليهم دينهم - ليخلطوا عليهم دينهم - فاحتياطاً لعدم الوقوع في الإنفاق الكثير يقومون فيما هو أشد وأنكى وأبلغ في الأذى الاجتماعي والاقتصادي فيقتلون الأولاد الذين كان من الممكن أن يكون الواحد منهم طاقاً اقتصادية نافعة تسهم في انتشال الأسرة من الوهدة، كما تسهم في رخاء المجتمع، وانعكاس ذلك على البنية الاجتماعية لا ينكره إلا مكابر. ثم إن دواء التخلف الاقتصادي: ليس قتل الأولاد ولكنه إتيان الأمور من مداخلها الطبيعية.

وخلطوا عليهم دينهم أيضاً بأن زينوا لهم وأد البنات خشية العار فأوقمهم في تلكم الطامة التي لا يقرها عقل سليم ولا ترضى بها عاطفة أبوية مجردة، فالغيرة على المرض: مقتضاها – كما ذكرنا آنفاً –: حسن التربية والإعداد والقضاء على مناهذ الشر في المجتمع، وليس فيما يصنعه من خضعوا لتزيين الشياطين وتجاوزوا منطقة الإحساس الأبوي بكاملها حتى أصبحوا وكأنهم خشب مسندة.

أما بعد: فأني عنصر من عناصر الهدم في المجتمع أسوأ من هذا الذي زينه كثير من المشركين شركاؤهم، حيث يُقدّم الواحد منهم على قتل ولده لسبب موهوم.. ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكثيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

ولقد خاض من شهدوا التنزيل معركة التغيير، وتجاوزوا هذا الواقع السيء، وأنشأوا واقعاً جديداً في ظل مجتمع برأته يد الإسلام الحانية من تلكم الموامل الهدامة المزعومة واستدركتها – والحمد لله – بموامل العقيدة والتماسك، فكان بعد الهجرة ذلك المجتمع القادر على المعطاء المؤهل في الميادين كلها للنماء وسبعان من أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً، وهو المحمود على كل حال.



البناء في مواجهة إذابة الإنسان والمجتمع ووقفه أخرى مع سورة الأنعام

« ٥ »

هذا موعد اصطحابنا لواحد من المعالم القرآنية في متابعة لرحلة قصيرة نفذ فيها السير مع آيات مباركات من سورة الأنعام – وكل أي الكتاب مبارك ميمون – حيث الكشف عن عدد من عوامل الهدم في المجتمع الجاهلي، وما يحمل ذلك من توجيه الفئة المؤمنة إلى بناء الإنسان، ومن وراء ذلك إلى بناء المجتمع كيف يجب أن يكون بالعمل على أن تُجثت تلك العوامل الهدامة من جذورها على هدي الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» الكلمة التي شاء الله أن تتسع لميادين الحياة كلها، تبنيتها على الخير وتفذوها دائماً بما ينمي القدرة على العطاء الثمر المجدي في إطار من الشمول والتكامل تبدو ملامحهما في كل مجال وعلى كل صعيد.

وقد ألقينا عصا التسيار عند الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة من السورة المشار إليها سورة الأنعام ذلكم قوله تعالى: «وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزْعِمُهُمْ وَأَنْعَامٌ حَرَّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افِرَاءٌ عَلَيْهِ سِجَرُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴿١٦٨﴾».

لا يذكرون اسم الله عليها. تشير الآية الكريمة إلى صورة أخرى من صور الجاهلية يمثلها العدوان على المجتمع في بنيته الاجتماعية والاقتصادية، والعدوان على العقل في الحيلولة دونه ودون التفكير المنظم والبعد عن التناقص. ينتظمها مع ما سبقها مما أشرنا إليه فيما سبق من القول ما كان يتخبط به المشركون من ظلام

الوثنية وشر الخرافة وتحويل الشياطين وهي في الحقيقة صورة ذات ثلاث شعب: فالأولى التي لا يتسع المقام لذكر غيرها الآن: يعلن عنها قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.

هكذا يضيق المشركون واسعاً، فيجعلون من بعض الأنعام والزروع والثمار حبساً على آلهتهم، ينتفع بها خدام الأصنام دون غيرهم، لذا فهي حلال للآلهة — على زعمهم — حرام على الآخرين.

من أجل هذا لا يطعمها إلا من يشاؤون وفق ما سولت لهم أنفسهم والشياطين. قال السدي: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يقولون حرام أن يطعمها إلا من شئنا... رواء الطبري.

وهذا الخلل الذي نشهده في هذا التصرف كما نطقت الآية الكريمة، والذي ينعكس انمكاساً مباشراً على كل من البُنيتين الاجتماعية والاقتصادية، بدءاً من الأسرة؛ لأن أفرادها قد يحرمون من الرزق الذي يتحرك بين أيديهم وعلى مشهد منهم؛ لأنه حَجَرٌ على الآلهة، فضلاً عن غير أولئك الأفراد نم أبناء المجتمع، تعاوناً وتكافلاً...

هذا الخلل الذي يشهر في الوقت نفسه إلى إهمال العقل عند التصرف: قد ندّد به القرآن الكريم في أكثر من موطن، فمع الذي يرى في سورة «الأنعام»: نقرأ في الآية التاسعة والخمسين من سورة «يونس» — وهي سورة مكية أيضاً — قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ إِنَّ لَكُمْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ ۝٥٩﴾.

ثم توعدهم على هذا الافتراء بما يكون لهم من سوء العاقبة يوم القيامة، فقال تعالى في الآية التي تلت: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾.

ولكم يكون صنيعنا عنوان استقامة على الجادة تربية وإعداداً وثقيفاً: إذا نحن قرأنا وقائع التعرية لمواقف المشركين الهدامة وبإيمان، وتبيناً من خلالها – ونحن نتطلع إلى التجديد في أساليب التحويل والبناء – أي مرتقى كانت ترتحل إليه الفئة المؤمنة – التي هوام حركة العاملين فيها: الإنسان الحضاري -: لتقيم البنيان السليم على هدي ما أعلن القرآن الكريم – وهو كلام رب العالمين – من التنديد بمعامل الهدم لمقومات الإنسان والعبث الفوضوي بشؤون المجتمع الذي يعيش فيه هذا الإنسان، ومن اجتثاث الأذى من داخل النفس، ومن المجتمع على حد سواء..

أقول: ويزداد صنيعنا قوة: إذا امتد الأمر بمنهجية، ووضوح رؤية إلى العمل والمزاولة اليومية لشؤون الحياة ضمن كل ما يكون من ظروف وملابسات والله الهادي إلى سواء السبيل.



البناء... ومعالجة الهدم وسورة يونس

« ٦ »

كانت لنا في كلمات قريبات محاولة تهدف إلى التعرف على صورة أخرى من صور الهدم في المجتمع الجاهلي، حيث إلحاق الأذى بكل من البنتين الاجتماعيتين والاقتصادية فيه، والخضوع للتقليد الأعمى وتسويل الشياطين بدلاً من الاحتكام إلى العقل السليم وما تقتضيه دعوى المشركين إيمانهم بالله. والصورة المشار إليها هي ما جاء بشأن هؤلاء المشركين في الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة من سورة مكية هي سورة الأنعام. من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سَجَيزٌ بِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

وقد هدانا المعلم القرآني إلى أن هذه الصورة فيما تمثل من عوامل التخلخل في بنية الفرد والمجتمع، ذات شعب ثلاث: أولاها ما سَوَّلَ الشيطان لأولئك المشركين من جعل زمرة من الأنعام والزرع والثمار التي رزقهم الله بها حِجْرًا حراماً لا يطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم وهم الآلهة حيث ينتفع بها سدنة الأصنام كما في بعض الروايات، ذلك ما جاء في مستهل الآية من قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِزَعْمِهِمْ﴾. فهم يمنون الحقوق أصحابها ويحدثون بذلك ما يحدثون من خلل اجتماعي واقتصادي، ويقعون في التناقض حين يزعمون الإيمان بالله ويفترون على الله الكذب، فيشرعون من الأحكام ما لم يأذن به سبحانه. وفي الوقت نفسه يجفون العقل السليم ويحولون دونه ودون أن يعمل عمله في صياغة التصرف المطلوب الذي لا ينأى عن ساحة الإيمان بالله، ولا يصوب إلى المجتمع سهام الأذية من هنا وهناك.

والواقع أن سوء الصنيع المشار إليه من المشركين لم يقتصر التقديد به على ما نشهد في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثَ جِبْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ بل كان ذلك - كما أشرنا بالأمس - في مواطن عدة من كتاب الله عز وجل، فسمع الذي نجد هنا نقرأ في سورة مكية أخرى هي سورة يونس قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ الرزق من عند الله، وما دام الأمر كذلك: فالمفروض أن يلتزم في التحليل والتحريم ما يأذن به الله الرازق سبحانه. ولكن المشركين جعلوا من هذا الرزق حلالاً وحراماً حسب أهوائهم وما سولت لهم شياطينهم، ولذلك جاء توبيخهم والإنكار عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ الواقع أن الله لم يأذن لهم بهذا، وهم فيما يحكمون بالحل أو الحرمة مفترون على الله، فمن أين لهم هذا التقسيم الذي قسموه في التحليل والتحريم فأساءوا إلى الفرد والجماعة وعرضوا بنيان المجتمع للتدخل الاجتماعي والاقتصادي، ويمد ذلك كله يستندون تلك الأحكام المفتراة إلى الله عز وجل.



البناء.. وإثارة بؤادر التفسير وسورة المائدة

« ٧ »

في الطريق إلى تبين بعض من الملامح التي اتسم بها المجتمع الجاهلي، والتي كانت لها — كما رأينا في سورة الأنعام وغيرها — صور تلحق الأذى بالفرد وبالمجتمع نفسه، لا ينجو من ذلك واحدة من النواحي الاجتماعية أو الاقتصادية أو الفكرية..

في الطريق إلى ذلك صبحنا مطلع الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله جل شأؤه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْنَاهُمْ وَأَنْعَامٌ حَرَّمَتْ طَهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْعَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ (١٣٨). وقد قادتنا الكلمات الهاديات بشأن الإنكار على المشركين قولهم: (هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) إلى ما جاء في الآية التاسعة والخمسين من سورة يونس من قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْعُرُونَ﴾ (٥٦). وتلا هذا التنديد بإعطائهم أنفسهم حق التحليل والتحرير والافتراء بأن صنيعهم من عند الله... تلا ذلك ما يرى من الوعيد الشديد في قوله جل شأنه: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْعُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٠). إن ما يقتضيه شكر المنعم المتفضل سبحانه أن تستخدم نعمه وفق ما يرضيه جل شأنه، ولكن المشركين بدلاً من الشكر في تحقيق العدالة بما يمود على المجتمع بالنماء والخير، بدءاً من الأسرة التي هي أول لبنة من لبناته.. بدلاً من ذلك شرعوا من عند أنفسهم أحكاماً جائرة في تحليل الاستمتاع ببعض الرزق من الأنعام وتحريمه، فكان أن كشف الله سوء صنيعهم وتوعدهم عليه بسوء العاقبة يوم الدين.

وقد كان لهذا المسلك في المنهج الرباني، الأثر البالغ في تحرير الفئة المؤمنة فكراً وتصوراً من تلك المساوئ الجاهلية، الأمر الذي جعل من ذلك معضناً من معاضن التحضير للبناء والقدرة – بإذن الله – على تجاوز الواقع الجاهلي وإنشاء واقع – جديد ينبثق عنه مجتمع ليس من تلكم الأوضار العابثة التي خلفتها الوثنية ومجافاة الفطرة والعقل: هي قليل ولا كثير.

ولعل من الخير ونحن نصحب المعلم القرآن في تجليته لأبعاد تلك الشعبة من شعب الصورة المشار إليها في الآية التي نحن بصددنا من سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْنَاهُمْ﴾ لعل من الخير أن تنتقل إلى سورة مدنية هي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم وهي سورة المائدة، لنرى لوئاً آخر من ألوان الإنكار والتفريع للمشركين على صنيعهم واقترائهم على الله في التحريم والتعليل من عند أنفسهم، وكما سولت لهم شياطينهم. ذلكم قوله تعالى في الآية الثانية بعد المائة: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ١٠٦﴾ ^(١٠٦) فالإشارة واضحة إلى مُسَمَّيات من الماشية أعطوها تلك الأسماء، وشرعوا لها أحكاماً في الحل والحرمة، ولا يخفى ما لذلك من انعكاس سيء على البنيتين الاجتماعية والاقتصادية، ناهيك عن دلالاته الصارخة على إهمال العقل والكسل الفكري المحفوظ. فالباحيرة: هي التي يُمنع ذُها من أجل الطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لأكلتهم لا يحمل عليها شيء، والوصيلة: الناقة البكر ت بكر في أول نتاج الإبل ثم تنثي بعد بأنثى، كانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر، أما الحام: فهو فعل الإبل إذا قام بمهمته الفريضة في بقاء النوع تركوه للطواغيت، وأعضوه عن الحمل فلا يحمل عليه شيء، وسموه الحامي.

ألا وإن الحرص على بنيان سليم للإنسان والمجتمع: يجعل الإفادة من هذه التعمية لمعامل الضعف في المجتمع الجاهلي: ضرورة لا نعدى عنها؛ فما أكثر ما تضع جاهلية اليوم من المراقيل للعيولة دون تجاوز للواقع المتخلف، وإنشاء واقع تحكمه شريعة الله، وينأى به البناء المخلصون عن مسالك التخلخل والتقليد الأعمى لمن تقطع ما بينهم وبين الهداية من أسباب.

الشعبة الثانية من شعب الهرم وإثارة بؤادر التغيير في وقفات مع آيات

«٨»

وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول على شعبة من شعب ثلاث لصورة من صور المسلك الجاهلي وصنيع المشركين الظالم بشأن زمرة من الأنعام والزرع والثمار، حيث التحليل والتحريم وفق التقليد الأعمى وتسويلات الشياطين، ولك فيما نطق به مفتتح الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزْعِمُهُمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سَجَازٍ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

والشعبة الأولى التي كنا بصددنا من قريب هي ما دل عليه قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزْعِمُهُمْ﴾، ونحن على موعد مع اصطحاب المعلم القرآني الكريم للإلام بما تستكمل معه الصورة الجاهلية من صنيع المشركين من الإضرار بالمجتمع وترسيخ عوامل الهدم في بناء الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

فبعد قول الله تعالى في شأن المشركين وفعالهم المشار إليها: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزْعِمُهُمْ﴾، جاء قوله جل شأنه في الكشف عن طبيعة أخرى: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وهي الشعبة الثانية من الصورة المومي إليها آنفاً. وهذه الأنعام التي حرمت ظهورها فلا يجوز لأحد ركوبها هي - كما قال السدي - البحيرة والسائبة والوصيلة والحام - فكل ما أطلقوا عليه واحداً من هذه الأسماء، يمتنع ركوبه والانتفاع به، وقد أشرنا فيما سلف إلى ما جاء في سورة المائدة من إنكار الله على المشركين هذه التسميات وما ترتب عليها، فالحال تعالى لم يسم شيئاً من ذلك، ولكنه الافتراء والكذب على الله من قبل المشركين.

ذلك قول الله تبارك وتعالى في الآية الثالثة بعد المئة من السورة المشار إليها: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾. والجمل هنا هو التسمية فאלله تعالى ما جعل - ما سمى - من واحد من هذه المسميات التي اتصفت بصفات جعلها على زعمهم محرمة الركوب على الناس والانتفاع بها.

ونحن واجدون أنه بعد أن ختمت الآية ببيان أن صنيع المشركين محض افتراء وخبال في العقل. جاءت الآية التي تلي منددة بإعراضهم عن الحق وإصرارهم على التقليد الأعمى للأباء والأجداد ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يهتدون. ذلكم قوله سبحانه في الآية التي تلي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

إن القرآن الكريم كما لم يرض لهم عدوانهم في التحليل والتحرير وإسائتهم للمجتمع بذلك: كشف عن سبب خطير من أسباب هذا الانحراف الذي يحول دون ذلك المجتمع ودون قدرته على المعطاء، ونمائه الاقتصادي والاجتماعي، ذلكم هو التقليد الأعمى للأباء والأجداد ولو كان هؤلاء المقلدون على غير علم ولا هي ﴿لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

وهكذا وَجَّهَ المؤمنون البُناة إلى كل ما فيه تحرير الإنسان من الوثنية وذيلوها، والخرافة ومسايرها، والتقليد الأعمى ومداخله ومغارجه وبذلك كانوا - يعون الله - أقدر على بناء مجتمع لا يعموزه التماسك والإحكام. ولا يشكو هزالاً هي ميدان من الميادين. وكل أولئك أمانة في الأعناق تدعو إلى التزام المنهج الرياني فيما يتطلع إليه المصلحون من بناء يحفظ على الإنسان وجوده وحرية وكرامته. ويتيح له فرصة العمل والإنجاز، وفي إقامة المجتمع الذي تقوده كلمة الله ويفيد من كل ما وصل إليه العلم والتجربة، مع الحفاظ على سلامة الانتماء الصادق إلى خير أمة أخرجت للناس وأصبحت مؤتمنة على الشهادة يوم القيامة على الناس.

البناء... وشعبة الهدم الثالثة كما دلت

عليها سورة الأنعام

« ٩ »

في متابعة لاصطحاب تلكم الآيات من سورة الأنعام التي أشرنا إليها من قريب بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المئة وعطاء المعلم القرآني فيها بشأن حكم القرآن على بعض من تصرفات المشركين المؤذية للفرد والجماعة، والمعلقة لكثير من الطلاقات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.. في متابعة لهذا الاصطحاب الكريم، وحرصاً على تبيين ما يبدو لذلك الحكم القرآني بشأن تلك التصرفات الهدامة، من انعكاس على مسيرة البناء الخيرة والتحضير لإنشاء المجتمع المسلم الذي يتسامى عن أضرار الجاهلية في بنيانه، ويتخذ ما يتخذ من مسالك الهدى وتتمية التعاون المشر بين أبنائه.. نعود اليوم إلى الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة وهي قول الله تبارك أسماؤه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثْ حِجْرًا لَا يُطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

ولقد عرضنا فيما سلف من القول لشعبتين من هذه الصورة الجاهلية التي تكشف عنها الآية الكريمة هما: جملاً لمشركين زمرة من الأنعام والزروع والثمار حِجْرًا حراماً لا يطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم؛ فهي للآلهة يفيد منها سدنة الأصنام، وجمْلُهُمْ — كذلك — زمرة من الأنعام وضموها لها أسماء معينة هي: البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.. محرمة الركوب والانتفاع.

وذلك مادل عليه من الآية الكريمة قول الله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثْ حِجْرًا لَا يُطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾.

ونحن اليوم على موعد مع قوله سبحانه: ﴿وَأَنعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا خِزَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وهو ما يدل على الشمبة الثالثة من الصورة الملصق إليها، صورة المدوان على المجتمع، إهداراً لقدر لا بأس به من الطاقة الاقتصادية، وتجاوزاً على الحقوق، وترسيخاً لإبعاد العقل عن أن ينير السبيل، كيما تكون تصرفات أولئك الجاهليين على قدر من الاستقامة في النظرة إلى الإنسان، وفي البعد عن المواقف التي تتناقض مع دعواهم الإيمان بالله.

وتلك الشمبة تتمثل في أنه كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها، ولا في شيء من شأنها – كما قال السدي، لا إن ركبوها ولا إن حملوا ولا إن حجوا ولا إن عملوا شيئاً، وعند الذبح ينبحونها باسم الأصنام لا باسم الله، وقيل: لا يحجون عليها ولا يركبونها.

هكذا تعطينا تلك الشمب الثلاث للصورة المعنوية سائلة الذكر ما يكشف عن الهوية التي تردى فيها أولئك الذين عبدوا الأوثان من دون الله فعمطوا عقولهم وخضعوا لسلطان الهوى والخرافة والتقليد الأعمى.. وما يؤكد لدى الناظر المستبصر في الآية الكريمة: أن المحاصرة الفكرية – على الأقل – لتلك الانحرافات التي جرت على المجتمع ما جرت من ألوان الضعف الاجتماعي والهزال الاقتصادي، ناهيك عن التخلف الفكري... أن هذه المحاصرة كانت من أقوى الحواجز التي جعلت الفئة المؤمنة ثابتة الخطأ في رحلة البناء التي التمع ضياؤها منذ العهد المكّي. وإذا كان من المسلمات لدى أهل الإنصاف أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها: فليكن أولئك الذين تثقل كواهلهم هموم الأمة، على بصيرة من أمرهم لا يعجزون عن المرتقى الذي رسمه المنهج الرياني وصنع أسلافنا على هديه التاريخ يذكرون أبداً قول الله جلّت حكمته: ﴿الَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المنكوت: ٦٩].



التصور الصحيح.. في البناء والآثار الطيبة لنقض مسالك الجاهلية « ١٠ »

ما نزال مع الحديث عن موقف التنزيل الحكيم من عوامل الهدم التي كانت يصنعها تصرف المشركين فيما رزقهم الله من أنعام وزروع وثمار، تحليلاً وتحريماً لم يأذن بهما الله يمنان أصحاب الحقوق حقوقهم، ويتسببان في تعريف البنى الاجتماعية والاقتصادية للمتاعب، ما يكشفان في الوقت نفسه عن مدى التناقض في إدارة الشؤون اليومية المتجددة، وكيف أن العقول مضروب عليها بالأسداد.

وهذا الأمر بكلياته وجزئياته يقودنا على ساحة الاجتماع والاقتصاد والفكر إلى متابعة المعلم القرآني في توجيهه مسيرة البناء التي بدأت خطواتها منذ العهد المكي بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، فالتنديد بأي عامل من عوامل الهدم وإثارة الهمم للقضاء عليه، إسهام في تحديد المعالم لتلك المسيرة الخيرة؛ ما الذي يجب أن يكون وما الذي ينبغي أن يجتنب.

كل أولئك يهديننا إلى آيات صعبنا بمضها في حلقات سلفت وكان منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ لَهُمْ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَلَرْهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

وآخرها سعدنا بصحبته من تلك السورة المباركة قوله جل ذكره بعد ذلك: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثَ حَبْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

وقد عرضنا قريباً لتلك المساءة الجاهلية التي كشف عنها قوله تعالى: ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾ وهي الشعبة الثالثة لواحدة من صور الهدم التي دلت عليها الآية الكريمة من صنيع المشركين، كما يتبين المؤمنون طريقهم، ويتنبهوا إلى الركام الذي عليهم أن يزيعوه ليرفضوا قواعد البناء السليم، ويوجهوا الموارد البشرية والاقتصادية وجهتها المنتجة المثمرة، ويتبعوا للعقل وموارد المعرفة كلها أن تعمل عملها على هدي الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقد كانت الكلمة القرآنية صريحة في أن المشركين يفعلون ما يفعلون من المؤذيات لأنفسهم وللجميع، ومن ذلك أن طائفة من الإبل لا يذكرون اسم الله عليها عند الركوب، أو الحج، أو الذبح، بل يذكرون أسماء الأصنام، ويفعلون ذلك لأنهم يزعمون أن ما يجنونه هو حكم الله وذلك محض افتراء. ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾ ولذلك ختمت الآية بهذا الوعيد الشديد الذي نجده في قوله جل شأنه وهو الغالب على أمره: ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ إن الله لم يأذن بصنيع المشركين فيما أحلوا وفيما حرموا من الأنعام والزروع والثمار وفيما خصوا كل طائفة من تلك الأنعام بسمات هي من حكم الأهواء وتسويلات الشياطين، لم يأذن بذلك ولا رضيه منهم سبحانه وليس ذلك من دين الله وشرعه في شيء، ولذلك سيجزيهم بما كانوا يفترون عليه ويستندون إليه، وانظر إلي طي الزمن أمام قدرة الله تعالى فالسين للمستقبل القريب والمقصود شدة الوعيد.

ألا وإن القرآن الذي لا تتخفى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد: أمانة في الأعناق، ومسؤولية لا يفني امرأ مهما كان شأنه ودعاواه، تجاهلها، والموقف المناهض لهذه المسؤولية له آثاره التي لا تخفى في الدنيا ضعفاً وتمزقاً يصرخ الواقع بهما أما

هي الآخرة: فشر عاقبة وأسوأ مصير، ومعالم الكتاب العزيز ليمت كلمات على
ساحة الوعظ الأخلاقي متروكة لاختيار المكلف إن شاء عمل بها وإن شاء أعرض،
ولكنها منهج الخالق الذي على المكلفين أن يلتزموه ويعملوا به، وبذلك يظفرون بمز
الدنيا وحسن العاقبة يوم الدين.



البناء.. وثمرات المعاصرة للتصرفات الجاهلية وسورة الأنعام

« ١١ »

نحن على موعد مع متابعة النظر الذي تتسع له دقائقنا هنا في تلك الطائفة من الآيات الكريمة – التي تهدم لونا من ألوان الوضع الجاهلي على صعيد البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية – في سورة الأنعام والتي تسهم في البناء المسلم من حيث التحضير للمجتمع الأمثل في قادمات الأيام. وقد وضعنا الرحلة على خاتمة الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة منها. والآيات التي نعني: هي قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَلَنَرَّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْعَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

وإذا كان التنديد بهذه المساوئ الجاهلية، قد أظفر المؤمن وتبين الطريق إليها في رحلة البناء، ودلهم على ما يجب أن يتواهر لبناء الإنسان والمجتمع القادر على العطاء من شرائط، لعل من أهمها إبعاد الإنسان والمجتمع عن كل ما هو من تلك الأوضاع الجاهلية المستكبرة بسبب.

أقول: إذا كان التشديد بتلك المساوي قد أعطى ما أعطى للمؤمنين يومذاك فإن دلالاته المنهجية على صعيد التحديد لموامل الهدم، وما يجب أن يكون عليه البناء: قائمة على طريق المؤمنين حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن الأمر يتحرك أول ما يتحرك على محور العقيدة التي هي الأصل فيما يراد من بناء الإنسان والمجتمع، والسلوك بالأمّة طرائق الوجود الذاتي الذي أدى التزحزح عنه إلى ما أدى من المتاعب التي يضح بها واقع اليوم.

وما نحن أولاء نتابع النظر فيما جاء بعد الآيات التي ذكرنا لنقرأ قول الله تعالى في الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِثْقَ فِهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افِرَاءً عَلَىٰ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾.

والى أن نلتقي على نظرة عجل لا يتسع الزمن لأكثر منها في هذا المقام، أود الإشارة إلى أن هذه الجنايات على الفرد في فكره وسلوكه وعلى المجتمع في ميادينه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.. هي صورة من الجاهلية العمية يومئذ.

والمنهج الرياني في الكشف عنها ومحاصرتها وبيان عدوانها على عقيدة التوحيد وعلى الإنسان: يهديننا إلى ما يجب أن يكون عليه التخطيط في مواجهة التحديات الجاهلية في هذا العصر، وهي تحديات يعاني منها الإنسان المسلم والمجتمع المسلم بل والأمة المسلمة أيضاً، والخمسة الراسخة الثابتة على طريق المواجهة تبدأ من وعي المشكلة فيظل العقيدة، والأخذ بالأسباب لمواجهتها، كيما يكون البناء سليماً لا تتهدده عوامل الأذى من هنا وهناك والله المستعان وعليه التكلان.



سورة الأنعام... وصورة من النظر الجاهلي إلى المرأة في مرحلة التحضير للبناء. « ١٢ »

أن يُمنَى القرآن في العهد المكي، والصراع بين الفئة القليلة المؤمنة وبين المشركين العتاة على أشده، ومحور الصراع اقتحام معاقل الوثنية في الإنسان وتحويله إلى التوحيد... أن يعني القرآن في هذا الوقت المبكر من نزول الوحي بأمر المجتمع والكشف عن فساد تلك التصرفات الجاهلية التي تسيء إلى بنيانه اقتصادياً واجتماعياً، كما ترسخ التخلف الفكري كذلك: قضية تستوقف الناظر المتأمل، وتدل أوضح الدلالة على أن هذا الكتاب الكريم من عند الله، وأن الرسالة التي هي مضموناته رسالة شاملة لبناء الإنسان وبناء المجتمع والأمة، وتعمية الطاقات والفاعليات، وتسييرها في قنوات مأمونة تعود على الفرد والجماعة بالخير والنماء.. كل أولئك في ظل عقيدة الفطرة عقيدة التوحيد التي تكرم الإنسان وتدعو إلى إعطاء العقل مكانته في فهم الوحي، وإضاءة طريقه في أن يكون على الجادة، متنقياً الخطأ بعيداً عن التناقض في تصرفاته وما يصدر من أحكام.

أقول هذا ونحن على موعد نتابع من خلاله رحلتنا مع آيات من سورة الأنعام كانت أولها الآية السادسة والثلاثين بعد المئة: تكشف عن مواجهة مبكرة لصُورٍ جاهلية تبدو بالغة الإساءة إلى الفرد والمجتمع – كما أشرنا إلى ذلك في كلمات سلفت من قريب – وقد ألقينا عصا التسيار عند الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة وهي قول الله جل وعز: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُمُ فِيهِ شُرَكَاءُ سَجَّزِيهِمْ وَصَفَّهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٢٣﴾.

أرايتم كيف كان يتخطأ أولئك الذين تقطع ما بينهم وبين هداية الله من أسباب، فأعرضوا عن توحيد الله، وتدحرجوا في مستنقعات الوثنية والخرافة، فكان هذا التيه الفكري الذي أثمر هذا الموقف المخزي من المرأة بعامه ومن الأزواج بخاصة.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ قال العوفي – كما روى الطبري – عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشريه ذكراهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك، وهذا المروي عن ابن عباس قاله السدي أيضاً، وقال الشعبي: البهيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء، وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وفي رواية للطبري أيضاً عن ابن عباس وقتادة والشعبي: أراد أجنّة البهائم والسواشب: فما ولد منها حياً فهو خالص للرجال دون النساء، وما ولد منها ميتاً أكله الرجال والنساء جميعاً: ﴿وإِنْ يَكُنْ مَيِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ ترى: أي سند لهؤلاء المشركين من دين أو عقل استندوا إليه حين فرقوا بين الرجال والنساء في هذا الأمر؛ ما ولد حياً لا يأكله إلا الرجال، وما ولد ميتاً جاز أن يشترك في أكله النساء!! ولبن بعض الماشية أيضاً خاص للذكور دون الإناث؛ إنها الجاهلية التي تجاوزت الحدود التي أقام الله عليها بناء الإنسان، فالمرأة والرجل يرتدان – كما قرر القرآن – إلى أصل واحد، وأهلية التكليف قائمة عند المرأة كما هي قائمة عند الرجل؛ وبناءً على ذلك كان ما نرى من التعرية لهذا المسلك الجاهلي المجاني لحكمة الخلق. الممتن للمرأة في إنسانيتها، والاستكار لتلك النظرة الهابطة لها، النظرة التي لا تستثني في سوئها لا الأم ولا الزوجة ولا البنت.. الخ.

إلا ليت أبناء الجيل المعدّ للبناء وبناته، يعمدون قراءة هذه المواقف القرآنية من العدوان على الإنسان وعلى المرأة بخاصة، كيما يكونوا أسلم تصوراً وأكثر إنصافاً، وأقدر على مواجهة التحديات على ساحة الفكر والتطبيق.

مرة أخرى.. وقفة مع سورة الأنعام

والظلم الجاهلي للمرأة

« ١٣ »

كانت لنا من قريب وقفة يسيرة مع المعلم القرآني في الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تبارك وتعالى بشأن المشركين في العصر الجاهلي وتقريظهم المخزي بين الذكور والإناث في بعض المطاعم مما رزقهم الله ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْهُمْ فِيهِنَّ شَرْكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٣٩﴾.

وقد رأينا بعض الروايات التي تكشف عما عنت الآية الكريمة من الأنعام المقصودة، والمراد بها في بطونها، وكان من ذلك ما روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ الآية فهو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكراهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك، وهنالك رواية عن مجاهد حددت المقصود من الأنعام في الآية وأنه البهيرة والسائبة.

على أية حال: الآية صريحة في الدلالة على هذا الظلم الجاهلي، الذي يكشف عن نظرة هابطة إلى المرأة جعلت المشركين يسيؤون التصرف ويقولون هذه القولة التي تتنافى مع كرامة الإنسان ذكراً كان أو أنثى فضلاً عن هذا العنوان المخزي في التقريظ.

أجل: الآية صريحة لا تقبل أي احتمال في أنهم كانوا يفعلون ذلك، ولا من ينكر ولا من يتمر وجههم على الأقل - إشارة إلى عدم الرضى.

فنحن نقرأ بيان القرآن الساطع ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾.

ونقرأ بعد ذلك: ﴿إِنْ يَكُنْ مِثَّةَ فِهِمْ شُرَكَاءُ﴾. انظر إلى ما أعطوه لأنفسهم من سلطة التحليل والتحرير — وهو أمر بالغ الخطورة — خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا. والحكم الآخر وإن يكن ميثة فهم فيه شركاء. وأشد من هذا: إنهم يفترون على الله فينسبون تلك الأحكام إليه سبحانه.

والذي ما بد من التنويه به من خلال النظرة المستبصرة إلى ما يعنيه تنزل هذه الآيات الكريمات في تلك المرحلة من مراحل الدعوة.. الذي ما بد من التنويه به أن ألوان الأذى والفتنة التي كانت تنصب على الفئة القليلة المؤمنة يومذاك: لم تكن حائلاً دون إشعار هذه الفئة بأن عقيدة التوحيد التي أكرمها الله بها، عنوان متسع الأبعاد عميق الدلالة على الإصلاح الجذري والتحويل الذي يتسع للإنسان والحياة.. فالآيات التي تنزل لاجتماعات الشرك من النفوس والدعوة إلى التدبر والتفكير وإحلال العقل مكانه اللائق من أجل الإيمان بالله... هذه الآيات تصعيبها آيات كريمات أخرى، تتعلق بإصلاح المجتمع بدءاً من الكشف عن المساواة التي ولدتها الوثنية والخرافة والخضوع لتسويات الشياطين.

فأله تبارك وتعالى لا يرضى لعباده أن يمتنوا المرأة ويقوموا هذا التفريق المشار إليه في الآية على صعيد الحل والحرمة، فطعام خالص للذكر محرم على الأزواج، وإن كان ما ولدت واحدة من تلك الأنعام ميثة، اشترك في أكلها الذكور والإناث. والله لا يرضى لعباده أن يفعلوا ذلك فضلاً عن أن يوغلوا في المساءة فيفتروا عليه جل شأنه زاعمين أن هذا التفريق في المعاملة بين الذكور والإناث من أحكامه جل وعلا، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى مهتداً متوعداً: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إنها المنهجية في البناء المتكامل للإنسان والمجتمع والحرص على أن يأخذ كل من الرجل والمرأة مكانه الطبيعي في بناء أسرة متماسكة قوية تكون لبنة صالحة في مجتمع متماسك قوي يقوده الإيمان وتملاً الشريعة السمعة ميادينها كلها بالخير والتماء وفي ظل عدالة مطلقة تتيج لكل من الرجل والمرأة أن يأخذ دوره في إحكام البناء، وفق أهليته التي أوجده الله عليها دون وكس ولا شطط.

البناء.. والمؤيدات القرآنية في مواجهة الظلم الاجتماعي « ١٤ »

كانت لنا فيما سبق من القول: وفقات آية كريمة من سورة الأنعام وأعني بها الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة التي تشير فيما تشير إلى صورة جاهلية لتعامل المشركين مع المرأة، ذلكم قول الله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٣٩﴾.

والهجوم أجد لزماً أن أشير إلى مدى الارتباط الحكيم بين ما ختمت به الآية من الوعيد في قوله سبحانه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وبين مضمون الآية نفسها الذي جرت الإشارة إليه فيما سبق؛ وهو ما شرع المشركون لأنفسهم من حكم ظالم في التعامل مع المرأة، والتفريق بينها وبين الرجل في بعض الأطعمة مما يحصل عليه الناس من الأنعام، ثم افتراؤهم على الله بنسبتهم هذا الحكم إليه، وهو الحكم الذي يبدو بحق، ممولاً من معاول الهدم لكيان الأسرة وبنیان المجتمع، وحائلاً دون أن تأخذ المرأة مكانها الطبيعي - في الأسرة والمجتمع - بطمانينة وثقة كما أراد الله الحكيم الخبير.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ سيجزيهم قولهم على الله الكذب وافتراءهم عليه؛ فهو سبحانه قد خلق الخلق جميعهم ذكورهم وإناثهم في الأصل من نفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام؛ فالمرأة والرجل يرتدان جميعاً إلى أصل واحد ذلكم قول الله تعالى في أول آية من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾.

فالمرأة شأنها شأن الرجل هي من النفس الأولى فطرة وطبعاً، خلقها الله لتكون لأدم زوجاً، وليبيت منهما رجالاً كثيراً ونساءً - كما اقتضت حكمته من طريق التماسل - فلا فارق في الأصل والفطرة، ولكن الفارق يبدو فيما وراء ذلك، إنه يبدو في الاستعداد والوظيفة. ومن هنا جاء اختلاف المرأة عن الرجل في بعض الأحكام.

ثم إن مما يؤكد فساد ما ذهب إليه المشركون في هذا الظلم الاجتماعي للمرأة كما كشفت الآية من صنيعهم، أن الله تعالى شاء بحكمته أن يكرم بني آدم بوصفهم بني آدم بصرف النظر عن كون الواحد منهم ذكراً أو أنثى، ففي سورة الإسراء نقراً قول الله تعالى في الآية السبعين: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَلَفَضْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾» وفي إشعار - للإنسان - ذكراً كان أو أنثى - بالمسؤولية كل حسب استعداده ووظيفته نقراً في أعقاب ذلك قول الله جل شأنه: «يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُرِيهِ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فِيهَا ﴿٧١﴾» [الإسراء: ٧١]. ومن هنا كانت المرأة صنو الرجل في أصل التكليف والمجازاة على العمل ودلائل هذه الحقيقة كثيرة في الكتاب والسنة من ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنفَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ» [آل عمران: ١٩٥]. الأمر الذي يدل بوضوح على المسؤولية التي أثمرها خطاب التكليف للرجل والمرأة جميعاً، وهي حقيقة قررها الكتاب العزيز بجلاء تام بدءاً من العهد المكي، وجاء تأكيدها في العهد المدني؛ فإذا كان الأمر كذلك على صعيد التكليف وحمل الأمانة عقيدة وعملاً وفيه ما فيه من تكريم المرأة، أفلا يكون صنيع الجاهليين غاية في السوء، حين ينزلون أزواجهم المنزلة غير اللائقة بوحدة الأصل، وما كرم الله به الإنسان بصرف النظر عن أي أمر آخر، وما جعل الأنثى في مستوى المسؤولية حسب استعدادها. وبهذا يبدو ما ختمت به الآية من قوله تعالى في شأن المشركين: «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» على غاية التماسل مع مضمونها، سيجزيهم وصفهم أي قولهم الكذب على الله في تلك الصورة الجاهلية على ساحة

التعامل مع الأزواج. إنه حكيم في خلقه الذكر والأنثى من نفس واحدة. حكيم في شرعه ووضعه كل أمر موضعه، عليم بما يصنع عباده فيجازيهم بأعمالهم. إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وما كان للمؤمنين اليوم وهم يتطلعون إلى مستقبل تتحقق فيه سلامة بنى المجتمع أن ينسوا هذه الحقيقة أو يتناسوها.. فقد حمل القرآن هذه الأمة أمة الشهادة على الناس أمانة القضاء على كل ما هو جاهلي يتنافى مع الفطرة وسنة الله فيما خلق عليه الذكر والأنثى. وفي ذلك ما فيه من توفير الطاقات كلها وحفز الرجل والمرأة جميعاً إلى العمل المثمر المجدي وفق ما رسم المنهج الرياني لكل منهما والله لا يضيع عمل عامل من ذكرٍ أو أنثى بعضهم من بعض، وهو المحمود على كل حال.



بناء المجتمع.. وواحد من عوامل الهدم

كما تصوره سورة الأنعام

« ١٥ »

أسمدنا ونحن نمضي في الكلام على خطاب التكليف للرجل والمرأة جميعاً قيس من عطاء المعلم القرآني فيما ختمت به الآية التاسعة والثلاثون بعد المئة من قول الله جل ثناؤه: «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» بعد قوله في صدر الآية بشأن صورة مؤذية للفرد والأسرة والمجتمع من صور الجاهلية عند المشركين مفتراة على الله «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِثْقَالُهُمْ فِيهِ شُرْكَاءٌ».

إن قول المشركين: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، حيث تخصيص الذكور بكل اللبن من هذه الأنعام وما تلده حياً، وتحريم ذلك على الأزواج: قد كذب هؤلاء المشركون فيه على الله فزعموا أنه حكم من عنده سبحانه وتعالى. والإشارة إلى ذلك واضحة في قوله تعالى على لسانهم: «وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا» أي حرمه الله عليهم، وهذا الكذب الذي هو محض افتراء على الله ينطبق على الحكم الآخر الذي كشف عنه قوله سبحانه: «وَإِنْ يَكُنْ مِثْقَالُهُمْ فِيهِ شُرْكَاءٌ» إذا كان ما ولدته تلك الدابة من الأنعام ميتة اشترك في أكله الذكور والإناث جميعاً؛ إنهما قبيحتان؛ أولاهما الحكم بكل أكل الميتة، الثاني امتهان المرأة بأن جائزاً لها أن تشارك في أكل الميتة أما ما كان حياً فهو خاص بالذكور.. فكما تجاوزوا الحدود فحرموا ما أحل الله اختراعاً من عند أنفسهم وخضوعاً لما سولت لهم شياطينهم، كذلك افتروا عليه سبحانه فأسندوا إليه ما اخترعوا من حكم جائر...

ومن هنا جاء الوعيد «سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» ومن بلاغة القرآن أنه أتى بالعين التي هي للمستقبل القريب إيذاناً بفداحة ما أقدم عليه هؤلاء الضالون. سيجزيهم وصفهم، أي قولهم الكذب وإسنادهم إلى الله ما لم يأذن به ولا رضيه من الأحكام الظالمة الجائرة، التي تمتن المرأة وقد كرمها الله، وتتفص على الأسرة حياتها وهي اللبنة الأولى في المجتمع، التي إذا اضطرب حبل العلاقة فيها بين الرجل والمرأة سمات أحوالها وانعكس ذلك على المجتمع نفسه في أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية. إنه حكيم عليهم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، عليهم بأعمال عباده من خير وشر، وهو سبحانه المتزه عن الظلم، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

وصورة الهدم في هذا الصنيع الجاهلي: تكمن في أنه عمل يمرض ما اقتضته حكمة الله من أن الرجل والمرأة جميعاً يرتدان - كما سلف قريباً - إلى أصل واحد من حيث الخلق والقطرة. وإن كانا يختلفان في الاستعداد والوظيفة.. وبناء على ذلك كانت المرأة في شرعة الإسلام صنو الرجل في خطاب التكليف، وتحمل المسؤولية، وما يكون من المثوبة أو العقاب. وما حصل من الاختلاف في الأحكام مرده إلى الاختلاف في الاستعداد كما شاء ربنا تبارك وتعالى وهو الحكيم العليم.

نقرأ في ذلك آيات كريمات في كلا المهدين المكي والمدني من ذلك ما جاء في سورة النحل وهي سورة مكية من قول الله تعالى في الآية السابعة والتسعين منها: «مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾» وفي الآية الأربعين من سورة غافر وهي سورة مكية أيضاً نقرأ قول الله جل شأنه: «مَنْ عَمِلْ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾».

والى أن نلتقي على بعض مما تنزل في هذا الشأن في العهد المدني، لعل من الخير أن نشير إلى أن مقارنة يسيرة بين الذي قررته هاتان الآيتان الكريمتان من رفع المرأة إلى مستوى التكليف والمسؤولية والإسهام في توجيه حركة الحياة على قدر

استعدادها، وبين تلكم النظرة الجاهلية الهابطة التي تصل إلى أن تحرم عليها لونا من المَطْطُومَات وتُتَبَّح لها نوعاً آخر اشتراكاً مع الرجل في أكل الميتة.. لعل من الخير أن نشير إلى أن هذه المقارنة اليسيرة تضع أيدينا على واحد من عوامل الهدم عند المشركين في الجاهلية، وعلى واحد من مقومات البناء الذي حمل ثقل عبئه أولئك المؤمنون القلة منذ الحِقْبَةِ الأولى في العهد المكِّي. وشتان بين وضع الأمور مواضعها، والإفادة من الطاقات والإمكانات عند كل من الرجل والمرأة، وبين تلكم النظرات الجاهلية التي تجفو الحقيقة وتسهم في تقويض المجتمع من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية... فلهذا نذكر هذه الحقيقة وأمثالها، كيما نأخذ الحذر في واقفنا، وكيما تربط أسباب أجيالنا بأسباب ذلك الجيل الذي حمل عبء البناء المكين على نهج يتواءم مع سنن الله في كونه المريض، ومنها ما خلق عليه كلاً من الرجل والمرأة في أحسن تقويم، وما أودع في كلٍ منهما من الأهلية، الأمر الذي يتحقق معه التكامل في توجيه حركة الحياة.



العناية بالفرد والمجتمع.. والوعيد على عوامل الهدم في سورة الأنعام « ١٦ »

الوعيد في كتاب الله عز وجل على اقتراف أمر من الأمور: يؤكد سوء ذلك الأمر وأهمية الكشف عن إثارة القلوب والعقول لمحاصلته، ثم القضاء عليه، إقصاء له عن ساحة البناء التي يراد لها أن تكون سليمة القواعد مبرأة من عوامل الهدم والانحلال. وذلك ما رأينا في عدد من آي وسورة الأنعام بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المئة وهي الآيات التي تولت الكشف عن عدد من الصور الجاهلية التي صنعها ما يجنيه المشركون من تصرفات، وادعاء أحكام في التحليل والتحرير تتعلق بالفرد والجماعة وترتبط ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر بيني ذلك المجتمع الفكرية والاقتصادية والاجتماعية وهي أحكام لم يأذن بها الله، ولم يرض لهم بها ثم نسبوها إليه، فكان ذلك منهم محض الكذب والافتراء.

وأنت وابد أن كل آية تعرض للصورة الجاهلية: تختم بما يكشف عن المساءة التي تقتري بالتهديد والوعيد مسراحة أو بالفحوى، كما في قوله تعالى في ختام الآيات والمشار إليها حسب تسلسلها المدي كما رأينا من قيل: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» «فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ» «سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» الأمر الذي يدل - كما أشرنا آنفاً - على أهمية القضاء على تلك المخازي لأنها مصدر إساءة للفرد والجماعة، وظاهرة مَرَضِيَّة لا يجني منها المجتمع إلا التخلف والانحسار عن العطاء.. وهذه اللبنة المضيئة من لبنات المنهج القرآني كانت - وستظل معلماً واضحاً على طريق المؤمنين الذين همهم بناء الفرد البناء السوي، وبناء المجتمع بعيداً

عن أوضار الجاهلية مهما كان لونها والعنوان الموضوع لها، وتنمية طاقاته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية على السنن الذي يرضي الله ورسوله. ويضمن للمؤمنين التمكين في الدنيا وفضل الله وإحسانه في الآخرة.

وقد كان آخر ما سمعنا بصحبيته من تلك الآيات المنوه بها: الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة وهي قول الله جل شانہ: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذَّكَوْرَانَا وَمَحْرَمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِثَّةٌ فَبِمَا شَرُّكَاءُ سَجَّزِيهِمْ وَصَلَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٢٩﴾.

وواضح أن ما توعد الله به المشركين بقوله في ختام الآية: ﴿سَجَّزِيهِمْ وَصَلَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ يتسق تمام الاتساق مع المضمون، في إطار الدلالة التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث. ثم إن مما يؤكد النعمة عليهم بسبب هذا الذي حكموا به في التعامل مفرقين بين الذكور والإناث: ما رأينا من قريب من مخالفة ذلك لما قرر القرآن الكريم من وحدة الأصل للرجل والمرأة جميعاً، وأنهما خلقا من نفس واحدة، وما نصت عليه الآيتان الكريمتان في سورتي النحل وغافر من وضع القرآن المرأة في مستوى خطاب التكليف والمسؤولية واستحقاق المثوبة على العمل أو العقاب.

وكما جاء ذلك في العهد المكي: نرى تأكيداً بتقصيل في العهد المدني، المؤمنون يُغذون المسير على طريق البناء، ورسول الله ﷺ لا يني ينمي فيهم حوافز العمل ويوجه الطاقات وجهتها المثمرة المنتجة في السلم والحرب، وتنزل الآيات لتضع الرجل والمرأة كلأ في مكانه الطبيعي على مستوى الإسهام في عملية البناء الكبرى، وإزاحة الركام الجاهلي من الطريق، ومواجهة ما يكون من تحديات المشركين واليهود والمنافقين. ها نحن أولاء نقرأ في سورة آل عمران، بعد أدعية الله ورجاء فضله من مناجاة أولي الألباب.. نقرأ قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم.. حسن الثوب﴾.



مرة أخرى... مع بناء المجتمع.. والتنديد بالهدم الجاهلي « ١٧ »

رحلة سورة الأنعام التي بدأناها باصطحاب الآية السادسة والثلاثين بعد المئة. وهي قول الله جل وعز: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

هذه الرحلة المباركة انتهت بنا إلى قوله تعالى في الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ وقد وفقنا المعلم القرآني في هذه الآية على ما يعنيه في عملية البناء الكبرى هذا التنديد بسوء التعامل مع المرأة والتوعد عليه توعداً لا يتحرك في إطار موعظة عابرة تتمدد على السطح لا تتجاوز إلى القاع، ولكنه أمر يتعلق بقضية جذرية هي موقع المرأة في توجيه حركة الحياة وبناء المجتمع حسب الاستعداد الذي كونها الله عليه؛ وأسوأ من هذا أن يسلك المشركون هذا المسلك المجافي للحقيقة التي لا يختلف عليها عاقلان. وهي أن البشر – ذكورهم وإناثهم – يرتدون إلى أصل واحد في الخلق والفطرة، وإن الله كرم بني آدم دون تفريق بين الذكر والأنثى، وخلق الإنسان في أحسن تقويم دون تفريق أيضاً، وجعل من المرأة مخلوقاً يخاطب بالعقيدة والشرعية وما ينبني على ذلك من المسؤولية والجزاء كما يخاطب الرجل، والاختلاف بينهما في بعض الأحكام مردهُ إلى الاستعداد والوظيفة، كما اقتضت حكمة الله في تكوين كل من الذكر والأنثى.

أقول: الأسوأ من هذا أن يملكوا المسلك المشار إليه ثم ينمبوه إلى الله تعالى كذباً واحتراء ولذلك جاء الوعيد الذي كان ختام الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿سَجَزِيهَمْ وَصَنَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد أسلمتنا الآية المنوّه بها إلى قول الله تباركت أسماؤه بعدها: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١١٠).

قتل الأولاد سفهاً بغير علم: قد سبقت الإشارة إليه في الآية السابعة والثلاثين بعد المئة من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكثيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُفْرِدُوهُمْ وَلْيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَلَهُمْ عَذَابٌ وَهُمْ مَا يَفْتَرُونَ﴾ (١٠٧) أما تحريم ما رزق الله افتراء عليه فقد أشير إليه في مواضع عدة من تلكم الآيات المباركات أيضاً بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المئة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الآية. ثم قوله سبحانه في الآية التي تلت: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْنَاهُمْ﴾ الآية والتعليل والتحريم المتعلقان بالذكور والإناث كما بصدد الإشارة إليهما قبل قليل.

فالآية الكريمة هنا تقرران الذين فعلوا هذه الأفاعيل قد خسروا في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فخسروا أولادهم بقتلهم حيث أساءوا إلى أنفسهم وإلى أسرهم وإلى المجتمع، وكذلك ضيقوا على أنفسهم في الأموال التي رزقهم الله، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم وخصوا النساء ببعض المطامع دون الرجال، ولا تسئل عن الانعكاس السيء الذي يحصده المجتمع على المستوى الاقتصادي والمستوى الاجتماعي ناهيك عن دلالة ذلك كله على التغلف الفكري والحيلولة دون العقل ودون أن يأخذ مكانته الطبيعية عند الحكم وممارسة شؤون الحياة.

أما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافتراءهم عليه.

هذا وانحكم على صنيع المشركين بأنه خسران في الدنيا والآخرة: يُشعر المؤمنين في كل زمان ومكان، بأن عملية البناء التي أوقفنا عليها، يجب أن تصان دائماً عن العبث، ويُتخذ لها من الأسباب ما يجنبها عوامل الهدم التي هي نتاج سوء الجاهلية، أيأ كانت هذه الجاهلية، وأي لبوس لبست. والمائل من أري مواطن الاعتبار، فاعتبر!!.

بناء المجتمع.. وأثر التنديد بعوامل الهدم الجاهلي

« ١٨ »

يسمدنا من قريب بقبس من عطاء المعلم القرآني في الآية الأريمين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٥٥). وهؤلاء الذين قتلوا أولادهم سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ قتلوا ذكورهم وإنثهم من إملاق أو خشية، كما قتلوا إنثهم وأدأ في التراب خشية العار. وقد أشرنا فيما سبق من القول إلى الآيات المتعلقة بذلك في مواطنها من سورة الأنعام والنحل والإسراء والتكوير.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لا يعني أن هنالك من يقتلون أولادهم سَفَهًا بعلم وأنهم يكونون غير خاسرين؛ فالآية تقرر ما كان واقعاً وهو أن هؤلاء المشركين أو بعضهم يقتلون أولادهم سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فليس لديهم دليل يستندون إليه في هذا الصنيع. وفي ذلك ما فيه من الخسران في الدنيا والآخرة.

والحق أن هذه الظاهرة وما ذُكر به من تحريم ما رزق الله افتراء عليه: تشكلان عنصراً بالغ الخطورة في المساءة إلى الفرد والأسرة والمجتمع، لأن ذلك خسارة وإضرار لا يقتصران على الفرد، بل يتجاوزان إلى العلاقات الاجتماعية والطاقة الاقتصادية، والمسار الفكري على حد سواء.

على أن الخسران أيضاً ليس مقصوراً على الدنيا، ولكنه خسران في الآخرة أيضاً. فإذا كان هؤلاء الضالون قد خسروا من الطاقة البشرية ما خسروا بقتل أولادهم، وخسروا من المال ما خسروا بالتضييق على أنفسهم وبالتعامل الظالم فيما أعطاهم الله من الرزق في الأنعام والزرع والثمار.. فقد وقعوا أيضاً في الخسران المبين في الآخرة، جزاء افتراءهم على الله وكذبهم عليه بإسناد تلكم الأحكام الجائرة الظالمة إليه. وهم بهذا كله قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين.

ونقرأ في سورة النحل مزيداً من الإيضاح لهذه القضية وذلك بدءاً من قول الله تعالى في الآية الرابعة عشرة بعد المئة: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلُ لِيَغْيِرَ اللَّهُ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥). تلا هذا البيان قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧).

والآن ما أحسب عاقلاً يماري في أن تأكيد المنهج الرباني أن هذا الصنيع من الجاهليين - بشتى صورته - جهل وانحراف خطير، لما يحمل من الأذى للفرد والجماعة، ويعرض للخسران في الدنيا والآخرة.. ما أحسب عاقلاً يماري في أن هذا التأكيد كان واحداً من المعالم البارزة على طريق المؤمنين، وهم يتحركون على طريق التفسير منذ المهد المكي، يقود خطاهم تحت راية البناء الشامل للإنسان والمجتمع محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وإليك قبساً من فقه ابن عباس رضي الله عنه على هذه المساحة فقد روى البخاري بسنده إلى حبر الأمة رضي الله عنه قوله: إذا سُرَّك أن تعلم جهل العرب فإقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦٤) ورواه ابن مردويه.

لقد دلهم القرآن على الأسباب التي نمت وترعرعت في ظل الوثنية والكفر وجرت على الأسرة والمجتمع ما جرت من المصائب والمتاعب، كي يكونوا على بينة من أمرهم يُعدون العدة لبناء المجتمع الذي تقوده كلمة الله وتضبط شؤونه شرعة الحكيم الخبير!



حراسة بئى المجتمع ومعارية السفه فى العدوان على الولد والمال سورتا الأنعام والتوبة

الآية الكريمة التى أسمعنا المعلم القرآنى من قريب بلمحة مشرقة من عطائها :
هى الآية الأرىمون بعد المئة من سورة الأنعام والتى جاء فيها قول الله الحكيم
الخبير: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ
ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ومما يجدر التنبيه عليه هنا : أن هذه الآية الكريمة جاءت بعد آيات من السورة
المباركة المشار إليها نعمنا بالتطواف فى شيء من معانيها، وهى التى بدأت بالآية
السادسة والثلاثين بعد المئة. وكان ظاهراً أنها تشير إلى صور جاهلية كُفّت الضرر
والجماعة الكثير من الغناء، ووضعت المجتمع فى موضع لا يفيط عليه فى أى مجال من
المجالات الاجتماعية أو الاقتصادية أو الفكرية. وكان واضحاً فى تلكم الآيات التدييد بما
ابتدعه المشركون من عند أنفسهم، وكما سؤل لهم الهوى والشيطان من أحكام فى
التحليل والتعريم على ساحة الرزق الذى تفضل الله به عليهم من الأنعام والزرور
والثمار، وعلى ساحة العلاقة بالبنين والبنات من الذرية حيث يزهر البعض أرواح الأولاد
ذكوراً كانوا أو إناثاً خشية الجوع، أو من الجوع — على زعمهم — يصعب ذلك ظاهرة
الواد للبنات حيث يدس الواحد منهم فلة كبد فى التراب وهى على قيد الحياة، خشية
العار، مع أن الكل راض بما كان من انحراف أخلاقي يسود الكثير من جوانب المجتمع فى
علاقة الذكر والأنثى، الأمر الذى يهدد للانحراف، ويعد أن تقع الواقعة يلجؤون لعلم
القهاة من أجل انتساب الولد وإلى أى رجل ينتسب من خلال ذلك الانحراف.

وبجانب الآيات الواردة فى الموضوع والتى جاء الحديث عنها بالأسلوب الرباني
الحكيم فى مواطن متعددة من آى الكتاب أشرنا إليها فيما سبق.. جمل القرآن هنا فى
هذه الآية قتل الأولاد : سفهاً بغير علم.. والسفه فى العربية: نقص فى العقل وأصله

الخِمْفَةُ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم، إنه السفه الذي لا يدانه سفه على هذه الساحة، وفي قوله تعالى: ﴿بَغِيرِ عِلْمٍ﴾ استشارة للعقل في أن يتحرك ويعمل عمله، فبأي سلطان أو حجة يقتل الوالد ولده في دنيا هؤلاء الجاهليين؟

وقتل الأولاد خسارة أية خسارة على مستوى الأب والأم والأسرة ومن وراء ذلك خسارة لطاقة قد تكون ذات فاعلية وتأثير في بناء المجتمع وتنمية قدرته على المعطاء. والمشركون - كما خسروا بقتل أولادهم سفهاً بغير علم، قد خسروا من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية بما ضيقوا على أنفسهم في أموالهم، وجنحوا إلى ظلم الآخرين وامتهان الأزواج فيما ابتدعوا من التحليل والتحرير ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى﴾.

لقد كانت دعوهم أن تلكم الأحكام من عند الله: افتراء وكذب على الله، وذلكم هو الضلال المبين، إنه مبين لشدة وضوحه فيما يشهد المرء من إقدامهم على الانحراف المناهي للعقل، وللعاطفة الصادقة، ناهيك عن مصلحة الفرد والمجتمع ودعوهم الإيمان بالله. ولقد أذكرنا هذا الحكم على صنيع الجاهليين بالافتراء والضلال آيات من سورة النحل كان منها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَعْيُ أَلَيْسَ لَكُمُ الْكَذِبُ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾. إن الهداية والضلال هما المحور في البناء والهدم.

فالحرص على البناء السليم للإنسان والمجتمع وتوفير الطاقات الاقتصادية والاجتماعية من أجل استمرار البناء سليماً معافى، كل أولئك مرتبط بسلامة العقيدة، والهدم الذي كان يمارسه الجاهليون: امتداداً لتمرغهم في مستنقع الخرافة والتقليد الأعمى!!

وعلى الرواد اليوم الذين أولاهم الله نعمة الإلهام في البناء والإنماء: أن ينصبوا هذه الحقيقة نصب أعينهم، فيزيدوا من تنمية الإيمان في النفوس، كيما ينعكس ذلك على مستوى البناء والإنماء بجديّة وإحكام.

سورة التحل والتوجيه إلى البناء وحراسته.. من خلال التنديد بأمور الجاهلية « ١ »

كل ما جاء في كتاب الله خير وهداية ونور، وحين تعزم الأمة عزمها على أن يتحقق لها ذلك على كل صعيد وفي كل ميدان، فما عليها إلا أن تجدد الصلة بهذا الكتاب الكريم، وأعني بها صلة التجر والتذكر للذين يُسلمان إلى العمل والتطبيق، ومن دلائل الصديق في ذلك أن يمتدُّ تجديد الصلة بالتزليل الحكيم إلى بيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أقول هذا وقد أسعدنا من قريب عطاء المعلم القرآني في تبين الحكم على ما كان يأتي به الجاهليون من أعمال عمدية يسيؤون بها إلى أنفسهم وإلى مجتمعاتهم، سواء أكان ذلك على صعيد الأسرة والقبيلة أم كان على صعيد المجتمع.. وكان ذلك من خلال واحدة من طائفة مباركة من آيات سورة الأنعام التي استضئنا بها في رحلة عجلي سبقت، والآية الكريمة هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦١).

والحق أن هذا الذي تتكرر الكلمات الهاديات من فعل الجاهلية تنكره؛ لأنه يخالف تمام المخالفة ما أراد الله تبارك وتعالى لمعباده من أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم سبحانه، وأن يتعاملوا مع النعمة وفق الذي أحله لهم وحرم، لا أن يولوا ظهورهم لما أراد المنعم الرازق ويبتدعوا من عند أنفسهم أحكاماً هي الضلال المبين، فيقولوا لما تصف السنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام، مُدَّعين زوراً وبهتاناً أن تلك الأحكام من عند الله!!.

وإذا تحرك العباد في هذا الإطار: استطاعوا أن يستمتعوا بالخيرات والنعم التي رزقهم الله وسخر لهم منها في كونه المريض ما سخر، وأن يُجمعوا أمرهم على البناء الذي يشيع الخير والنماء في ميادين المجتمع كلها.. يصحب ذلك طمأنينة صميقة عند الإنسان، وود يظلل الخطأ في تعامل الناس بعضهم مع بعض، مما يقدرهم على تنمية وجودهم الذاتي وأن يكونوا دائماً على طريق التغيير إلى ما هو الأفضل مرحلة بعد مرحلة. ولن يكون ذلك - بشموله وعمقه - إلا في ظل الإيمان الصادق الذي يدفع إلى العلم والعمل والسلوك المستقيم.

ولنقرأ ما جاء في سورة مكية هي سورة النحل مما يبدو معلماً واضحاً من معالم المسيرة الخيرة التي قادها على هدي كلمة التوحيد محمد عليه الصلاة والسلام. يقول الله جلّت حكمته: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١١٧﴾ فَاكْلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ لَهُاءَ تَعْدُونَ ١١٨﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ لَيْلٍ لَيْلٍ اللَّهُ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١١٩﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ فَهُمْ لَبِئْسَ مَا يَفْعَلُونَ ١٢٠﴾ تَتَعَاقَبُ قُلُوبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٢١﴾.

لقد أدرك المؤمنون من خلال تلك الآيات وأمثالها من نصوص الهداية التي تفعد مزاعم المشركين، وتكشف عن عوامل الهدم التي يمارسونها في ظل جاهلية جهلاء.. أدركوا أي سبيل مستقيمة دنية القلوف، عليهم أن يسلكوها - وهم المؤمنون على متابعة الرحلة في إحكام البناء..

إنها السبيل التي تبدأ بالإيمان الذي لا تخالطه ريبة، وطاعة لله ورسوله، في كل ما يور من تحليل أو تحريم أو ما يتلقى بهما، وذرة السنام في ذلك: الجهاد في سبيل الله مصحوباً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ناهيك عن الأخذ بالأسباب وفق السنن الألهية..

أجل.. وتنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض ورضوان من الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

النهج البناء... وحراسة بنى المجتمع.. وسورة النحل

« ٢ »

قادتنا الآية الأريمون بعد المائة من سورة الأنعام وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١١٠). قادتنا هذه الآية الكريمة وهي تنبه إلى ما وقع فيه المشركون من خسران في الدنيا والآخرة بسبب من سوء فعلهم وأنهم ضلوا وما كانوا مهتدين، إلى ما جاء في سورة النحل بدءاً من الآية الرابعة عشرة بعد المائة من قول الله تباركت أسماؤه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ لَهُا تَعْدُونَ﴾ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧).

والحق أنه لم يكن مصادفة أن تقودنا الآية المشار إليها من سورة الأنعام إلى هذه الآيات من سورة النحل؛ ذلك بأن المشركين كانوا خاسرين في الدنيا في أولادهم وفي أرزاقهم بما جنته أيديهم، وكانوا خاسرين في الآخرة بما افتروا على الله الكذب من أن تلك الأحكام الجائرة التي أودت بهم إلى الخسران في المال والولد؛ هي أحكام من عند الله، وحاشا لله أن يشرع ما فيه الإيذاء لمعباده، وهو البر الكريم، والرفق الرحيم.

وصفوة القول: أن قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١١٠).

صورة - بيّنة التأثير تبهر الناظرين - عن جنوح المشركين عامدين إلى مصلك هدام يحمل المخالفة كل المخالفة لما شرع الله لعباده من نهج بقاء يستمتعون من خلاله بما رزقهم الله من الطيبات، فلا يحلون إلا ما أحل الله، ولا يحرمون إلا ما حرم سبحانه، وبذلك لا يقيمون في الجناية لا على أموالهم ولا على أولادهم، ولا يستجيزون ظلم أحد من الناس.. إن الله الذي خلق العباد سخر لهم من أبواب الخير ما سخر، ويسّر لهم من أمر الرزق ما يسّر، ووجههم إلى أن يتعاملوا مع النعم والأرزاق تعاملًا سليمًا في ظل ما شرع وبيّن.. لكن الجاهليين عدلوا عن ذلك، فخالقوا عن أمر الله، وشرعوا من عند أنفسهم ما سبب لهم الخسارة في الدنيا مالا وولدا ثم خسروا الآخرة بافتراءهم وكذبهم على الله..

إن آيات سورة النحل - ولها نظائر كثيرة في كتاب الله - تعرض النهج الذي أراد الله لعباده أن يسلكوه كما تكشف عن النهج المخالف وعقابه في الدنيا والآخرة ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُتُمَ إِيَّاهُ تَعْدُونَ﴾ (١١٢) مباح لكم أن تأكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً على السنن الذي أرادوه وتفضل به عليكم، واشكروا نعمة الله فيما أباح لكم من هذا الحلال الطيب، بأن تستخدموا نعمه في طاعته، لا أن تضعوها على طريق الجحود والضلال.

أجل أن تستمعينوا بها - وقد أنزل عليكم كتاباً فيه ذكركم - على بناء الإنسان المؤمن القادر على بناء المجتمع المتكامل المتعاون، المجتمع الذي يستمتع بالنعمة ولا يجحد خالق النعمة، وينمي خيراته وقدرته على المعطاء في الميادين كلها، على هدي ما شرع الله وأراد. وذلك مقتضى العبودية لله تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُتُمَ إِيَّاهُ تَعْدُونَ﴾ (١١٢).

ثم بين سبحانه ما حرمه عليهم وما هو جائز عند الضرورة بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَخُمُ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ لُبِّهِ لَغَوِيٍّ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٥). فالحرام ما حرم الله لا ما ابتدع الجاهليون من عند أنفسهم

وما سولت لهم الشياطين، وهذا الذي حرّمه الله ينتفي معه الحرج، يكشف عن ذلك ما نرى من جواز الأكل عند الاضطراب الحقيقي ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. تلكم هي سبيل الله لعباده التي تتيح لهم الاستفادة مما سخر لهم وأنعم عليهم، وتباعد بينهم وبين الكفران الذي لا يعصد الفرد والجماعة من ورائه إلا الهدم والخراب..

أما البناء والنماء: فكائناتان في التزام ما شرعه الحكيم الرزاق سبحانه، حيث الخطوة الواعية أبدأ على طريق منهجية مأمونة تضمن أن يطل المجتمع في ترقى إلى ما هو الأفضل والأقوم في ميزان الله الذي لا يعول والله يتولى عباده الصالحين، ويجزي أوليائه الشاكرين الصابرين.



مرة أخرى مع النهج البناء وسورة النحل

« ٢ »

قلعنا في الماضي القريب شوطاً من رحلة مباركة مع تلكم الآيات من سورة النحل التي قادتنا إليها الآية الأريمة بعد المئة من سورة الأنعام. وآيات سورة النحل المشار إليها هي قول الله جل ذكره: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْلَمُونَ﴾ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وهذا - كما أشرنا فيما من القول - يضع أيدينا على النهج البناء الذي أراده الله لعباده في تعاملهم مع الرزق الذي أنعم به عليهم، بحيث يستمتعون بنعمه جل شأنه ويحسنون شكرها؛ وذلك باستخدامها في طاعته وفي تنمية قدرتهم على تحقيق ما يريد على ساحة الفرد والمجتمع.. ولكن كلمات الله كشفت عن أن المشركين من العصر الجاهلي خالفوا عن أمر الله في ذلك، فوقعوا في حماة التناقض، وجروا على أنفسهم وعلى مجتمعهم الخسران الوبيل في الدنيا والآخرة.. ولنعد إلى تنمة تلكم الآيات المباركات. ذلكم ما نرى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْعَلُونَ﴾ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧).

أن تقع الخطيئة ويُعلم أنها خطيئة من صنع الإنسان: أمر سيء بلا ريب، ولكن الأسوأ منه محاولة تسويق تلك الخطيئة بأنها حكم من أحكام الله، فلو أن الجاهلين وقفوا عند تلكم الجنايات من تحليل وتحريم من عند أنفسهم، بحيث يعلم أنهم هم الجناة ويفتح الطريق للمتبصرين أن يقولوا كلمة الحق في ذلك؛ لكان الخطب أقل خطورة.. ولكنهم أرادوا أن يسوغوا عبدوانهم على النهج الذي أراد الله لعباده في تعاملهم مع النعم، والتزامهم لما يشرع الله في الحل والحرمة.. أرادوا أن يسوغوا ذلك

بنسبة انحرافهم في تلك الأحكام إلى الله .. فهم يضيقون على أنفسهم بتحريم أنواع من الرزق، ويفرقون بين الذكر والأنثى في التعامل، ويُقدم البعض على قتل أولادهم لأسباب لا تجدي فتيلاً.. خضوعاً لتسويات شركائهم من الشياطين.. ثم يجاهرون بأن ما يصنعونه تحريماً وتحليلاً هو من عند الله .. تماماً كالذي نراه في جاهلية اليوم.. يعمل الهدامون ما يعملون، ثم يظلمون على الناس بمنهج فكري يهيء العقول والنفس لقبول الهدم، وشيئاً فشيئاً يصبح الهدم هو البناء، وهو الذي ينبغي أن يكون..

إن توظيف الفكر على ساحة التسويغ للانحراف والتسلل إلى العقول كيما تقتنع بأن المنكر هو المعروف، وأن الهدم هو البناء، كل أولئك من ضلالات الجاهلية التي شاء ربنا تبارك وتعالى أن تتبَّه إليها الفئة المؤمنة وهي تأخذ طريقها إلى بناء هويم يسلم للإنسان في ظله تكامل البنية الفكرية والسلوكية كما يسلم للمجتمع في ظله كذلك: أن يكون مجتمع الولاء الصادق لمقيدة التوحيد، تشيع في خلاياه جميعاً بواعث الحركة المنتجة والنشاط، وتجده ومبغات النماء والخير المطرد: هي التي تطبع مسيرته على هدي المنهج الرباني الذي يوصل العمل به إلى التمكين في الدنيا ومرضاة الله في الآخرة.

وهكذا جاء النهي الجازم للجاهليين تعليماً للمؤمنين في كل عصر أن تفتح منهم الأبصار والبصائر، فلا تتعالي عليهم أحابيل الجاهلية وزخارفها، مهما ألبست تلك الزخارف والأحابيل ﴿وَلَا تَقُولُوا مَا نَصَبَ الْكُذِّبُ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِفُتْرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِّبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِّبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾ (١١٦) وهي مزيد من التنبيه إلى عدم الاغترار بالمتاع القليل والريح العاجل على حساب الحقيقة الكبرى: جاء قوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١٧). ترى.. ألا يعني ذلك كله — والقرآن منبع الهداية على المدى.. — أن على المؤمنين، وهم يقطعون رحلة البناء، أن يتبصروا، وأن يحذروا.. أن يتبصروا مواقع خطوهم بوعي وثبات وصبر، ويحذروا من الوقوع في شيء مما هو من أو ضار الجاهلية وشؤونها — ومن شؤون الجاهلية ما يردي — وأن يكونوا على تمام اليقظة لكيلا يؤخذوا بما تحتال به تلك الجاهلية من عناوين، وما تصنعه من محاضن فكرية تتسلل إلى العقول لتسلل الداء منه إلى الجسم السليم ولله عاقبة الأمور.

حراسة بنى المجتمع على محور الهداية.. في سورتي الأنعام والنحل « ٤ »

محور الهداية العامة المحيطة في القرآن الكريم: قادنا ونحن نسعد بمطاء المعلم القرآني في الآية الأربعين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ١٤٠﴾. قادنا إلى مجموعة من الآيات في سورة مكية أخرى هي سورة النحل كان فيها قول الله جلت حكمته: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٣١﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتُفَرِّقُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ١٣٢﴾.

ولقد دلنا المعلم القرآني من خلال تلكم الآيات على المنهج الذي رسم الله لعباده من إحسان تعاملهم مع ما سخر لهم من الكون ورزقهم من الطيبات، وهو النهج الذي يقوم على الاستمتاع المشروع بالنعم، والإفادة من الخيرات التي يسر الله سبلها على هدي ما أحل سبحانه وما حرم، وأن يصحب ذلك شكر المنعم سبحانه وذلك بوضع تلك النعم موضعاً تكون فيه عوناً على طاعته وتحقيق ما فيه خير الفرد والجماعة، والسعادة في الدنيا ويوم الدين.. وهذا النهج بأكمله – ومنه الشكر الذي ألحنا إليه – هو مقتضى العبودية الخالصة لله عز وجل ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٣١﴾ أما المخالفة عن هذا النهج – كما كان يفعل أهل الشرك في الجاهلية – فنتأفف مع دعوى الإيمان بالله، وسلوك للسبيل المعوجة التي تعقب الخسران في الدنيا والآخرة..

والحق أن الناظر في الآيات المومى إليها في سورة النحل بدءاً من الآية الرابعة عشرة بعد المئة والتي أوردناها فيما سبق: يرى فيها تفصيلاً يعين على مزيد من التبين لما يهدي إليه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١١٥). وهي الآية التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث، والتي أعقبت مجموعة من الآيات المباركات في تلك السورة المكية، كانت أولها كما جاء في ترتيب المصحف: قول الله تعالى في شأن المشركين وما تكسبه أيديهم من الجناية على الفرد والمجتمع في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١١٦).

ونعود اليوم إلى سورة الأنعام نفسمها كيما نتابع الرحلة المباركة المعطاء؛ فبعد الآيات التي كشفت عن عدد من عوامل الهدم عند المشركين بأسلوب ينير طريق المؤمنين البناء في كل عصر، فيجعلهم يجتنبون الانحراف وكل ما هو منه بسبيل.. بعد تلك الآيات يطالعنا فيما تلاها بعد ذلك ما يؤكد التهج الذي دلت عليه آيات سورة النحل المومى إليها آنفاً. والذي نعينه من سورة الأنعام قول الله جل وعز بدءاً من الآية الحادية والأربعين بعد المائة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١١٧) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَبْغُوا خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١١٨). وسوف نشهد فيما يأتي من القول إن شاء الله — ولو بعضاً من عطاء المعلم القرآني — في هاتين الآيتين الكريمتين وما يتلوها في موضوعنا نفسمه حيث التجلية المشرقة لما أراد الله لعباده من نهج سليم في تعاملهم مع ما أعطاهم من رزق وما تفضل به عليهم من نعمة، وهو النهج الذي يضمن لهم نماء الخير واطراد التمكين ويجعلهم، وهم يتقبلون في أنعمه ويضعونها على الطريق البانية المثمرة في طاعة الله سبحانه: يشكرون له ولا يكفرون، ويفوزون بما أعد لعباده الصالحين المتقين.

عودة إلى سورة الأنعام.. وسد الذريعة في حراسة بنى المجتمع

« ٥ »

في عودة إلى سورة الأنعام واصطحاب زمرة كريمة أخرى من آياتها تذكر الناس بما أنعم الله عليهم وهو الخالق القادر الرازق، وتقند مزاعم المشركين فيما أحلوا من عند أنفسهم وما حرموا مفترين على الله بنسبة ذلك إليه.. وتوضح النهج الذي يريد الله لعباده أن يسلكوه وهم يستمتعون بخيراته ورزقه ويتقلبون في أنعمه التي لا تحصى.. في عودة إلى هذه السورة المكية المباركة أوردنا بالأمس قولاً لله جل شأنه وذلك بدءاً من الآية الحادية والأربعين بعد المئة: «وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١١١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١١٢﴾».

إن الله الذي لم يخلق عباده عبثاً، بل أودع فيهم ما أهلهم لأن ييلفوا – أن لو استقاموا على الطريقة – بالإيمان يصحبه العمل بالمعالي بمفهومه الشامل: غاية عظيمة هي تحقيق العبودية الخالصة له جل شأنه.. فذلك لم يدعه مهملاً بل سخر لهم الكون ورزقهم من الطيبات، وأراد لهم أن يحسنوا التعامل مع ما سخر لهم ورزقهم من أنعمه وفضله، فيكونوا مع الذي أراد سبحانه فيما أحل وفيما حرم؛ لأنه كما تعبدهم بالإيمان به: تعبدهم فيما شرع لهم.. وهذا ما يرتضيه العقل السليم، فضلاً عما يميله الإيمان بالله؛ فالذي خلق ورزق، وسخر وأنعم: هو الإله الجدير بأن يفرد بالعبادة، وأن يطاع فيما شرع وبين لعباده من أحكام.

والأيتان الكريمتان هنا شأنهما شأن ما يليهما، جاءتا في أعقاب ما سعدنا بصحبته في حلقات قريبات من تلكم الآيات التي كشفت عن عدد من الصور الجاهلية في تصرف المشركين على صعيد التعامل مع النعم وما رزقهم الله؛ فمن تحريم لبعض ما أحل الله، إلى ابتداء صور فيها ما فيها من الظلم على الصعيد الاجتماعي، والمدون على البنية الاقتصادية للمجتمع، ناهيك عن ظلم المرأة ثم نسبة ذلك كله إلى الله افتراءً عليه. وكانت – من بعض الوجوه – انعكاساً للتمرع في أحوال الوثنية – مع دعوى الإيمان بالله – وفي التقليد الأعمى والخضوع لتسويلات الشيطان في إبعاد للعقل السليم أن يقول كلمته، فيباعد بين أولئك المشركين وبين ما سلكوا من سبل أوقعتهم في التناقض وسوء الحكم على الأمور، وجرت عليهم وعلى مجتمعهم الخسارة في الدنيا، وباؤوا كذلك بالخسران المبين في الآخرة.

والذي تقتضيه سلامة الفكر والعمل أن يكون الناس، وهم يكدحون في الأرض ويرتادون دروب الحياة... وقافين عند الذي أراد لهم خالقهم ورازقهم ريهم سبحانه؛ وذلك هو المنهج السوي الذي يجعل من التعامل مع أصناف الرزق والموارد وما سخر الله للإنسان في الكون: عملية بناء يصلح معها أمر الفرد والجماعة.. ويعم الخير والنماء نواحي المجتمع، الأمر الذي يجعله قادراً على العطاء مؤهلاً دائماً للرفق إلى ما هو الأفضل والأقوم. ذلك بأن كل طاقة من الطاقات التي أنعم الله بها قد وضعت في مكانها الطبيعي، فكانت الثمرة وكان النماء، يحصب ذلك كله الطمانينة التي ينشئها الإيمان، فيتعاون الجميع على ما فيه مصلحة الفرد والجماعة.

وهي عودة إلى الأيتين الكريمتين نجد تذكيراً بالنعم التي خلقها الله وأنشأها، وما الذي يجب على الإنسان حيالها ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ وتختتم الآية بأمور ثلاثة غاية في الأهمية: أولها إباحة الاستمتاع بالنعم وفق ما أراد سبحانه: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ الثاني أداء

الحقوق التي جعلها الله في المال ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ الثالث النهي عن الإسراف وتوعد المسرفين ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ رأيت إلى هذا النهج الذي أراد الله لمعباده - كما تشير هذه الآية وغيرها كثير -... إنه النهج الذي لو أحسن الناس سلوكه والعمل بما تقتضيه: لعم الخير وانتفى الظلم الاجتماعي، وتماثلت القدرة الاقتصادية، وتحقق للإنسان ما ينشد من كرامة وطمأنينة. على هدى الإيمان الصادق وطاعة الله فيما تمبّد به عباده وشرع لهم من ذلك النهج المبارك السوي والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



سورة الأنعام.. ونهج التعامل البناء مع الضم

« ٦ »

الآية التي وقفنا المعلم القرآني من قريب على بعض من عطائها فيما هو من سمات النهج الذي ارتضاه الله لعباده في تعاملهم مع ما أسبغ عليهم من النعم، وما هيا لهم من الرزق، وسخر لهم في كونه المريض براً ويعبراً وجواً.. هذه الآية الكريمة هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّهْمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٦١﴾﴾ وهي الحادية والأربعون بعد المئة من سورة الأنعام.

وقد كان من إشراق المعلم القرآني ما هدت إليه الآية من التذكير بهذه المجموعة من النعم التي هي - على تنوعها وتعدد أشكالها واختلاف الأكل ومنايع الخير فيها - من صنمه سبحانه وإنشائه ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ إنها حقيقة يُسلم استقرارها في العقول والقلوب إلى كثير من الخير والالتزام بما تمبّد الله عباده من نهج التعامل مع الذي أنشأ هو بقدرته وأوجد.

فهناك جنات معروشات وغير معروشات، وهناك النخل والزروع مختلف الأكل، والزيتون والرمان المتشابه وغير المتشابه، وسل العلماء أهل الاختصاص عما يحمل كل صنف مما ذكر في الآيات الدالة أصرح دلالة على قدرة الخالق العليم وحكمته.

ومن خلال الوجهة البناءة التي يهدي إليها المنهج الرباني: أود التذكير بما أشرت إليه فيما سبق من الأمور الثلاثة التي ختمت بها الآية الكريمة وهي ضوابط غاية في الدقة والإحكام تشمل الفرد والجماعة وبنيان المجتمع في جانبه الاقتصادي والاجتماعي.

تلك الأمور والضوابط هي: إباحة الانتفاع بتلك النعم والاستمتاع بخيراتها، أداء الحقوق التي جعلها الله في المال ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ تجنب السرف لأن السرف مضيمة للمال مهلكة لصاحبه من الناحيتين السلوكية والاقتصادية، وعنوان أذية للمجتمع؛ لذا فإن الله لا يحب المسرفين. ذلكم قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ والوعيد على السرف هنا يحمله هذا الإعلان الذي يرهبه المؤمن، وهو عدم محبة الله للمسرفين - كما أشرنا آنفاً -، وجاء ذلك مقترناً بالدعوة إلى أداء الحقوق التي أوجبها الله في المال؛ فمن غير المقبول بحال من الأحوال أن يهمل أصحاب الحقوق ويزلزل كيان المجتمع بانحسار التكافل الاجتماعي والاقتصادي عنه.. وبديل أداء الحق المعلوم: يسرف صاحب المال ويبعثر الثروة هنا وهناك. ويبدو - والله أعلم - أن هذا الاقتران بين الأمر بأداء الحقوق في المال وبين النهي عن السرف: جاء للإشعار بأن الإسراف في المال والتبذير فيه طريق إلى حرمان أصحاب تلك الحقوق. وهذا ما لا يرضى عنه الله سبحانه وتعالى.

ولعل من الوفاء لأهمية هذه المقولة على طريق البناء السوي والإنماء الذي يصنعه - بإذن الله - تكافل أبناء المجتمع وتعاونهم على الخير.. لعل من الوفاء لهذه المقولة أن نذكر بما جاء في سورة الإسراء من اقتران على صورة قد تكون أكثر تفصيلاً، بين الحث على أداء الحقوق في المال، وبين النهي عن التبذير، والتبذير بالمبذرين بأنهم إخوان الشياطين.

ذلكم قول الله جل شأنه في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين ﴿وَأَتِذَا الْقُرْآنُ يُقْرَأُ وَالْمَسْكِينُ وَالْأَسْفَلُ لَا يُبَذِّرُ تَبْذِيرًا﴾ (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾.

فَالَّذِينَ يَبْدُونَ وَيَبْعَثُونَ: هم أخوان الشياطين. وإذا كان الشيطان كضوراً لربه فأخوانه المبذرون كذلك، ومن الكفران قبض الأيدي عن أداء الحقوق التي أوجبها الله في المال. ولقد يتضح ذلك أكثر وأكثر إذا كان المؤمن – وهو يجد ويكدح – على ذكر من أن المال مَالُ الله وأن المباد مستخلفون فيه ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. ﴿وَأَقْرَبُهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٢٣].

إن هذه اللبنة من لبنات المنهج الرياني في البناء جديرة بمفردها، أن توظف الفاضلين وتثير همم المتقاعسين، حيث ترقى بهؤلاء وأولئك إلى أخذ ذلك المنهج المبارك الزاخر بالعطاء، نعم إلى أخذه بقوة أخذ يشمر بالمسؤولية، ولا على صعيد التصور فحسب، بل على صعيد التطبيق الذي يشمل – فيما يشمل – بناء الحياة على مختلف الأصعدة كما أراد بنا تبارك وتعالى، وكما قاد رحلة البناء والإنماء على هداة محمد عليه الصلاة والسلام ومن معه عليهم الرضوان، ثم من تبعهم بإحسان على مر العصور والأزمان؟.



البناء.. وحراسة بني المجتمع وآيات من سورة الأنعام

« ٧ »

نتابع اليوم اصطحاب المعلم القرآني في بعض من آيات سورة الأنعام وعطائه فيها، على صعيد النهج المبارك البناء الذي وجه الله إليه العباد في ممارستهم الانتفاع بما أفاض عليهم من الرزق، وما أسبغ عليهم من النعم الظاهرة والباطنة.. فبعد قوله تعالى في ختام الآية الحادية والأربعين بعد المئة من السورة المشار إليها: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال جل شأنه: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنْ رِزْقِكُمُ اللَّهُ وَلَا تَبْهُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٧﴾﴾.

كان الحديث في الآية السابقة عن الزروع والثمار وفي هذه الآية – كما نرى – حديث عن بعض النعم في الأنعام. وواضح في ذلك كله التذكير بأن الله هو الذي أنشأ تلك الألوان من الأنعم وأباح لمبادء الانتفاع بها ليأكلوا من طيبات ما رزقهم منها، وقد هيا لهم سبل ذلك ودلهم على النهج الذي يصون الحقوق وينمي الثروة، ويجمل من تلك النعم طاقة لها – حين تسير في قنواتها الطبيعية – الأثر الكبير في بنیان المجتمع من جانيبه الاقتصادي والاجتماعي، كما يكون الاستمتاع بها على الوجه المطلوب بعيداً عن السرف والتبذير، مع أداء الحقوق الواجبة في المال لأصحابها، عنواناً استقامة العبد في امتثال أمر الله الرازق المنعم ونهيه، ووقوفه عند الذي يعليه الشكر له سبحانه؛ لأن ذلك مقتضى العبودية الخالصة لله عز وجل.

وهكذا يدور الحديث في هذه الآية الكريمة على التذكير بنعم أخرى مما أنشأ الله للناس، وهي الأنعام، والدعوة إلى الانتفاع بها وفق ما شرع الرازق الرحمن، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان في ذلك لأن الشيطان للإنسان عدو مبين.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَبْغُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١١٧).

فكما أنشأ - جلت قدرته - جنات معروشات وغير معروشات، والنخل والزرع مختلفاً أكله، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه.. أنشأ من الأنعام حمولة صالحة للحمل عليها كالإبل الكبار والخيل وغيرها، وفَرَشًا لا تصلح للحمل عليها كالإبل الصغار والغنم، وسميت فَرَشًا - كما يرى الإمام الطبري - لدونها من الأرض، فهي إشارة إلى نماذج من تلك النعم - على هذا القول - وليست استقصاء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، الحمولة: ما تركبون، والفرش ما تاكلون وتحلبون، وشاة لا تحمل: تاكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً.

ومهما يكن من أمر: فإن ما تزرع به الآية مما ذكر: واضح الدلالة في التنبيه على إنشاء الله لتلك الألوان من الرزق المنعم به على العباد، والتوجيه إلى النهج السليم في الانتفاع بها. ومن الجدير بالذكر أن تنبيهه على أهمية ما جاء من النهي عن اتباع خطوات الشيطان، مقترناً بالأمر بالأكل الذي هو للإباحة ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَبْغُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١١٧). أمر للإباحة مقترن بتأكيد أن الرازق هو الله كما هي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاقِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥) [الملك: ١٥].

وإذا ذكر الإنسان وهو يكد ويكدح في طلب الرزق ويجمع المال ويحز الشراء: أنا لرازق هو الله تعالى، كان ذلك أدعى للارتقاء إلى المستوى اليقظ في سلوك النهج الذي أراد الله وشرع لمعباده أن يسلكوه وهم يستمتعون بما رزقهم وينتفعون بتلك الأصناف من النعم، ومن هنا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْغُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فتسيران تلك الحقيقة حقيقة أن الله هو الرازق وهو الجدير أن يفرد بالمعبادة وأن يتمثل أمره ويجتنب نهيه في كل ما شرع وأحكم. نسيان مهلك يقع في

حبائل الشيطان والهوى فيشيع الإسراف والتبذير، ويقع التظالم، فلا تؤدي الحقوق، ويبتدع المنحرفون من عند أنفسهم أحكاماً هي التحليل والتحرير ليست من دين الله في شيء ما صنع أهل الجاهلية المشركون.

إن هذا التوجيه الرياني توجيه إلى إنشاء الواقع المبرأ من تلك الانحرافات في كل زمان، وتثبيت للقيم التي تحفز إلى العمل الخير من داخل النفس وتنمية الموارد الاقتصادية على النمط الذي يتحقق فيه نماء الثروة والتكافل الاجتماعي في ظل العبودية الخالصة لله.



البناء.. والمنهج العملي في التعامل مع النعم بدءاً من العهد المكي « ٨ »

ما جاء في الآيتين الحادية والأربعين بعد المئة وتاليتها من سورة الأنعام قيس من ضياء المنهج الرياني في البناء، وهو المنهج الكريم الذي تبدى إشرافه منذ أول يوم في العهد المكي.. فكان من مقتضيات البناء الذي يتناول الإنسان والمجتمع والأمة.. أن يبدأ بكشف النقاب عن عوامل الهدم في تلك الأوضاع الجاهلية — على قاعدة التخلية قبل التحلية — كيما يزاح ركائها المؤذي من طريق البناء العاملين. ومن خلال ذلك كان يتبدى ما ينبغي الأخذ به؛ وما ينبغي اجتنابه في عملية البناء الكبرى التي بدأت تبشيراً في وقت مبكر من عمر الدعوة.

والآيتان المشار إليهما هما قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيْحَانُ مِثْلَهَا وَغَيْرَ مِثْلَهَا كُلًّا مِنْ لَدُنْهِ إِذَا أَمَرَ فَأَتَى حَقُّهُ يَوْمَ فَضْلِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ١١١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلًّا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَبْهُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١١٢﴾.

والحق أن هذا التذكير بالنعم، والمنعم سبحانه والتوجيه إلى الطريق البديلة لما كان عليه الجاهليون، مما أشارت إليه آيات كريمات صحتها في كلام سلف.. الحق أن هذا التذكير وفقاً لخطوات المنهج الرياني في البناء والتحضير له منذ العهد المكي: قد تعددت نماذجه في مواطن من الذكر الحكيم. نقرأ في ذلك مثلاً ما جاء في سورة النحل — وهي سورة مكية — من قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠﴾ نَبَتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾.

على هدي هذه الحقيقة نتابع الرحلة مع المعلم القرآني وقد سبقنا أن وقفنا على بعض من عطاء قوله تعالى في الآية الثانية والأربعين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَبْغُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٤٢). إذ إن ما جاء في هذه الآية بإجمال وما قاله العلماء بشأن الحمولة والفرش: يقودنا إلى آيات آخر تحمل شيئاً من التفصيل من الخير أن ننظر فيه. وعلى سبيل المثال لا الحصر: ما نحن أولاً نقرأ في سورة النحل قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَبْغُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٤٢). وفي سورة المؤمنون وهي - كما نعلم - سورة مكية نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّئَلَّا تُفْسِدُوا مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٦١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ [المؤمنون: ٢١ - ٢٢]. وتطالعنا سورة يس بقول الله جلّت حكمته: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

إنها الدلالة على النهج الذي ما بد من سلوكه في التعامل مع النعم، سواء ما ذكر منها في القرآن بتفصيل، أو ما يندرج منها تحت التسخير، مما يصل إليه العلم يوماً بعد يوم، وهو نهج يجمع إلى الانتفاع بالنعم - عملاً بإباحة الله لها - : شكر الخالق بتسيير تلك النعم مسارها الطبيعي، وأداء ما يجب فيها من حقوق بعيداً عن الإسرف والتبذير. والواجب من وراء ذلك كله - وهذا على صعيد المجتمع الكبير - وضع ما تعطى هذه النعم من قدرات اقتصادية على طريق يضمن رفاه المجتمع وقدرته على العطاء في ظل شريعة الله، كما يضمن القوة الذاتية للأمة وهي القوة التي أمر الله بإعدادها للجهاد في سبيل الله الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، وهو ماضٍ إلى يوم المآد.



البناء.. وأهمية التوجه إلى الاعتبار، إعمال العقل في المنهج المستقيم « ٩ »

يطيب لي أن أعود معكم اليوم إلى الاستنارة بمزيد من عطاء المعلم القرآني في دلالته على النهج الذي وَجَّهَ العباد إلى سلوكه وهم يأكلون من طيبات ما رزقهم الله، ويستمتعون بما أودع في الكون من خيرات، وما يسرُّ لهم من سبل الانتفاع بها، وأعطاهم مفاتيح ذلك حين أهلَّ الإنسان بالوسائل المطلوبة، وخلقه في أحسن تقويم.

وقوام النهج المشار إليه - كما دلت آيات الكتاب المبين التي رأينا بعضاً منها في سورتي الأنعام والنحل - أن يكون التعامل مع أنعم الله وفق ما شرع سبحانه، دونما عدوان على ساحة التحليل والتحريم، كما فعل أهل الشرك الجاهليون، ودونما نسيان لخالق تلك الأنعم الذي أنشأ ورزق وسخر للإنسان ما سخر في البر والبحر والجو كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝٣٧ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٨ وَأَتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَاءٍ سَائِطَةٌ وَإِنَّ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٩﴾.

كل أولئك في ظل الشكر الذي تتحقق معه العبودية لله، وذلك بوضع النعمة موضعها أداء للحقوق، ومنعاً للظلم الاجتماعي، وتسييراً للطاقة الاقتصادية في قنوات منتجة تعود على الفرد والجماعة بالخير تحقيقاً للنمو، وتسهم في تقوية كيان المجتمع، والارتقاء به مرحلة بعد مرحلة إلى مستوى النماء المجدي والقدرة على العطاء.

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١١٤﴾
[النحل: ١١٤].

وكان آخر ما صحبنا من تلكم الآيات الآيتان الحادية والأربعون بمد المثة والآية التي تلتها وهما قول الله جل شأنه وتباركت أسماؤه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ١١٥﴾ ومن الأنعام حمولة وقرشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١١٦﴾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن من لمحات الإعجاز في المنهج الرياني.. أن علاج أية مشكلة على طريق القضاء على عوامل الهدم، والتوجيه إلى البناء النافع كيف يكون.. يصحبه - في الأعم الأغلب - استشارة للعقل كيما يتجاوز الأسداد التي ضربت عليه، ويممل عمله بالنظر فيما تطلق الجاهلية من أحكام جائرة ليس على واحد منها دليل، وتتضافى مع أبسط الحقائق بله الإيمان بالله الذي خلق وأنشأ ورزق سبحانه، وتعبّد عباده بالنهج الذي عليهم أن يسلكوه وهم يمارسون الحياة من خلال رزقه وأنعمه.

ها نحن أولاء نقرأ بعد قوله تعالى في خاتمة الآية الثانية والأربعين بمد المثة من سورة الأنعام المشار إليها آنفاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ قوله جل وعز في مطالبة للجاهليين بإقامة الدليل على ما يزعمون من ألوان التحريم والتحليل: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الْعَصَائِرِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَمَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نُبَوِّئُكُمْ بِعَلَمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١١٧﴾ ومن الإبل اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١١٨﴾.

إن هذه التمرية لصنيع الجاهليين في التحريم والتحليل من عند أنفسهم، والكشف عن أن هذا الصنيع افتراء على الله الكذب عارٍ عن الحجة والدليل، بعيدٌ عن العلم وحكم العقل السليم... إن هذه التمرية جديرة بأن يتعاطف معها يقين الذين يتحركون على ساحات البناء والإنماء: بوجوب الأخذ بالمنهج الرباني، علماً وتخطيطاً وتنفيذاً.

وهو أخذ ما أعظمه عنواناً على الوجهة التي تنمو معها القدرات البشرية والطاقات الفاعلة في ظل العقيدة التي تكرم الإنسان وتُحل العقل مكانه اللائق هي فهم الوحي، وإعطاء السليم من الأحكام.



سلامة بناء الفرد والمجتمع..

والتكامل بين الدنيا والآخرة في المنهج الرباني

شهدنا في مناسبات قريبات بعضاً من عطاء المعلم القرآني في مجموعة مباركة من آيات سورتي الأنعام والنحل، حيث الدلالة على النهج الذي أراد الله لعباده أن يسلكوه، وهم يأكلون من طيبات ما رزقهم، ويتقلبون بأنعمه التي أنشأها بقدرته.. فيشكروه ولا يكفروه، ويلتزموا أحكامه فيما أحل وفيما حرم، فلا يتجاوزوا ذلك – كما كان يفعل أهل الجاهلية – إلى ابتداع أحكام من عند أنفسهم لم يأذن بها جل شأنه ولم يرضها.. ثم زعم أنها من عند الله افتراء على الله... وقد أوضحت الآيات المنوه بها والتي تنزلت في العهد المكي لتزيل الركام الجاهلي الذي أضر بالفرد والجماعة.. وسار بالمجتمع سيرة الضعف والانحلال... أوضحت تلك الآيات أن المخالفة عن ذلك النهج الذي أراد الله لعباده: طاعة للشيطان واتباع لخطواته وهو العدو المبين للإنسان ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

كما أوضحت أن تلك المخالفة التي تحمل – فيما تحمل – افتراء الكذب على الله – تجر أصحابها إلى عدم الفلاح في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلَاحِظُونَ﴾ (١١٦).

وأود أن أشير اليوم إلى أن امتثال أمر الله فيما شرع بشأن الاستمتاع بالطيبات التي رزق بها عباده، والانتفاع بما سخر لهم من خيرات وثروات.. كل أولئك يضمن لأهل الاستقامة على ذلك – وهو المفضل سبحانه – أن تكون تلك الطيبات والنعم – بجانب ما أعطت من ثمرات البناء في الدنيا – خالصة لهم يوم القيامة فلا يشركهم غيرهم في الجنة.

ها نحن أولاء نجد في التنزيل الحكيم — مكِّه ومدنيّه — آيات عدّة تبيح طبيّات ما رزق الله وتدعو إلى الشكر والتزام النهج المستقيم في التعامل معها، من مثل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُفْرَ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٦٤) وقوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقَكُمُ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُفْرَ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢). وفي صورة مشرقة مباركة لتكامل المنهج الرباني الذي يُسلم المؤمنين الوُفّاقين عند حدود الله إلى سعادة الدنيا والآخرة نقرأ قول الله جل وعز في الآية الثانية والثلاثين من سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَطَيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٢٦).

فزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق وإن شرك المؤمنين الاستمتاع بها الكافرون في الدنيا: فهي خاصة يوم القيامة بأولئك المؤمنين لا يشركهم فيها أحد من الكفار: فإن الجنة محرمة على الكافرين. إنه الشمول في المنهج الذي يتسع للدنيا والآخرة جميعاً.. وينشئ هي نفوس المؤمنين من الحوافز التي تجمل منهم أولئك البناة الخيرين الذين لا يعيشون في عزلة عن الحياة، ولكن بينونها بإيمان وعمل وطمأنينة، وفي الوقت نفسه لا يحيدون عن الجادة، بل تراهم والدنيا بالنسبة إليهم: مطية الآخرة، فلا إفراط ولا تفريط ولكن بناء للإنسان والمجتمع على النهج الذي يمكن للمؤمنين في الأرض ويتيح لهم نشر دعوة الحق والخير، ويسلم إلى الفوز بالجنة يوم الحساب.



تكامـل البناء الثقافي والاجتماعي والاقتصادي..

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾

« ١ »

في أعقاب تطاؤنا مع مجموعة من الآيات الكريمات في سورتتي الأنعام والنحل: قادنا المعلم القرآن على ساحة ما وجه إليه الكتاب الكريم من وجهة بناء بشأن الانتفاع بطيبات ما تفضل به الله على عباده من الرزق، والإفادة مما سخر لهم من عناصر لبناء الحياة ومقومات الوجود الذاتي الفاعل والمنتج في الكون.. قادنا هذا المعلم الكريم إلى قول الله تعالى في الآية الثانية والثلاثين من سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْعِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وقد سبقت الإشارة إلى ما قاله علماؤنا في بيان معنى الآية من أن المشركين يشاركون المؤمنين في ملبت الحياة الدنيا وزهرتها، ثم يستخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، ولا يكون فيها للمشركين شيء، فإن الجنة محرمة على الكافرين.. حتى أعمالهم التي تحمل سمة النفع والخير ينالهم أجرهم عليها في الدنيا نقماً مادياً ورفعة عند الناس وسمعة وما إلى ذلك.. وليس لهم في الآخرة من نصيب. ذلك لأن الأساس الذي يجعل للعمل وزناً عند الله - وهو الإيمان - مفقود عندهم وليس كذلك المؤمنون الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فعملوا الصالحات وطوعوا تصرفاتهم ومنهج سلوكهم لما تقتضيه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وهكذا، ترى أن المؤمنين يهديهم ربهم بإيمانهم، فيجمع لهم بفضلهم إلى زينته التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق: نعيم الجنة في الآخرة، والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهذا ما يرتفع بالمؤمن دائماً إلى مستوى العمل المثمر الذي يعود عليه وعلى مجتمع بالخير والنماء... ويحول دونه ودون الانحراف. وفي الوقت نفسه يجعله - بإيمانه - وما يثمر له من خير عند الله أقوى من الموائق والمثبطات... وعملية البناء الكبرى، على صعيد الإنسان والمجتمع: تحتاج أول ما تحتاج إلى تلك الكفايات البشرية التي تتمتع بقدر كبير من الاندفاع القائم على حوافز ذاتية من داخل النفس، والتي يكون لها من سمو الغاية المرجوة عند الله ما يستعلي بها على العقبات وكل ما هو مدمعة لليأس أو الانحراف.

فهما نال المؤمن من المتاعب في هذه الدار وهو يكدح على طريق البناء... يجد الأمر هيناً إذا قاسه بما أعد الله للمؤمنين في الآخرة وأن الله تعالى لا يضيع عنده عمل عامل مهما كان شأن ذلك العمل. والآية التي نعوذ في معانيها واضحة في هذا الذي نقول؛ فبعد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ جاء ما يكشف عن العطاء الإلهي وسببه ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إن الإيمان وهو القاعدة التي يبنى عليها عمل المؤمن: هو الذي كان سبب هذا العطاء الإلهي؛ فزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق هي للذين آمنوا في الدنيا يشركهم فيها الناس، لكن العطاء الإلهي في الآخرة خاص بهم بوصفهم مؤمنين.



مرة أخرى مع التكامل في البناء الثقافي... وغيره وآية الأعراف « ٢ »

كثيراً ما يعين سياق الآية الكريمة وما سبقها وما تلاها على تبين المغزى المراد، وتجلية الأبعاد التي يأخذها ذلك المعنى كما هو في عطاء المعلم القرآني.

وددت أن أسوق هذه الكلمات تعقيباً على ما أسعدنا به قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْعَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾. وما أشهدنا ذلك من تلك اللوحة المضيئة في المنهج الرباني على ساحة البناء لشخصية المسلم بناءً يتسم بالقدرة على الاندفاع الذاتي، وتجاوز العقبات رغبة فيما عند الله، ويقيناً بأن الله تعالى لا يضيع عنده مثقال ذرة، وذلك فارق ما بين المؤمن والكافر، فالؤمن يستمتع – وهو على الجادة مستقيم العمل والسلوك – بخير الدنيا يبنّيها وينميها وينفع نفسه ومجتمعه، وتكون له الجنة في الآخرة خالصة من دون الكافرين.. أما أولئك الذين عموا وصمموا عن الحق ورائت على قلوبهم الضلالة.. فهاخذون حظهم من الطيبات في الدنيا، ولكن ليس لهم في الآخرة من خلاق.

ولقد سبقت الآية الكريمة المشار إليها بقول الله جل وعز: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ وقد ورد عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله أن يأخذوا زينتهم وهي ما يتزين به الناس من الملابس عند الصلاة والطواف.

وكذلك روي عن عدد من التابعين وغير واحد من أئمة السلف في تفسير الآية أنها نزلت في ملواف المشركين بالبيت عمرة. تبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

فمشروع للعباد أن يستمتعوا برزق الله وما أنعم به من الخيرات دونما سرف، فالسرف حرام والله لا يحب المسرفين. إنها المنهجية البناء في التعامل مع أنعم الله التي يفيضها رزقاً على عباده ينتفعون بها دونما تجاوز التحليل والتحریم، دونما شح في أداء الحقوق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]. ودونما وقوع في السرف الذي كثيراً ما يؤدي إلى إضاعة المال، وبمثرة الثروة، وإلى إهدار الحقوق الواجبة في ذلك المال، الأمر الذي يؤدي إلى الظلم الاجتماعي، وإدخال الوهن إلى بنيته المجتمع الاقتصادية والاجتماعية؛ لذا كان المبدزون إخوان الشياطين وقد أشرنا إلى ذلك في كلمات سلفت عند الذي رأينا من اقتران الأمر بأداء الحق الواجب في المال، وبين النهي عن الإسراف فيما جاء في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مِثْلَهَا وَغَيْرَ مِثْلَهَا كَلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [١٤١] حيث أذكرنا المعلم القرآني ما جاء في سورة الإسراء من قوله جل شأنه: ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْبَيْنِ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ [٢٦] إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا [٢٧] [الإسراء: ٢٦-٢٧].



التكامل في البناء.. التسخير وعلاقة الإنسان. الكون والحياة « ٣ »

النهج الذي دعي العباد إلى التزامه في التعامل مع النعم التي أنعم الله بها عليهم والرزق الذي يسر لهم مفاتيحه فيما سخر لهم من كونه في البر والبحر والجو.. هذا النهج - كما رأينا في سور الأنعام والأعراف والإسراء والنحل - يتسق تمام الاتساق مع الذي فطر الله عليه الإنسان وأودع فيه من الاستعداد والميول.. وتلك هي الواقعية الحكيمة التي تتمثل في ذلك الاتساق، بحيث ترى أن العلاقة بين الإنسان - كما خلقه الله وكونه وأعد له للخلافة في الأرض - وبين الكون والحياة: علاقة تُسلم في ظل الاستجابة الصادقة لدعوة الحق إلى البناء الذي يتسم بالسلامة، ويحقق - مع كرامة الإنسان وطمأنينته - الوجود الذاتي المتكامل لمجتمع متماسك قوي، وللأمة التي شاء الله أن تكون - بالإسلام - خير أمة أخرجت للناس.

وفي رحلة مع هذه المقولة ألقينا عصا التسيار عند قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وقادنا النظر فيها إلى الآية التي سبقتها، لما أن بين الآيتين الكريمتين لونا من التكامل هو من سمات الكتاب المعجز، في التوجيه البناء إلى أن يكون المؤمنون، وهم يرتادون لأنفسهم ولل البشرية طرائق البناء للإنسان والمجتمع.. أن يكونوا على النهج الذي يبدو على غاية التواءم مع سنة الله في علاقة الإنسان بالكون والحياة. والآية المشار إليها هي قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

مِن الصَّاعِرِينَ ﴿١٢﴾ وقد أشرنا فيما سلف من القول هناك إلى سبب النزول حيث كان المشركون يطوفون عراة حول البيت وجاء الأمر الرباني باللباس عند الصلاة والطواف، كما أشرنا إلى حكمة الاقتران بين الدعوة إلى الاستمتاع بالنعمة والانتفاع بها، وبين النهي عن السرف الذي كثيراً ما يؤدي إلى بمرثرة الثروة والظلم الاجتماعي، وإدخال الوهن على المجتمع في بنيته الاقتصادية والاجتماعية.

وهي السنة مزيد من الإيضاح لهذه القضية المهمة على صعيدي التصور والتطبيق في المجتمع. فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مَخِيلَةٍ وَلَا سَرْفٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ أَنْ يَرَى نَعْمَتَهُ عَلَى عِبْدِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ «كلوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مَخِيلَةٍ، والمَخِيلَةُ: الكبر، ومن هنا قال ابن عباس رضي الله عنهما «كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك خصلتان سرف ومخيلة، أرايت إلى هذا التكامل في المنهج وإلى التوازن في حركة الإنسان نفسه كما خلقه الله وكونه وفي علاقته بالحياة.

إن المؤمن يتحرك على ساحة البناء مطمئناً دونما عقد ولا أمراض نفسية ولا رغبة جامحة في تجاوز الحق، وكل أولئك ضمن منهج رباني حكيم، لأن الإسلام وجه علاقته بالكون والحياة التوجيه الواقعي الذي يتوأم مع حقيقة مع فُطر عليه الإنسان بحكمة الخالق الذي خلقه في أحسن تقويم، فسواءً فَعَدَلَهُ، ومع الصورة المثلى التي شاء الله أن تكون لعلاقته بالكون والحياة.

وقد أثمر ذلك في ظل الاستمساك بهدى الإسلام أقوم حضارة وأمثلها كما تشهد الوقائع وتنطق به مظاهر العطاء الخير للإنسان ونصرة الحق عبر القرون.



مع آيتي الأعراف... وتكامل البناء والبنى

« ٤ »

نعود اليوم مرة أخرى إلى الآيتين الكريمتين من سورة الأعراف وهما قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾.

نعود إليهما لنقتبس من عطاء المعلم القرآني فيهما ما يهدي إلى لون من التكامل، له أثره الملحوظ في النهج الذي وجه المبدأ إلى سلوكه وتطويع النفوس له عند التعامل مع أنعم الله التي أنشأها لعباده ورزقهم من طيباتها . فالزينة التي أمر بنو آدم بأخذها: مقصود بها — كما رأينا من قبل في سبب النزول — اللباس عند الصلاة والطواف؛ لأن المشركين كانوا يطوفون عراة في البيت الحرام، فجاء التوجيه الرياني إلى الأدب الواجب مع الله ومع بيته المطهر. ثم تبع ذلك ما يرى في الآية من دعوة إلى الاستمتاع بنعم الله، وأوضح صورة لذلك «كُلُوا وَاشْرَبُوا» واقترن ذلك بالنهاي عن السرف والوعيد الشديد عليه «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» وأي وعيد أشد من أن الوقوع في هذه المهواة مجلبة لعدم محبة الله تعالى.

وينتقل بنا التوجيه الرياني الحكيم على ساحة البناء المتكامل للإنسان في تصورات ومشاعره وفق ما فطره الله عليه.. وعلى ساحة الممارسة لشؤون الحياة والتعامل مع ما أودع الله في هذا الكون من خيرات وما سخر منه للإنسان من أنعم لا تعد ولا تحصى...

ينتقل بنا هذا التوجيه إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ فمن توجيه إلى أخذ الزينة وهي اللبس هنا في حالة معينة وإباحة الانتفاع بالرزق مع النهي عن السرف والتوسع عليه ﴿خَلَدُوا بِتَكْمُ عَدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ إلى نظرة كلية عامة بهذا الشأن وهي أن الله تعالى قد أباح لعباده أن يتمتعوا ضمن الحدود التي رسمها في التحليل والتحريم: بما أخرج لهم من زينة في الحياة الدنيا، وما أباح لهم من طيبات الرزق وقد جاء هذا التقرير على صيغة الاستفهام الإنكاري ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾ الذي يقتضي أنه ما من أحد يملك أن يخالف عن أمر الله فيبتدع - كما كان يفعل الجاهليون - تحليلاً وتحريماً من عند نفسه. وإذا حصل ذلك فهو عنوان الضلال، وأشد منه ضلالاً أن يُفترى على الله الكذب، فتتسب تلك الأحكام الجائرة التي تحول دون العبادة، ودون أن يفيدوا مما رزقهم الله من نعم وأن يستمتعوا بما أخرج لهم من زينة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾.

وهكذا نجد لونا من التكامل بين الآيتين الكريمتين، يبرزه التدرج من الجزئية في الموضوع، إلى الكلية التي تنم عن سمو المنهج الرياني واتساقه مع ما خلق الله عليه الإنسان وكونه، ومع الطريقة التي شاءها سبحانه لتعامل الإنسان مع الكون المسخر والحياة.. الأمر الذي يسمف الإنسان في تحقيق ما خلقه الله من أجله عبودية له وحده في العقيدة والشريعة، وإدارة لحركة الحياة الحياة بانشرح صدر وطمانينة على الوجه الذي يشبع النماء والخير في المجتمع، ويسير الطاقات والإمكانات في قنوات مأمونة، وذلك ما يقتضيه المنهج الرياني في البناء. وذلك ما حققته الأجيال التي أخذت بالإسلام عقيدة وعلماً وعملاً وسلوكاً فكانت الحضارة الفضلى وكان الخير المميم.



وجوب التنبيه.. للإعلام المعادي

« ١ »

من الحقائق التي لا تقبل الجدل: أن فتاجي اليهود بالإثم والعدوان عندما كانوا يرون واحداً من الصعابة، في حقبة المودعة بينهم وبين المسلمين: كان نوعاً من الخبث الإعلامي يقصد من ورائه إدخال شيء من القلق والرعب في نفوس بعض الأفراد من المسلمين، وأن الله تعالى كشف هذا الزيف، وزاد في إيمان المؤمنين وثقتهم بريهم وصدق توكلهم عليه، الأمر الذي يثمر زيادة الثقة بالنفس، وينفي خبث الحرب النفسية التي يمارسها العدو مستغلاً تلك المودعة التي كانت بين اليهود والمسلمين ولكم ما جاء في سورة المجادلة من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الضَّوُّنُ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

ودلالة هذه الواقعة واضحة هي أنه لا بد - مع الإيمان - من الأخذ بالأسباب، وتلك سنة الله في الكون. المؤمنون - وهم مؤمنون - يأخذون بالأسباب ويؤمنون المدة كما أمرهم الله تعالى ويتوكلون عليه، تأسيساً بما كان منيع قدوتهم وإمامهم رسول الله ﷺ، حيث كان في دعوته وهجرته وجهاده وبنائه للمجتمع والدولة: يسير على مقتضى السنن الكونية التي برأها الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فتراه لا ينفك يُعدُّ لكل أمر عديته في حدود المستطاع، ولا يهمل أن يأخذ بأي من الأسباب المشروعة التي يمكن الأخذ بها. أما أن يكرمه الله بالمعجزة: فذلك أمر آخر، لكن السير مع السنن الإلهية في الكون مع صدق التوكل على الله: هو الأساس.

وكل أولئك يقع مضموماً إليه صدق اللجأ إلى الله وطلب العون والنصر منه سبحانه؛ لأن الأمور بيده، وما النصر إلا من عنده وهو الحكيم الخبير.

لذا رأينا هنا أن الآية القرآنية في مواجهة صنيع اليهود عملت على تثبيت القلوب، وطمأنة النفوس كهما يكون المسلمون قادرين — بعون الله — على اتخاذ الموقف المناسب ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَمُوتُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ ١٠٠.

وهذه شعبية أخرى من شعب الضياء في المعلم القرآني. اليهود يرمون إلى إثارة نوع من الرعب وخلخلة الثقة بالنفس. ويأتي المعلم النير الكريم هنا، ليثبت في أعماق النفوس أن النجوى التي يمارسها اليهود: من الشيطان، والغاية هي إدخال القلق الحزن على الذين آمنوا، ولكن ذلك ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، وإذن فليتححر المؤمنون من كل نوازع الخوف والترقب المرهق، وليتوكلوا على الله فهو حسبهم ونعم الوكيل. والأجل بيده لا يقربها إقدام ولا يؤخرها إحجام، وهو ناصرهم إن هم نصروه.

والمؤمنون يعلمون حق العلم أن التوكل إنما يكون توكلأً حقيقياً صادقاً، إذا اقترن بالعمل والعزيمة الصادقة في الأخذ بالأسباب المطلوبة الممكنة، وإلا كان نوعاً من التواكل.

والذين تسوّل لهم أنفسهم أن التوكل يعني التواني والتكاسل والقعود عن الأخذ بالأسباب — ثقة بما عند الله — على زعمهم، يجنون على أنفسهم ويجنون على الحقيقة الإسلامية في هذا. شأنهم شأن أولئك الذين يزعمون أن الأخذ بالأسباب هو كل شيء، ولا يلتفتون إلى حقيقة أن النصر من عند الله، وأن نتائج الأخذ بالأسباب من خلقه سبحانه وتعالى؛ فلا بد من الجمع — كما كان يفعل رسول الله ﷺ وهو نعم الأسوة للمؤمنين في كل زمان — حين يستوفي الأخذ بالأسباب المتاحة، ولا يني يطلب النصر من الله، ويلجأ بخشوع وخضوع إليه سبحانه.

من أجل هذا: لعلني لا أبعد النجعة إذا استوحيت من ضياء المعلم القرآني وما اكتنف معانيه من وقائع: أن من المهمات على طريق الدعاة والمربين المصلحين اليوم — والأمة تطمح إلى تحقيق غايات كبار — تنمية القناعة بما توجيه العقيدة من تحقيق التكامل بين الأخذ بالأسباب، وصدق التوكل على الله.

وكان ذلك هنا صورة من صور الإعلام الذي ينطلق من بواعث الخير والبر ويتحرك على ساحة الكلمة الصادقة والعلاج الناجع في مواجهة الأسلوب الإعلامي المتحرف عند العدو.. وهو واحد من أسلحة المواجهة كما علمنا القرآن، وبين رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

والمسلمون اليوم – وهم يُسامون الخسف والهوان – بأمس الحاجة في شتى بقاعهم إلى تنمية الطاقات الإعلامية ضمن منهج مدروس يجمع بين الأمالة وإدراك الواقع، لتغطية المتغيرات في العالم الإسلامي، والوقائع التي تلدها التحديات والتصرفات الجانحة صباح مساء.

ومن الضرورة بمكان: أن تكون إيعاءات المعالم القرآنية واضحة في الأذهان توجه العاملين البناء، وتأخذ بأيديهم إلى مرابع النجاة العلمية والإعلامية كما يريد الإسلام.

مرة أخرى: إن آية سورة المجادلة هذه – وقد نزلت تكشف عن مكر يهودي، وتحرر المسلمين من إसार هذا المكر وذيوله –: هي معلم من معالم البناء المشرقة، ودعوة إلى تنمية الطاقة النفسية، والقدرة الإعلامية الخيرة عند المسلمين – أن لو شاء ذلك أهل الحل والعقد – واستخدام الأسلوب العلمي النافع عند المواجهة، على قاعدة من الإيمان والصدق في نشدان الحقيقة ولله عاقبة الأمور.



وجوب التنبيه.. للإعلام المعادي

« ٢ »

ما أكثر ما تزخر به معالم القرآن من منابع الهدى والضياء، وما أكثر ما يجد المسلم نفسه مشدوداً إلى الواقع من خلالها؛ فهي تحل مشكلاته وتثير ما أظلم من دروب.

ولقد أذكرني ما كنا بسبيله في كلمات قريبات، بواقعة إعلامية أخرى، حشد فيها المشركون طاقاتهم الدعائية بكل الوسائل المتاحة، لإصاق التهمة برسول الله ﷺ وأصحابه بأنهم قاتلوا وقتلوا في الشهر الحرام؛ وما دام الأمر كذلك: فقد سقطت الأقنعة، وما على العرب جميعهم من وراء قريش إلا أن يكونوا معها في القضاء على هؤلاء الذين لا يرعون للأشهر الحرم حرمة، ولا يقيمون للأعراف الموروثة عن الآباء والأجداد أي وزن.

وجاء الرد القرآني عليهم بأن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن ما صنعه مشركو قريش أكبر، وفتنة المسلمين عن دينهم أكبر من القتل، وامتد رواء الهداية إلى تنبيه أهل الإيمان على أن الصراع مع الشرك وأهله: صراع على كلمة التوحيد، ولن ينقطع الجاحدون عن قتالكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا. ومن يرتد منكم عن دينه فماله الخسران المبين.

والحق أن ذلك الطرح المنصف، المثقل بالتوعية، ورد القضية إلى جذورها الأصلي، كان تنبيهاً للفاقلين، وإيقاظاً لمن قد يؤخذون بضجيج الدعاوى، والصياح الفارغ من هنا وهناك؛ وتلقيه على طريق المسلمين المثقلة بالأعباء: مملأ مباركاً علم أهل الإيمان كيف ترد الأمور إلى نصابها، وفتح للأمة آفاقاً في المواجهة الإعلامية وبواعثها ونيلها، لا يحدها عصر من العصور، ولا مناسبة محدودة بلون من الملابس.

ذلك بأن رسول الله ﷺ — كما تذكر المصادر — بعث عبد الله بن جعش الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى بسرية ومعه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يسير يومين فينظر فيه فيمضي كما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً، فلما سار عبد الله يومين فض الكتاب فإذا فيه: «أن سر حتى تنزل بطن نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشاً وتعلم من أخبارهم»؛ فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإني موص وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فسار وتخلف عنه سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان أضلاً راحلة لهما وت خلفا يطلبانها، وسار عبد الله حتى نزل نخلة فإذا عيرٌ لقريش تحمل زيتاً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي وكان ذلك في آخر يوم من رجب من السنة الثانية للهجرة.

وبعد أخذ ورد وقدر كبير من التشاور قالوا: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتعن منكم، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، وكان أن قتلوا عمرو بن الحضرمي وأخذوا أسيرين والمير، وأقبل عبد الله بن جعش وأصحابه بالمير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

وقالت قريش حين بلغها الأمر: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال — وعلى لفتنا اليوم — حشدوا كل طاقتهم الإعلامية المتاحة يومذاك.

ومن كثرة ما قيل، أسقط في أيدي عبد الله بن جعش وإخوانه، وظنوا أنهم قد هلكوا وحاول اليهود استغلال الواقعة، وقاموا أن تكون بداية لمصاعب على طريق المسلمين.

فلما أكثر الناس في ذلك - كما يقول ابن إسحاق - أنزل الله على رسوله ﷺ قوله جل ثناؤه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَزَالُونَ بِقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَبِمَتٍ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧]. تلا ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

هكذا حاول المشركون تضليل الرأي العام في جزيرة العرب وإثارة الناس ضد الإسلام وأهله من طريق استغلال الواقعة التي حصلت، وإعطائها حجماً يقصد من ورائه التعمية على ما قاموا ويقومون به من الأذى وقتل الناس عن دينهم، بما يملكون من أساليب لم يكن أقلها التعذيب والتهجير والتهديد بالقتل وما إلى ذلك.

وجاءت الكلمة القرآنية لتبين حكم ما حصل ولتضع الواقعة موضعها الطبيعي ضمن حقبة تاريخية تمتد إلى ما يقرب من خمسة عشر عاماً في مكة والمدينة بينهما، وتواجه ادعاءات مشركي قريش وما قاموا به من ضجيج إعلامي حول صنيع عبد الله بن جحش وإخوانه رضي الله عنهم، يهدف إلى إحداث رأي عام ساخط على رسول الله ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ودعوة الإسلام، ولتعالج المشكلة من طيق المواجهة بالحقيقة مفصلة بأرقامها ووحداتها، بأسلوب غاية في الإنصاف والتوجيه الحكيم الرشيد. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ قال يا محمد ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ ولكن أين هذا القتال في الشهر الحرام مما صنمته وتسنمه قريش!! فالصدُّ عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام، وإخراج أهل هذا المسجد منه - وهم أهله - واضطراهم إلى الهجرة أو الاستخفاء: أكبر عند الله من قتل من قُتل من المشركين وهو عمرو بن الحضرمي...

والفتنة أكبر من القتل؛ فقد كان هؤلاء الذين يزعمون الفيرة على حرمة الأشهر الحرم يفتنون المسلم في دينه بألوان الأذى حتى يردوه إلى الكفر؛ فذلك أكبر عند الله من القتل.

أقول بعد هذه الرحلة القصيرة التي قد لا يتسع لأطول منها المقام: إن في هذا المعلم القرآن دعوة للمؤمنين في كل عصر أن يزيدوا من تنمية الوعي عند الفرد والجماعة، وتبين الحقائق بإنصاف، وبناء القوة القادرة — بإذن الله — على مواجهة كل سلاح بما يفله.

الم يقض القرآن في هذه الآية الكريمة على شائعات قريش ودعاواها المشبوهة بالحقيقة معلنة صارخة، فأنصف في الحكم، ونبّه وأيقظ على أدق وجه وأكمله، وحال دون أن تسيطر الغفلة على المؤمنين، أو أن يهتزوا لضجة إعلامية يصطنعها العدو، أو تمويه يفتره ليكسب مظاهره الآخرين على الحق وأهله؟ بلى قد أثار طريق الأمة بذلك ويكثر منه والمطاء القرآني لا تحدّه واقعة أو زمان.



اليقظة والتنبيه للإعلام المعادي

« ٣ »

في ضوء المعلم القرآني الذي ألحنا إلى بعض إشراقاته من قريب: يجد الناظر المتأمل لونا من الواقعية والتربية على الصدق فيها إلى جانب البناء الذاتي، وتنمية المشاعر في مواجهة الحرب النفسية، وما يمكن أن يثير العدو من شائعات يراد من ورائها ما يراد.

دل على ذلك قوله تعالى - والخطاب للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه - :
« قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَبِيرٌ » بعد قوله جلّ وعلا: « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَاتِلٍ فِيهِ » أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام. قل يا محمد قتال فيه كبير.

هذا هو الحق، ولا يفني من الحق موارية أو مداجاة بل لا بد أن تقال كلمته بوضوح وصدق.

فالأواقع أن القتال حصل في الشهر الحرام وإن كان الأمر قد التبس على عبيد الله بن جحش وأصحابه بسبب أنها كانت آخر ليلة من جمادى الآخرة.

فلينطق المسلمون بالحق، مهما كانت صفة من يجادلهم أو يحاورهم في شأنه؛ فمن علامات أهل الحق، أن لا يضيع عندهم الحق، وأن يقولوه ولو على أنفسهم؛ لأن ذلك مقتضى الإيمان.

إن القرآن - على طريق بناء الذات، والثقة بالنفس - يعلم الأمة أن دعاوى المشركين المضلّة ومحاولتهم استغلال قتل عمرو بن الحضرمي، لا يصح أن يعمل على التحول عن الحق قيد أنملة، وهذا ما يجب أن يكون دين المسلم في رحلته الطويلة عبر الحياة بكل ما لها وما عليها، وعبر ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

ولقد يعلم الكثير في عصرنا الحاضر، أن الإعلام عندما يرتفق بالحق دائماً، ويزين خطابه للناس صدق الكلمة، وسلامة المواقف، يكون ذلك مبعث الثقة فيما يقال أو يكتب أو ينشر، وعلى العكس من ذلك؛ عندما يستهان بالإنسان، فيزين له الباطل، ويطلب منه أن يشك في مفهوماته اليقينية البديهية، لكثرة ما يرى ويسمع من عناوين تتناقض مع المضمونات، ومضمونات لا نسب بينها وبين بعض العناوين، صنيع أعدائنا اليوم ومن ورائهم الطفافة من بني جلدتنا حين يريدون منا أن نكون الواحاً خشبية يكتبون عليها ما يريدون، ويمسحون عنها ما يشتهون.

ولكن – لا والله – ما خلق المسلم لهذا، وقد أكرمه الله بكتاب أحسن بناءً، وسنة أحكمت إعداده وتربيته على أسس هذا البناء، وعملت على أن تنمي فيه طاقات الخير، ومشاعر الوعي، فهو يخوض الحياة حين يخوضها شعارها قول عمر رضي الله عنه: «لست بالخَب ولا الخَب يخذعني» والخَبُّ أو الخِبُّ: الخداع وهو الجُرْبُزُّ الذي يسمى بين الناس بالفساد.

وإنما يصاب بالضعف أمام ذلك من يصاب من المسلمين: حين يدبرون عن ساحة الوعي وخصائص البناء.

وهكذا كان من منهج القرآن في إبطال دعاوى المشركين وضجيج إعلام في أمر القتال في الشهر الحرام وما وقع من واحدة من سراياه عليه الصلاة والسلام: أن قررت الآية الكريمة التي نزلت في ذلك أن القتال في الشهر الحرام كبير، وكان ذلك أدعى لإخرام السنة السوء، وأكثر تنمية لبواعث الثقة فيما يقال، وأعمق تنبيهاً للمسلمين على مر العصور أن لا تحملهم الرغبة في الدفاع عن النفس ورد تهمة صدرت عن العدو: أن ينزلوا إلى مستوى يتجاوزون فيه الحق – ولو جزئياً – إلى الباطل.

من أجل ذلك كانت النقلة إلى المرحلة التالية التي جرى الإلماح إليها فيما سبق من القول بشيء من الإجمال؛ فالقتال في الشهر الحرام كبير، ولكن صنيع المشركين أكبر وأكبر. وعلى هذا: فالجناة الجناة هم أولئك الذين يجاهرون الله بالمدادة،

فيمدولون به الأوثان والأنداد، ويمحاولون القضاء على الدعوة التي تحمل للإنسان معاني وجوده، وصلوا — ويمملون — على فتن الناس عن دينهم بأشد وأقسى أنواع الأذى مما عرف يومذاك.

ويعمد ذلك ينوحون ويمولون، تظاهراً بالفيرة على حرمان الأشهر الحرام، في تدبير مصطنع ما أشبهه ببعض دعاوى اليوم وخرافات هذا الزمان!! حيث يقضى على الإنسان المسلم باسم الإسلام، وإذا تسنى له أن يشكو، فالويل له من حكم المنطق الحضاري المزعوم، لأنه لا يتعامل مع الجزارين بذوق حضاري!! ولا بسلوك يتفق مع حقيقة الدين!!.

هأية فتنة يريد المشركون أن يشعلوا نارها تحت ستار ما جرى من عبد الله بن الحضرمي وإخوانه!!.

إنها السهم الذي ارتد إلى حلوقهم من خلال بيان منصف حكيم، وتوجيهات ناجمة في الواقعية والتنمية الحقبة والبناء الذي لا تموزة النباهة واليقظة، ولا يعرف الجور في الحكم إليه سبيلاً.



البناء.. والتجربة والإعلام المعادي

« ح »

لقد كانت صورة مشرقة من صور الهداية الربانية؛ تلك التي سلكها القرآن الكريم لبناء المسلم من خلال التجربة والمعاناة، بجانب تلقين المعرفة، والتربية على أصولها المتصلة بمقيدة التوحيد.

وفي حديث موصول برحلتنا القريبة العجلى، وفاءً بوعد المزيد من محاولة الانتفاع بدلالة العلم القرآني في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ...﴾ الآية؛ يحسن التنبيه على هذه الصورة العملية – التي تشارك فيها عدة عوامل – في بناء المسلم والمجتمع المسلم من خلال التجربة، والتي كانت جدًّا واضحة في النقطة من تقرير حقيقة أن القتال في الشهر الحرام كبير ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ إلى مواجهة المشركين بما يتناسبونه من الوجه الآخر للقضية، وهو حقيقة موقفهم الجائر المؤذي من دعوة الإسلام، والمسلمين – وهم الفئة القليلة المؤمنة الصابرة – بل من المسجد الحرام نفسه.

وكم لهم على طريق الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، والإصرار على فتنة المسلمين عن دينهم من مثالب كلها أذى، وكلها عدوان على الحق وإنسانية الإنسان، واستملاء – بالوشية والتقليد الأعمى والافتراء على الله بأحكام ما أنزل سبحانه بها من سلطان – على التوحيد الخالص والدعوة إلى التحرر العقلي من سلطان الجاهلية المقيت؛ الأمر الذي يجعل حجم واقعة «بطن نخلة» أصغر بكثير مما صورته عليه المشركون، إذا قيس بما يصنعونه منذ بدء الدعوة، حمايةً للباطل الجاهلي وأركانه المضلّة في مواجهة الحق الذي نزل به الكتاب.

وهي واقفنا مع أعدائنا اليوم — على تنوع المستويات والميادين — ما يشدُّ إلى قراءة جديدة لهذا الحدث بين المسلمين وأهل الشرك؛ لننظر من خلالها إلى هذا الواقع من حيث الزيف الإعلامي والتضليل الفكري، ونفيد من طريقة القرآن في مواجهة الأذى ومحاصرته بملم وقوة وواقعية على الوجه الذي ينبغي.

والحق أنها تجربة عملية رائدة، زادت في قدرة المسلم على ساحة البناء، وردّت الذين كفروا بقيظهم لم يتحقق لهم ما أرادوه من تأليب العرب على الدعوة وأهلها، وضاعفت من إثارة المشاعر المستوهزة في مواجهة الشرك وأهله؛ ذلك بأنها حركته بالعقيدة من أعماقه وقادته إلى مواجهة الباطل بالحقيقة الناصعة المحمّية بالمؤمنين المجاهدين من الرجال، ووضعت في قلب المشكلة عنصراً فعّالاً مؤثراً، لا واحداً من التظاهرة يُعجّب أو لا يعجب بمشهد مسرحي يمر أمام ناظريه.

أرأيت إلى هذه الطامات الكبار يسردها القرآن واحدة بعد أخرى، والمسلمون في غمرة الواقعة بين مؤيد ومعارض أول الأمر لما حصل في السريّة، بسبب ما هوّل المشركون، وضاعفوا من عويل الحرب النفسية، والإيحاءات الباردة المثيرة هنا وهناك.

إن المشركين الجفاة الذين يتباكون على انتهاك حرمة الشهر الحرام — شهر رجب — وقتل نفس فيه وأخذ المير وأسيرين: هم الذين صدوا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام بمختلف الوسائل، التي كان منها تقطيع أواصر القرى، ومحاولة التصفية الجسدية، مع التعذيب الدامي لكل من نطق بالشهادتين وصبأ — على زعمهم — عن عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، وخرج عن دين الآباء والأجداد، وخالطت بشاشة الإيمان قلبه.

من أجل قتيل واحد في الشهر الحرام، تقيمون الدنيا وتقمعونها، وهي الوقت نفسه لا يخلج لكم عرق أمام عدد من القتلى والمعنّين والمشردين، حتى كأن تتكلمكم بالمسلمين أمر مشروع وحق مكتسب، والحادثة البسيطة التي وقعت منهم مع احتمال التأويل — فيها — يجب أن تقوم لها الدنيا وتقدم.

وكان جميلاً وآيةً بلاغة وروعة أسلوب: جَعَلَ القرآن الكريم الوقوف في طريق المسلم صدّاً لا للشخص نفسه فحسب، ولكنه صد عن سبيل الله بإطلاق، كما هو واقع المسلمين مع أعدائهم اليوم. ثم إن المشركين لا يخجلهم التفاضل حين يندبون حرمة الشهر الحرام، وهم يكفرون مقهين معقدين بالله تعالى رب الزمان والأشهر كلها، وفي مقدمتها الأشهر الأربعة الحرم.

إنهم يكفرون به سبحانه ويتخذون من دونه أولياء، ويعبدون أوثاناً لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً.

كما أنهم مقيمون على الكفر بالمسجد الحرام وهو بيت الله الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

نعم كفروا به حين ملأوا جنباته - وهو بيت التوحيد - بالأنصام وصاروا يطوفون حوله عراة مع الصفيرو التصفيق ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٥].

البيت الذي هو بيت توحيد الله وعبادته، وموئل الطائفين والماكفين والركع السجود: يتخذون منه مقراً لأوثانهم، ومكاناً يعبدون فيه تلك الأوثان!! - وأين من هذا الرجس: طهر هذا البيت المعظم وصفاءه ونقاؤه -.

ناهيك عن خرافات وكهانات تجري في ظل البيت وهم مصدقون لها، موثقون بأثرها في تسيير شؤون الحياة؛ الأمر الذي يقتضي كل التنافي مع دعواهم الإيمان بالله الواحد القرد الصمد.

هذا وإخراج المؤمنين من المسجد الحرام عنوة - وهم أهله - أكبر عند الله من مقتل الحضرمي.. هذا الإخراج الذي تمثل في اضطراب المسلمين إلى الهجرة غير مرة. وكان آخر ذلك هجرتهم إلى المدينة المنورة، تلك الهجرة التي كانت مفرق الطريق، ولونا من ألوان الابتلاء العظيم احتمله المسلمون بكمال الرضى والاعتزاز، وكان لهم بذلك - وإخوانهم الأنصارا الذين آوهم ونصروهم - عند الله الخير في الدنيا والفوز الكبير في الآخرة.

الأإن في معطيات هذا المعلم القرآني على ساحة البناء من خلال التجربة والمعاناة في ظل التوجيه الرياني: زأأاً على الأمة — وهي تملكه — أن تقيد منه في مواجهة التحديات الإعلامية وإحكام البناء لجيل المستقبل، وتتمية الوعي الحقيقي عند المسلم لدينه، ولما حوله كأثناً ما كان موقع هذا المسلم والثفر الذي أقامه الله عليه.



البناء... والفتنة عن الدين وتعرية الإعلام المناوي

« ٥ »

في بيان مفصل واضح عدد القرآن الكريم - كما رأينا في كلمات قريبات - تلك الأفاعيل التي كان المشركون يقومون بها في صراعهم مع دعوة الحق وأهلها المستضعفين وكان منها: الصد عن سبيل الله، والكفر به، والمسجد الحرام، وإخراج المسلمين منه وهم أهله الأذنون، وصاحب هذا التعداد إعلان أن هذا الذي يجترحه مشركو قريش أكبر عند الله من القتل الذي وقع على يد سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه في الشهر الحرام؛ وهكذا شهد مسار الدعوة مواجهة الباطل وتزييفه الإعلامي بالحق الصراح، وتقنيداً رقمياً لهذا الباطل، زلزل من الجذور الحملة الإعلامية التي كانت سلاحاً في حرب نفسية مقصود بها زلزلة قلوب المسلمين وتأليب الناس في الجزيرة عليهم.

إذ إن كل من كانت لديه مسكة من عقل، عندما يقارن بين الذي صنعه المسلمون، وبين الذي صنعه ويصنعه المشركون، يجد الفرق واضحاً، وتتبدى له الأغراض المنوي تحقيقها من وراء هذا التهويل، خصوصاً إذا لاحظنا أن حادثة هذه السرية جاءت في أوائل العهد المدني أي بعدما يقرب من خمسة عشر عاماً من البعثة، خمسة عشر عاماً تمضي والحرمان المقدسة كلها تنتهك في محاربة الإسلام واضطهاد أهله والتكيل بهم تكيلاً. أخرجهم من المسجد الحرام وهم أهله، حتى إذا قتل واحد من المشركين وأسر اثنان عادت للمقدسات حرمتها فأصبح انتهاكها - على ما زعموا - معرةً وشيناً إذاً!.

تلك هي تلبيسات جاهلية الأمم... وما يمانيه المسلمون من جاهلية اليوم أشد وأعتى... كل المظالم التي تقع على رؤوسهم في أصقاع العالم. وفيها عالمهم لا تتأفى مع المفهوم الحضاري، فالنفوس والأموال والأعراض: حمى مستباح وحق مضيع ما دام الانتهاك واقعاً على أرواح المسلمين وأموال المسلمين وأعراض المسلمين.. حتى إذا بلغ السيل الزبى ويدرت بادرة من قبلنا - مهما صغر حجمها - في صقع من الأصقاع ترفع جوراً أو تؤدب عدواً أو تشكو ظلماً بصوت مسموع تقوم الدنيا وتقمعد، وينادي بحماية حقوق الإنسان من هؤلاء الذين لا يحسنون التعامل بطريقة حضارية؛ إذ كيف يحق لهم أن يشكوا أو أن يعترضوا!!

والمنجاة من ذلك: تغيير جذري في مسار هذه الأمة يصلها بالمنهج الذي دل عليه هذا المعلم القرآني. ونقطة البدء بناء للإنسان المسلم وتتمية طلائقه الإيمانية والعملية من خلال الإعداد بالمعلم والإعلام، وتزويده بالإحاطة بالواقع وما يكتفه من ملابسات، والتجربة والمعاناة. وصنيع القرآن فيما نشير إليه واضح كل الوضوح.

وكل هذا الذي قلناه ينبغي أن لا ينسينا ما أعطيت الفتنة عن الدين الحق من الاهتمام عند المواجهة؛ ذلك أن أعتى صور التعدي هي محاولة فتن الناس عن دينهم على صعيد الفرد والجماعة. وبإعظمة القرآن في الرد على إثارة الرأي العام عند عرب الجزيرة من خلال هذا الموضوع.

فبعد أن بين الله تعالى أن الصد عن سبيل الله والكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، أفرط الفتنة عن الدين فقال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾. أجل: فتنة المؤمنين والمؤمنات عن دينهم الحق الذي به تسعد البشرية جمعاء؛ أكبر من قتل إنسان واحد همه قتل الحق وأصحابه، وهو القتل الذي حاول المشركون من خلال التهويل من وقوعه في الشهر الحرام استغلال حادثة ابن الحضرمي.

فالمسلمون في الواقع - أراحوا عقبة من طريق الدعوة إلى الله، وإن كان القتال في الشهر الحرام كبيراً كما بين القرآن بنصه وعدل.

إلا أن هؤلاء الذين أزهقوا روحاً واحدة وهم يستطلعون أخبار قريش بعد أن أذن الله بالقتال في قوله جل شأنه: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُحِلُّونَ لِنَفْسِهِمْ الْأَمْوَالَ وَالَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُكَفِّرُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]. إن هؤلاء البررة يحملون للناس دعوة الحياة والإنقاذ من الجاهلية الضارية على قلوبهم بالأعداد! فليوضع هذا في الحسبان.

وسبحان الحكيم الخبير فيما أنزل من قرآن وما علّم وربّى أصفياء المؤمنين على ما به يكونون قادرين على حمل العبء، لا في جزيرة العرب فحسب، ولكن على طريق الإنسانية جمعاء. فالرسول ﷺ الذي كتب الكتاب لعبد الله بن جعش حين وجهه إلى بطن نضلة قد أرسله الله للناس كافة بشيراً ونذيراً وجعل منه رحمة للمالين، وعبد الله وإخوانه يقومون بمهمة في ظل هذه الرسالة التي واجهتها قريش – وقد جاءت بالمربية لفتيها – بالأذى والعتو الكبير عن الحق الواضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

إلا إنه الحرص على الإنسان أن يعمل العقيدة السليمة التي تكون محور استتارة قلبه وعقله، وقاعدة وجوده الذاتي، وموجه حياته، الأمر الذي ينقذه من الهلكة، ويجعل منه لبنة صالحة في بناء منشود لأهل النهى على صعيدي المجتمع والأمة. وفي ذلك ما فيه من خير لأخيه الإنسان على وجه هذه المعمورة.

فإذا فتن عن دينه: كان الأذى عاماً لا خاصاً، وإن كان منقلبته عند الله نعم المنقلب!! إذ ليس من المغالاة في شيء – لولا تحكّم الهوى والحقد الدفين – أن يعلن في الناس أنه عندما يفتن أعداء الله واحداً من المسلمين عن دينه؛ ذكراً كان أو أنثى، فقد جنوا على الأمة من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وأضرروا بمعصم الإنسانية مما هي فيه من الويلات وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

وضخامة هذا الأمر - في ميزان الحق - جعلت الإكراه الملجء القاسي عنراً في نطق كلمة مخافة لما في القلب؛ لأن الامتحان قد يكون عسيراً كل المسر كما يقع في هذا الزمان ﴿إِنَّمَا يَغْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٠٥) من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً قطعهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم (١٠٦) [النحل: ١٠٥ - ١٠٦]. إلى أن يقول جل ذكره في تبشير الذين هاجروا من بعدها فتتوا ثم جامدوا وصبروا بإكرامهم بالمفطرة من عنده: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِحُوا ثَمَّ جَامِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠٧) قال المفسرون: نزلت الآيات في عمار بن ياسر رضي الله عنه: فقد أخذه المشركون فمذبوه واشتدوا في تعذيبه حتى أعطاهم مكرهاً كلمة أرادوها منه، فقال الناس: إن عماراً كثر، فقال رسول الله ﷺ: من عماراً ملئ إيماناً من فرقته إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي: فقال له رسول الله ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان قال: «إن عادوا فعد».

ومن أجل ذلك أيضاً كان الوعيد في سورة البروج منصباً على أولئك الذين فتتوا المؤمنين والمؤمنات عن دينهم ثم لم يتوبوا بعذاب جهنم وعذاب الحريق في قصة أصحاب الأخدود. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَرُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

وإذا علمنا أن الفتنة عن الدين قد اتسعت ميادينها اليوم، فلم تعد مقصورة على التعذيب والتنكيل وإزهاق الأرواح بشتى الأساليب بل تجاوزتها - ويا للويل - إلى ما هو أوسع من ذلك، كان علينا أن نضع في الحساب: وجوب المزيد من العناية الموضوعية في بناء الإنسان المسلم الصابر المصابر، بحيث نجنب فتياننا مزالق الفتنة في الكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية وما يتصل بالكلمة مما قد يكون أكثر تأثيراً في النفس منها، وقد تجتمع هذه وتلك على هذا التأثير، ونحول دونهم ودون أن تكون مناهل العلم والإعلام في ديارنا أو في غيرها مداخل انحلال وزعزعة لانتماء الدارس إلى دينه وأمته وتاريخه ■ سمح الله.

إن المسلمين يتعرضون في كثير من الأقطار لأذى الفتنة عن الدين — وكان الله للأطفال الذين تفرزهم حملات الأعداء الشرسة — ولكن سعة ميادين الفتنة عن الإسلام وقيمه بوصفه منهجاً ريانياً للعنوا والأخرة، لا بد أن تواجه بتهيج يحمل كفاية البناء المتسم بالمعق والشمول، وتنمية طاقات الخير بمنهجه وتساق مع سنن الله، كي يكون شبابنا وشاباتنا إن شاء الله قوة فاعلة على طريق لا يغني معها إلا بنية قادرة على تحمل التبعات داخلاً وخارجاً، وعلى المواجهة التي تنوعت أسلحتها من الصداقة — بل والقباء — بمكان جهلها أو تجاهلها.



أثر الوعي.. في البناء ومواجهة الإعلام المعادي

« ٦ »

ثم ماذا بعد الذي رأينا في ظل واحد من المعالم القرآنية أشرقت به الآية السابعة عشرة بعد المئتين من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قُلْ لَهُمُ الْآيَةُ.. من دروس في إحكام البناء العقلي والنفسي – بعد الإيمان – لمواجهة تحديات الأعداء وما يشهرونه من سلاح الحرب النفسية وإطلاق الشائعات الظالمة وقلب الحقائق.

لقد أخذ القرآن بأيدي الأمة إلى ساحة الحقيقة كما هي، وأعلن – مع النصفة في الحكم – عن سوء صنيع أهل الشرك والضلال، وأن اتهامهم المسلمين بسفك الدماء وانتهاك حرمة الشهر الحرام، لا يغير من هذه الحقيقة شيئاً؛ فهم – على صراخهم الإعلامي واستغلالهم – موضع المؤاخظة بصددهم عن سبيل الله وكفرهم به والمسجد الحرام، وإخراج المسلمين الذي هم على النبع الأصيل من عقيدة التوحيد التي من أجلها رفعت قواعد البيت.. إخراجهم من المسجد الحرام وهم أهله الأدنون، وإن ذلك – وكله ظلمات وظلمات – أكبر من القتال في الشهر الحرام.

ثم ماذا أيضاً بعد الذي رأينا من أهمية أفراد الفتنة عن الدين بغضاسة، بعد الذي سرحت الآية من أعمالهم، وأن الفتنة عن الدين لا يقتصر على حالة واحدة، وأن وسائل الفتنة اليوم كثيرة؛ منها الواضح البين، ومنها المقنع المزخرف صنع شياطين الإنس والجن.

وهذه هي الآية أوردها حرصاً على رد الأفكار إلى منابعها فيما أشرق به المعلم القرآن ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

الواقع أن الآية ختمت — كما نرى — بالتذكير بهذه الحقيقة التي هي من إخبار رب العالمين الذي يعلم ما تتطوي عليه نفوس عباده ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ فهي حقيقة قرآنية وليست من اجتهادات البشر واستنتاجاتهم، والواقع دائماً يؤيدها.

هذه الحقيقة هي التي ينطق بها هذا الختام للآية وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ انظر إلى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ التي تقيد الاستمرار وإلى الفاية في قوله: ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ﴾. وتلا تقريرها بهذا الشكل الصريح القاطع أشد الوعيد لمن يرتدد عن دينه فيموت وهو كافر فقال: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

إلا ما أشد احتياج أمتنا وهي تتطلع إلى مستقبل تعود فيه إلى ما كانت عليه من القوة والتمكين والكلمة المسموعة في العالمين — ناهيك عن الاستقلالية في صنع القرار — إلى مثل هذا الدرس العظيم والانتفاع به!

فأله تعالى يخاطب المسلمين — بهذا الوضع — أن الكفار لا يزالون — بوصفهم كفاراً — يقاتلونهم جاهدين في ردهم إلى الكفر، حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا. قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الكلمات: أي ثم هم مقيمون على أخبت من ذلك وأعظم غير تائبين ولا نازعين.

وإذا نظرت إلى السياق وسبب النزول: تبين أن يفسر ما يفهم من تقرير هذه الحقيقة في أعقاب ما مضى في الآية: من أن إطلاق الشائعات الظالمة، وإثارة العرب — زوراً وبهتاناً — من حول الفئة القليلة المؤمنة، يقلب الحقائق، وتحمل الوقائع ما لا تحمل: هو جزء من هذا القتال الذي يعمل طابع التفتت والاستمرار حتى تتحقق الغاية من ورائه.

وأين هذا الذي هو الإصرار على قتال المسلمين حتى يرتدوا عن دينهم — لا سمح الله — من دعوى المشركين أن المسلمين قد انتهكوا يصنيهم حرمة الشهر الحرام، ولم يقيموا وزناً للقداسة والمقدسات!!

إن الآية تلقي بالعنوان الذي وضعه الأعداء جانباً، وتكشف عن الهدف الحقيقي لسنة الكفر والضلال المبين، وهو إضعاف المسلمين، وإعادتهم إلى خطائر القطمان التائهة في ظلمات الجاهلية، بتحويلهم عن وجهة الخير التي هداهم إليها محمد عليه الصلاة والسلام، وأخرجهم بهدي القرآن من الظلمات إلى النور.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا يؤخذ المسلم بالشائمة الموجهة يطلقها العدو، ولا بالكلام المنمق الذي لا يراد من ورائه إلا التشديد المؤذي بأهل الإيمان، وتيضع ذلك كله — وما هو منه بمسبب — في موضعه من إصرار الكفرة على قتال المؤمنين جاهدين حتى يرودهم عن دينهم إن استطاعوا.

والوعي الحقيقي: أن يكون المسلم على الأرض الصلبة في بنيته الفكرية والشعورية، تصديقاً بالشواهد التي يقرها القرآن الكريم، أو بيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وأن لا يؤخذ بالبهرج والزيف أو ضخامة التهويل، ولن يرد الجزئيات إلى الكلبيات والوقائع إلى بواعثها، ناظرأ إلى ما وراء الأكمة؛ فدائماً على ساحة التعامل مع الآخرين: وراء الأكمة ما وراءها.

وحس المرض للباطل واللعب بالألفاظ — في اغتنام للفرص —: لا يغير من هوية هذا الباطل، ولا يحيله إلى حق؛ ولذلك حذر الله المسلمين — وهم يتحركون تحت راية الصراع بين الحق والباطل — من الاستخذاء أمام هذه القوى العاتية التي لا تدع سلاحاً إلا استخدمته في عدوانها على الإسلام وأهله.

أجل حذرهم الهزيمة النفسية والمادية، والتهاون أو التفريط بالمقيدة التي شرفهم الله بها، وصبروا على الأذى، وهاجروا ونصروا من أجلها، إذ إنها مناهل سعادتهم بل سعادة الإنسانية – أن لو انصاعت لها – في الدنيا والآخرة.

ومن وقع في شرك الردة فتحول من الإيمان إلى الكفر ومات على ذلك، فقد حبط عمله، وأصبح هباءً منثوراً؛ فلا سعادة في الدنيا ولا فوز في الآخرة، ومن وراء ذلك جهنم وسامت مصيراً.

أرايت إلى ما جاء في الآية الكريمة بعد التنبه على ما هو دين الكفار، من الرغبة العارمة في أن يرتد المسلمون عن دينهم: كم يحمل من الوعيد الذي نوصيه إليه؟ يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قُتِلَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

إنهما عقوبتان كل واحدة أدهى من أختها: حيوط الأعمال – هلاكها – في الدنيا والآخرة، والخلود في النار. ويستوقفك تعبير «أَصْحَابُ النَّارِ» إنهم لكثرة لصوقهم بجهنم واستدامة العذاب فيها: يبدون كأنهم مالكوها، فهي لهم وهم أصحابها نسال الله لطفه ومعاذاته منها ومن كل مسبب من أسبابها.

إن هذا الذي حدث قبل ألف وأربعمائة عام تقريباً على يدي كفار قريش هو الفرض الدائم للكفرة – كما تدل الآية – مع المسلمين بوصفهم مسلمين – قبل أن يحسنوا أو يسيئوا – على اختلاف العناوين وتنوع الميادين.

فلينذكر ذلك هيتياننا وفتياننا، شبابنا على كل صعيد وفي كل ساحة من ساحات الحياة، أنت – بالتزامك للإسلام إنصافاً واستقامة سلوك – لا تبدأ الآخرين بالعدوان. ولكن هذا لا يعني أن تكون غافلاً عن الحقيقة أو مغفلاً تنطلي عليه الحيلة ويمرر فكره الزخرف أو الضجيج الإعلامي وما هو على شاكلتهما.

ولنذكر الجميع في مواجهة الهجمات الشرسة على هذه الأمة نتيجة للمتغيرات في العالم الإسلامي قول خبيب رضي الله عنه وهو يستقبل الموت صلباً في سبيل الله:

وكنست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوي ممزق
وكم هو عظيم عى صعيد الفاعلية والتأثير: أن يترجم ذلك إلى منهج ينظم
المسيرة، ويقضي على بوادر الضعف.

ومصدق ربنا إذ يقول في محكم تنزيله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٦٩] [المنكوت: ٦٩].



بعد المواجهة الإعلامية سرية بطن نخلة.. والفرج بعد الشدة «٧»

لمتسائل أن يتساءل عن الموقف الآخر من عبد الله بن جعش وإخوانه رجال سرية بطن نخلة رضي الله عنهم، بعد أن بدا أن بعض الصحابة من إخوانهم لم يمجبه ما صنعوا في أعقاب ما أطلق المشركون من الشائعات ونشروا من التهويل في شأن القتال في الشهر الحرام، وأن محمداً ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ينتهكون حرمة الأشهر الحرام.

بل قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وغنمهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وأشرت من قبل إلى قول فريش، قد استعمل محمد وأصحابه الشهر الحرام.. قال ابن إسحاق: فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَاتِلٍ فِيهِ﴾ الآية.

والحق أن الآية الكريمة بما أعطت لكل شيء قدره: كانت عنوان فرج عن أهل السرية وتزكية لمعلم بل فرج عن المسلمين. قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل نزل القرآن بتزكية بعد تزكية لعبد الله وإخوانه، فلهم أجر المجاهدين في سبيل الله؛ لأن القضية هي أصلها كانت خروجاً في سبيل الله امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ برصد فريش وأخبارها في نخله وإعلامه بذلك، وتهويل فريش المصطنع لا يغير من الحقيقة شيئاً.

جاء في رواية ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبيد الله بن جعش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن، طعموا في الأجر فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نمطي فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨]. فوَضَعَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ أَعْظَمِ الرَّجَاءِ.

وهكذا زكى الله عمل رجال هذه السرية، ووعدهم أجر المجاهدين في سبيل الله، حين ذكر هجرتهم وجهادهم في سبيله، وأن ذلك مفتاح الرجاء برحمته سبحانه ومغفرته العظيمة؛ فقد امتثلوا — كما ذكرت آنفاً — أمر رسول الله ﷺ ونفذوه بأمانة وشجاعة ابتغاء مرضاة الله ورسوله، وتوغلوا مغامرين بأرواحهم في أرض العدو وعمقه مسافات شاسعة، غير مباليين بما قد يودي بهم إلى القتل في سبيل الله... فملوا ذلك كله عن رضًى وطمأنينة، دليل صدق الإيمان والحرص على الشهادة؛ فإن أميرهم لم يكره أحداً منهم عملاً بوصية الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولكن خيّر ما بين الإقدام والإحجام؛ فاختاروا الإقدام ومتابعة التوغل في طريق قد تنتهي بهم إلى الموت.. وقد آن أن تعلم فريش أن الدعوة المباركة لم تعد في موقف الضعف، ولكن مرحلة جديدة مغايرة قد بدأت والحمد لله.

لقد كان المعلم القرآني الذي أشرق به قوله تعالى بعد الذي حصل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية رحباً في العطاء، رحباً في بعث الثقة بالنفس، ما دام الأمر في طاعة الله تعالى، وتنمية الدرة الذاتية من داخلها على مواجهة الأعداء بفهم وروية في شتى الميادين، ومنها هذا الميدان الإعلامي المضاد.

وكان رحباً في تمهيد الطريق لمن يدعون إلى ساحات الجهاد ضمن ظروف لا يعدم الأعداء فيها وسيلة يبتفون من ورائها تثبيط الهمم، وتفتيت القوى، وإحداث البلبلة في الصفوف، والانهزام النفسي عند المقاتلين.

وقد آل — بحمد الله — أمر الخطة التي دبرها الأعداء إلى الإخفاق، بل ارتدت سهامها إلى نحورهم، ولم ينالوا شيئاً مما كانوا يأملون؛ فقد الطبعي، والتذكير الرباني بتلك الطامات من صنيع المشركين في مقابل دعوى ما ادعوا وأذاعوا وأشاعوا؛ لم يبق مجالاً للهوادة مع الصادين عن سبيل الله الكافرين به وبالمسجد الحرام، ومخرجي المسلمين منه وهم أهله وذووه، العاملون على فتن الناس عن دينهم، المقيمون المقعدون على أخبث غاية وهي رد المسلمين عن دينهم غير تائبين ولا نازعين. وتداعى رجال الأنصار إلى الاكتتاب في السرايا والبعوث التي يخرجها الرسول القائد عليه الصلاة والسلام، بعد أن كانت تتألف غالبيتها من المهاجرين، حتى انتهى الأمر بعد شهر إلى غزوة بدر الكبرى يوم الفرقان في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة المباركة.

وهكذا قاد رسول الله ﷺ حركة الجهاد في سبيل الله بإحداث التحول النفسي عند قريش والعرب من ورائها عن طريق السرايا وما يتصل بها، وعملت هذه السرايا — ومن عيونها سرية عبد الله بن جعش رضي الله عنه وعن إخوانه — عملاء على طريق مخاطبة قريش ومن وراءها باللغة المناسبة التي كان لا بد منها.

صحيح أن غزوة بدر قد جاءت على غير أجل متوقع أو موعد مضروب، ولكن التمهيد العام المزدان بحكمة النبي ﷺ وحسن تصرفه للأمور في المواجهة العسكرية والاقتصادية والفكرية؛ كان واقماً بلا ريب.

وقد ظهرت في معركة الفرقان آثار البناء في ظل معالم الكتاب وتربية النبي عليه الصلاة والسلام، ووضع لكل ذي عينين أن عملية البناء الحقيقي في كيان خير أمة أخرجت للناس، كانت عملية شاقة بلا ريب، ولكن ثمراتها كانت عظيمة النفع، حاضراً ومستقبلاً للفرد والمجتمع والأمة.

ولقد يتضح ذلك أكثر وأكثر، عندما يحسن المرء التصور، فيضع في حسابه عند التقدير لعملية البناء أن الأمة المحمدية صاحبة رسالة شاء الله أن تكون منهج حياة لا ينفصل فيها الدين عن الدولة، ولا الدنيا عن الآخرة.

وتلكم هي الأمة المسلمة التي رضي الله لها الإسلام ديناً ووعدها على الاستمسالك به وتبليغه الناس، والصبر على مشاق ذلك: سمادة الدارين، وجنات تجري من تحتها الأنهار هم فيها خالدون.

والرجال الذين خاض بهم محمد ﷺ غمار التاريخ، هم أولئك الذين سلمت لهم محاور البناء وتنمية قدرتهم وكفاياتهم من خلال التربية على الدعوة إيماناً وعلماً وعملاً وحرصاً على تقوى الله والجهد في سبيله، ومن خلال التجربة والمعاناة الدقيقة العميقة؛ كالذي حصل لرجال سرية نخلة عليهم الرضوان أولئك الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢١٨) وما كان من انكاسات ذلك على الصف الإسلامي في إعطائه مزيداً من تنمية طاقات المواجهة والقدرة على الثبات في وجه الزعازع والمفاجآت.

وبذلك استطاع شباب الإسلام ورجاله أن يكونوا – بمون الله – شيئاً بالغ الأهمية على ساحة التاريخ.

وقد هدانا المعلم القرآن إلى أنه كلما كان البناء أثبت وأحكم: كان الإنسان أقدر على تمحيص الأمور، وأكثر وعياً لما وراء الكلمة وزخرفة العناوين؛ فكم من حملات إعلامية وشائعات ظالمة مجافية للحق، ومؤلفات ونشرات تطلق، ولا يراد من ورائها إلا التضليل والتشكيك، والأمثلة من واقع المسلمين مع العاقين من أبناء الأمة، والأعداء الظاهريين والأخفياء في كثير من الدول: تطالعنا وتجرح أكباد الذين تؤرقهم هموم الأمة صباح مساء.

ويفترض – في المقابل – أن يحكم التكوين الذي يعطي المناعة ويتابع العطاء، ويضع الإنسان المسلم – ذكراً كان أو أنثى – على ساحة الحقيقة كما هي، وأن يكون لدينا السلاح الذي نقدم من خلاله تلك الحقيقة ناصعة الوجه، واضحة المعالم بما يحرسها ويحميها من الهدم والهدامين والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سلاح الكلمة والشعر سورة الشعراء.. والبناء الإعلامي وصورة التكامل في مواجهة التحدي « ١ »

سورة الشعراء سورة مكية بدئت بالإشارة إلى أن الآيات القرآنية هي آيات الكتاب البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل والفي والرشاد، ثم بخطاب النبي ﷺ خطاباً يبدو تسلياً له عليه الصلاة والسلام، في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ﴿طَسَمَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ [الشعراء: ١-٣]. أي لعلك قائل نفسك غماً من أجل أن أهل مكة لم يؤمنوا ويكونوا في عداد من استجاب لدعوة الحق.

وختمت هذه السورة المباركة بآيات تكشف عن حقيقة الشعراء الذين ظلوا على كثرهم، واتخذوا من شعرهم سلاحاً يحاربون به دعوة الإسلام ورسول الله والمسلمين وعن عاقبة أمرهم عند الله. كما تكشف عن حقيقة الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأكثروا من ذكر الله، ووقفوا شعرهم على نصرة الدين، والذود عن حياضه، وشد أزر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

وتلحم الآيات هي قول الله تبارك وتمالئ بدءاً من الآية الرابعة والعشرين بعد المئين: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُقَلِّبٍ يَنْقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧]. وواضح أن فواتح السورة ترمي - والله أعلم - إلى التبصير بموقع القرآن الكريم من حياة البشرية وإلى تنمية الإدراك بكونه - وهو كتاب هداية ونور - فيصلاً بين الحق والباطل، وبين الرشاد والفي على مدى الزمن، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ﴿طَسَمَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ وقد تكرر ما يدل على ذلك في كثير من المواطن.

ثم إن الحق الذي نزل به هذا الكتاب المبين لا بد من الإخلاص في الدعوة إليه، وصدق الرغبة في أن يستجيب الإنسان لهذه الدعوة؛ وذلك ما كان من رسول الله ﷺ، فقد كان يمانى ما يمانى من إعراض المشركين، وأذاهم، ولكنه في الوقت نفسه يتقلب على الجمر حزناً ألا يستجيبوا لدعوة الحق، ويكاد يهلك نفسه حسرات ألا يكونوا مؤمنين مصدقين ﴿لَمَّا كَانَ بَاقِعُ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۖ﴾.

قاله تعالى يسليه ويدعوه إلى الإشفاق على نفسه من هذا الهم الشاغل الذي يكاد يهلكها كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَلْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ وكما في قوله جل ذكره: ﴿لَمَّا كَانَ بَاقِعُ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

غير أن الدعوة إلى الحق، لا يكفي معها صدق الرغبة في الاستجابة والتعرق من أجل الإيمان، بل لا بد من إعداد ما يجب على ساحات الصراع بين الحق والباطل، والتسلح في مواجهة التحدي.

وهذا بعض ما دلّت عليه الآيات التي جاءت على ذكر الشعراء؛ فقد استُخدم الشعر سلاحاً إعلامياً في معركة الصراع من قبل المشركين، وبعد ذمهم الدقيق الملأ بما يجترحون؛ أتى الله على شعراء الصف الإيماني الذين استخدموا هذا السلاح - في ميدان الإعلام - مؤمنين يعملون الصالحات، ويذكرون الله كثيراً فنصروا الحق وأهله، وناضعوا بشعرهم عن رسول الله. وأنه لدرس يوجب - كما سنرى فيما بعد - تنمية الإحساس الصادق عند الجيل بدعوة الحق، والتسلح بكل سلاح مشروع يُجدي في ساحة الصراع بين الحق والباطل؛ ومن ذلك سلاح الكلمة لتبصير الناس بحقيقة ما يجري، وما هو حق وما هو باطل، وجمعهم على ما فيه قوتهم في الدنيا وفلاحهم في الآخرة.

والتتهيج في وضع الأمور مواضعها على ساحة الصراع: أمر على غاية الأهمية والله وليّ المجاهدين الصابرين.



الشعر والكلمة المؤمنة...

والبناء المتكامل في الإعلام والمواجهة

« ٢ »

كان من صور التكامل في بناء المسلم بناءً يمكنه من أداء الرسالة ومواجهه ما يعترض من تحديات وعقبات – ما وقفنا عليه المعلم القرآني في سورة الشعراء – وهي سورة مكية – من إظهار أولئك الذين اتخذوا من الكلمة الظالمة سلاحاً في مواجهة دعوة الحق وأهلها، وهم شعراء المشركين: على حقيقتهم، فهم واقفون في الفواية ولا يتبهمهم إلا الفاوون، واقع هؤلاء الشعراء ناطق بما فيه عليه القرآن الكريم، جاء ذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴿

والأمر الذي يدل على واقعية القرآن: ما نجد من توجيه المسلمين إلى أن بمقدورهم – وهم يصارعون الشرك والجاهلية – أن يستخدموا الشعر سلاحاً – من منطلق المقهدة – سلاحاً صادق الإعلام يذودون به عن حياض الرسالة ويردون كيد الأعداء في نحورهم، إذ كان منهم الاقتراء وهجاء الرسول عليه الصلاة والسلام.. وهذا التوجيه نجده في ذلك الاستثناء الذي حملته الآيات التالية، فبعد قوله جل شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴿ جاء قوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَلِمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧) ﴿

وقد أشرت في كلام سلف، إلى أن هؤلاء الذين منحهم الله موهبة الشعر وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وكان منهم العمل الصالح بمفهومه الشامل العميق، وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا.. هؤلاء الشعراء يتألون شرف المشاركة العملية في

الصراع الذي تدور رحاه بين الإيمان والكفر، إنهم يشاركون بسلاح فعال هو سلاح الكلمة في ميدان الشعر، ولذلك ما له من تأثير في النفوس وقدرة على التأثير في الناس، وتيسير الاقتناع بالفكرة المطروحة التي يراد إيصالها إلى العقول والقلوب.

ولقد منّ الله على العديد من أولئك الذين كانوا ينطقون بالكلمة الكافرة الفاجرة في مواجهة رسول الله ﷺ والمسلمين.. فثابوا إلى رشدهم ودخلوا في عداد أهل الإيمان، ومن هؤلاء عبد الله بن الزبير الذي قال حين أسلم مخاطباً رسول الله عليه الصلاة والسلام:

يا رسول الملك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أجاري الشيطان في سنن الفئ ي ومن مال ميله مثبور

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه، وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم - عن حرية وقناعة - لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله، وأصبح يمدحه صلوات الله وسلامه بعدما كان يهجو. هكذا يقدم المنهج القرآني الحقيقة بكل أبعادها ليكون المسلم على بينة من أمره، وهو يخوض معارك الحياة في كل عصر، ويعمل على بناء الحضارة التي تسعد الإنسان.

وتتمية الإحساس بحجم الكلمة يلقيها الإعلام المادي، وضرورة استخدامها بصديق وموضوعية على أرض الصراع درس من الدروس التي تعلمها تكلم الآيات من سورة الشعراء. وكلما ازداد إدراكنا لأهمية الكلمة والوظيفة التي تؤديها على مساحة الإعلام.. اتضحت لنا الحكمة في عناية القرآن بهذا الجانب من جوانب العلاقة بين المسلمين وأعدائهم، وأن ميادين الجهاد نصرةً للحق مشرعة الأبواب، ومنها الجهاد بالكلمة المسؤولة المؤمنة وإذن فلا بد من البناء الصحيح في هذا الميدان على تنوع شعبه في ذكرٍ لما كان من الشاء القرآني على أولئك المجاهدين الصادقين بالكلمة وهو قوله جل وعز: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۚ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ۚ﴾.

أبعاد الكلمة.. والبناء الإعلامي وسورة الشعراء

« ٣ »

تطور الوسائل التي تستخدم بها الكلمة وتتوَّع ميادين هذه الكلمة، نثراً كانت أو شعراً، أو غير ذلك مرثية أو مسموعة بكل ما وصل إليه العلم من صنوف وأساليب.. كل ذلك يدعونا إلى الإفادة من مراحل التقدم والتطوير على ساحة التعليم والإعلام، دونما عدوان على الأصالة، أو الففلة عن مرتكزات الأمة في كتاب ربها، وسنة نبيها عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك إغناء لطريق الفرد والمجتمع، فكراً ووعياً لما يدور في دنيا الواقع وقدره على استخدام الكلمة بفاعلية في مواجهة التحديات.

والآيات التي ختمت بها سورة الشعراء أشارت – كما رأينا فيما سلف من القول – إلى حقيقة واقعة في العصر الجاهلي هي وضع الشعر في خدمة الكفر وأهله على ساحة الصراع بين الحق والباطل، وذلك ما صنعه شعراء الكفر والضلالة، وهي المقابل: وضعه في عصر النبوة في خدمة الإيمان وأهله والذود عن رسول الله ﷺ، وذلك ما صنعه أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الشعراء، وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا.

والفئة الأولى هي الظلمة، ظلمة لنفسها، وللآخرين، بل ظلمة للحق تطاهر الباطل وأهله عليه، وعاقبة ذلك واضحة فيما حمل قوله تعالى في ختام السورة: ﴿وَسَيَلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ من التهديد والوعيد بسوء المصير في الدنيا والآخرة.

والحق أن النظرة المتأمل التي لا تهمل الواقع، ولا الحجم الذي تأخذه الكلمة على صعيد الإقناع والمواجهة والتعرف على حقيقة الأحداث ودلالاتها القريبة والبعيدة.. الحق أن هذه النظرة المتدبرة تقودنا مرة أخرى إلى التبصر في تلكم الآيات التي كانت خواتم سورة الشعراء وهي قول الله تعالى بدءاً من الآية الرابعة

والمعشرين بعد المئتين: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ ٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٢٢٦ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ٢٢٧﴾.

لقد تنزلت هذه الآيات المكية ورحى الصراع بين الوثنية والتوحيد دائرة، وشعراء الكفر يهجون النبي محمداً ﷺ ويعملون على صد الناس عن دعوته؛ لذا قال كثير من علماء التفسير: أريد بالذم والوعيد في الآيات، هؤلاء الشعراء، الذين كانوا يؤذون رسول الله بالمهاجاة والسيء من القول في شأن القرآن ومنهم: عبد الله بن الزيمري السهمي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وسافع بن عياض الجمحي، وأميرة بن أبي الصلت الثقفي، قبل أن يسلم من أسلم منهم، إذ تكلموا بالكذب، وتسافهوا بالباطل في حق النبي ﷺ ودعوته، وقالوا: نحن نقول مثل ما قال محمد، ويجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون عليه الصلاة والسلام وأصحابه، ويروون ذلك عنهم، يحدثون بذلك ضجة إعلامية فكرية على زعمهم؛ فذلك قوله جل وعز: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ ٢٢٤﴾ وقيل: الفاوون هم السفهاء والضالون عموماً، وفيهم مردة الشياطين وعصاة الجن.

وبالنسبة لمن استثنوا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية: يدخل فيهم شعراء الأنصار وغيرهم. حتى يدخل فيهم من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقنع – كما يقول ابن كثير – وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء؛ فإننا الحسنات يذهبن السيئات وامتح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه كما قال عبد الله بن الزيمري حين أسلم. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومهما يكن من أمر: فإن عناية القرآن بهذا الجانب من الصراع بين الكفر والإيمان على الصعيد الإعلامي: يدعو إلى مزيد من العناية ببناء الإنسان المسلم – ذكراً كان أو أنثى – على دعوة الحق فكراً وعملاً وقدرة على تبين السلاح الذي يستخدمه العدو ومنه سلاح الكلمة في نطاق الإعلام، ليكون قادراً بموضوعية ومعرفة على مواجهة التحدي والله في عون العالمين الصادقين.

أبعاد الكلمة البناءة سورة الشعراء..

وأسلحة المواجهة الإعلامية

« ٤ »

أهمية الكلمة وأبعادها في ميدان الاتصال والإعلام عموماً، وما يجب من إدراك للواقع الذي يحمل ما يجري على ساحة الأحداث ذات العلاقة بالامة المسلمة على وجه العموم، أو بفريق من أبنائها، أو فطر من أقطارها على هذه المعمورة.. كل ذلك يعطي مزيداً من الأهمية لما كشفت عنه خواتم سورة الشعراء حين عرضت للشعراء عموماً، وكشفت الزيف واستخدام الكلمة لنصرة الباطل، وخطر ذلك على المجتمع، ثم استثنت أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا، وتوعدت الظالمين بسوء المنقلب في الدنيا والآخرة وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

لقد كانت الخطوة الأولى على الطريق الإعلامي – والفئة القليلة المؤمنة تصارع الوثنية بجبروت أهلها وطفانهم – الكشف عن حقيقة أولئك الشعراء وغوايتهم، وبيان أن من يتبعونهم هم الغاؤون، فهم يستخدمون شعرهم – وللشعر ما له من تأثير، وله ما له من وزن عند العرب يومذاك – .. يستخدمونه في الضلال والإضلال، وحماية العيب والباطل، وأذية أهل الإيمان، وعلى رأسهم نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام. وأولئك الأتباع الأعمار في كثير من الأحيان يصفقون لهم، ويروجون ما أرادوه من محاربة الحق وعقيدة التوحيد من طريق الهجاء والافتراء،

وتزيين الجهالة والجاهلية: فشعراء الضلال يتبعهم الغاؤون من الإنس والجن، ويروون شعرهم المناويء للحق، بين الجهالة والجاهلية؛ فيشييعون ما يريده أهل الشرك من الباطل وإضعاف شوكة المسلمين، لأن الغاوي لا يتبع إلا غاويًا مثله.

ومما يجب التنبه إليه هذا التوجيه الرائع في تحري الحق، وإقامة الدليل على ما يدعى عند طرح الفكرة أو تقديم الخبر وتحليله للناس؛ فبعد قوله سبحانه: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) جاء الاستدلال لهذه الدعوى وبيان أنها هي الحقيقة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٦) إن شعراء المشركين ومن على شاكلتهم يهيمون في كل واد، فليس هنالك ضوابط إيمانية ولا منهج أخلاقي؛ يذمون اليوم من امتدحوه بالأمس، ويمرفون الحق ويحيدون عنه.. ناهيك عن الكذب والتزييف مظهرةً للشرك والمشركين على الإيمان والمؤمنين. وفي الوقت نفسه تجدهم يقولون ما لا يفعلون، فقد يدعون إلى خصلة مستعбе ولكنهم لا يفعلونها، بل ترى الفعل يناقض القول.

ثم إن هاتين الآيتين ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٦) كما تقيمان الدليل على مضمون ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) تمطي درساً في أمانة الكلمة وما يدعيه صاحبها، وعدم إلقاء الكلام جزأها دونها حجة تصدق الدعوى. ومن هنا كان لا بد من الهقطة لتصرف الإعلام المعادي وتبيين جوانبه، وإدراك مسالكه ومركزاته، مصحوباً ذلك بأن يكون المجتمع الإسلامي على منهج الصدق وتحري الحقيقة، بحيث تكون الكلمة الموزونة سلاحاً ماضياً في نصرة الحق، وهوة لا يستهان بها في مواجهة التحديات.

على أن في تنمية هذه المقومات عند العاملين: تكريماً للإنسان، وبعداً عن الاستهانة بعقله ومشاعره، وارتقاءً بالكلمة إلى مستوى الثقة والطمأنينة؛ فالآيات الكريمة كشفت بوضوح عن طبيعة السلاح المعادي في ميدان الإعلام، وقدمت الدليل الناصح البين على الحقيقة التي طرفها. وذلكم قيس من هداية الكتاب العزيز في معاملة الخيرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

البناء الإعلامي ومواجهة التحديات في سورة الشعراء

« ٥ »

ترى هل كان الأمر في خواتم سورة الشعراء مقصوراً على ذم أولئك الشعراء الذين وضعوا الكلمة في غير موضعها، فظاهروا أهل الشرك على أهل الإيمان، واستهتروا بالأخلاق والقيم، فهم في كل واد يهيمنون ويقولون ما لا يفعلون، وعلى ذم من يتبعونهم في صنيعهم ويتمرعون في أحوال الفواية، لأن الفاوي لا يتبع إلا غاوباً مثله ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٦٤).

هل كل الأمر مقصوراً على ذلك؟ إن الجواب على هذا التساؤل يحمله الاستثناء الصريح في قول الله تباركت أسماؤه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

وإذن فالقضية ليست على إطلاقها، والشعراء الذين ذمهم القرآن وذر أقباصهم ومن يوالونهم، لم يقف الكتاب العزيز هذا الموقف منهم لأنهم شعراء وكفى، ولكن لأنهم ظلموا باستخدام شعرهم في مظاهرة الشرك على الإيمان وهجاء رسول الله والمؤمنين، وكانوا مستهترين بالقيم، غير عابئين بالأخلاق، وذلك ما يدل عليه مضمون الاستثناء المشار إليه ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾.

إن الشاعر المؤمن، الذي ينطلق هيما يقول من شعر: من أبعاد العقيدة الصحيحة ومنهجها، ودينته عمل الصالحات — ومنها استخدام شعره سلاحاً في معركة الصراع بين الحق والباطل، وذكر الله كثيراً، والانتصار من بعد الظلم —.. إن هذا الشاعر مستثنى من أولئك الذين قال الله فيهم ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٦٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٦٦).

فالشعراء المؤمنون يحملون لواء الحق، فيتبعمهم أنصار الحق، وينشرون شعرهم ويروجون أفكارهم التي وضموها في خدمة الأمة وقضاياها، شأن أهل الاستقامة والهداية. أما أولئك فيتبعمهم الفأور.. وهم بوصفهم مؤمنين صادقين يملكون الصالحات، ومن عيون هذه الأعمال – كما أشرنا – أن يكونوا جنوداً للحق، يضمنون الكلمة في الموضع الذي تمليه العقيدة، بعد أن يتحروا صدقها والأمانة فيها، فلا يخوضون مع الخائضين، ولا يلفون مع اللاغين، فهم دائماً على بصيرة وذكر لله عز وجل، لا تتسيهم الكلمة من أعطاهم القدرة على الكلمة، ولا تجنح بهم لذائد الدنيا وشهواتها ومراتبها عن اليقظة الإيمانية مراقبة لله عز وجل في تساوق بين السلوك المستقيم والفاية العظيمة. فهم حين يقولون ما يقولون، ينتصرون للعقيدة التي آمنوا بها ووذوا في سبيلها. إنهم على الحق والهدى في مواجهة الباطل والظلم ﴿إِلَّا الَّذِينَ... مَا ظَلَمُوا﴾.

وفي تنبيه على الآثار السيئة التي يخلفها الظلم في وضع الكلمة موضعاً لا يرضاه الله ورسوله والمؤمنون: جاء الوعيد على هذا الظلم الذي هو تجاوز الحق إلى الباطل تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾.

إن الكلمة المؤمنة – وهي ذوب القلب المؤمن، ولهفة المشاعر الصادقة: إنما تأخذ حياتها ووجودها العملي من الأمانة فيها، والإخلاص في أن تأخذ طريقها لنصرة الحق وأهله مهما غلا الثمن. وذلكم ما وجه الله المعلم القرآني وذُلت طريقة إلى القلوب والعقول تلكم البصرة القرآنية في هذه السورة المباركة سورة الشعراء.



البناء والوعي.. والكلمة المسؤولة في الإعلام

« ٦ »

بناء الإنسان المسلم على العقيدة ووعي ما حوله، والإدراك التام لطبيعة الصراع بين الوثنية وعقائيلها الجاهلية وبين التوحيد.. هذا البناء كان مبكراً أذنت به الكلمات الأولى فيما أوحى به إلى محمد عليه الصلاة والسلام من قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ - ٥].

ونقول: كان مبكراً، لأن الإنسان هو الطائفة القادرة بإذن الله على البناء والإنماء، ومن أجل هذا الإنسان تبتذل المساعي والجهود لبناء مجتمع سليم تتوافر له عناصر النماء في المرافق والميادين جميعها، كما يتوافر له ما يحقق المبودية الخالصة لله عز وجل.. وإهمال الإنسان عدوان على الغاية التي من أجلها يكون الكد والسمي واستكمال جوانب العمل والإنجاز.

ولا تعجب بعد هذا إذا رأيت القرآن الكريم - وهو يبني الإنسان المسلم - ينيه الفئة المؤمنة منذ العهد المكي إلى واحد من أسلحة المشركين، وهو الشعر الذي استخدمه شعراؤهم في معركة الصراع مع دعوة الحق، ويكشف النقاب عن سقوط هؤلاء الشعراء وغوايتهم، وعن أن الفاوين هم الذين يتبعونهم ويروون شعرهم، ويروجونه سلاحاً يُهَجى به رسول الله وتري التابعين والمتبوعين يحاولون قلب الحقائق والافتراء والتهوين من شأن القرآن الكريم لأن الفاوي لا يتبع إلا غاوياً مثله، ولم لا يُعكم على هؤلاء المتبعين بذلك؟ وهم يُدعون إلى الإسلام الذي فيه خيرهم وسعادتهم وإنقاذهم من الهلكة، كل ذلك بالحجة القاطمة والبرهان الساطع.

والذي يدعوههم إلى ذلك هو الصادق الأمين الذي ما عرفوا عنه إلا استقامة الخلق وكمال الأمانة والوفاء، وإذن فهم مسؤولون أيضاً، يتحملون تبعة انقيادهم الأعمى، وترويجهم ما يطرحه شعراء الشرك محاربة لله ولرسوله وللمؤمنين، والكلمة القرآنية وهي تبني الإنسان المؤهل لحمل الرسالة ومواجهة التحديات لم تدع أن تقيم الدليل على القضية المطروحة وهي سقوط شعراء الشرك وتهاقتهم؛ فلم تقتصر الأمر في سورة الشعراء على قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) بل تلا ذلك الدليل الواضح على هذه الدعوى فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ﴾ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٦) وإنها للمحة من لمحات الإعجاز، قضية تطرح عن شعراء المشركين، مصحوبة بالدليل على ما ينطق به واقع هؤلاء الشعراء.

وفي الوقت نفسه يُبَصِّرُ التابيون ورواة هذا الشعر الظالم المشرك: أن صنيمهم هذا من الفواية، بل هو الفواية عينها والمائل من يتبصر ويمي.. وإذا كنا في دنيا الواقع اليوم نشكو من الكلمة التي تضلل الرأي العام في كثير من بقاع المالم ويصيب المسلمين من ذلك ما يصيبهم، فما أشد الحاجة إلى قراءة جديدة لهذا الجانب الإعلامي في منهج القرآن الكريم، حيث الكشف عن سلاح الكلمة عند العدو، والعمل على قلّه وتمطيله باللفة المناسبة، بالكلمة الصادقة، والدليل الناصع، بتبصير الإنسان – من حيث هو إنسان – بحقيقة ما عليه دعاة الفواية والشر.. على أن المعلم القرآني يقفنا على الوجه الآخر للموضوع حيث يستخدم الشعر سلاحاً بيد المؤمنين. ولنا عودة حلقة إلى ذلك إن شاء الله.



قضايا الأمة في البناء..

وقبس من الهدى النبوي في الإعلام

«٧»

قضايا الأمة المصيرية وما – أكثرها – يأخذ الإعلام أبداً مؤثرة فيما يحسن أو يسيء إليها، وإعلام الأعداء واليهود منهم بخاصة، وقل مثل ذلك فيمن يسير في فلكهم: قد أعدت له المدة العلمية والفنية، ومع كل ساعة من ساعات الزمن نجني من أذى وعدوانه الظاهر والمستتر الماكر الصاب والعلقم.. وهذا بعض مما يجب أن يحفز الأمة للعمل الجاد كي ترتقي بقدراتها – ومنها القدرة الإعلامية – إلى مستوى المواجهة في نطاق الإعداد لمعركة طويلة الأمد، متنوعة الميادين أقول: بعض مما يجب أن يحفز الأمة، لأن المفروض أن تنتهج الأمة طريق البناء والإعداد بذاتية وأصالة ومراعاة لما يجب أن يكون بوصفها أمة تحمل الرسالة الخاتمة للناس، لا أن تتحرك بردود فعل بعيدة عن المنهجية هنا وهناك.

وفي كلمات قريبة المهدي – والحديث يدور حول الاستثناء الذي حملته بعض الآيات في سورة الشعراء وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٣٦) – كانت الإشارة إلى الهدى النبوي في موقفه عليه الصلاة والسلام من الشعر وكان من أمضى الأسلحة البيانية الإعلامية في معركة المسلمين مع أعداء الله.

فالرسول ﷺ وهو يسهر على بناء الإنسان المسلم والمجتمع المسلم، ويعد القوة المستطاعة في مواجهة من يريدون القضاء على دعوة الخير وأهلها.. الرسول ﷺ وهو يقود هذه الرحلة المباركة: نظر إلى ذلك السلاح البياني الإعلامي بواقعية

وموضوعية، ووجهه وجهة الخير ونصرة الحق، فهو يرضى عن الشعر الحسن في ميزان الحق والفضيلة. وقد رأينا أنه كان يحب سماعه ويستتشد من يحفظه، ولم يمنع أصحابه رضوان الله عليهم من ذلك، ولكنه - وعلى المحور نفسه - لا يرضى عن الشعر الذي يأخذ الاتجاه المضاد، وبيان ذلك هي الواقعة التالية: فقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالمرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ: «خنوا الشيطان أو امسكوا الشيطان، لأن يمتلىء جوف رجل قبحاً خير له من أن يمتلىء شعراً» وواضح أن هذا الشاعر لم يكن يقول شيئاً يرضى الله.

وقد أورد المحدثون أبواباً للشعر ذكروا فيها ما ورد عن رسول الله ﷺ بياناً لما جاء في القرآن الكريم بشأنه ومن ذلك ما نجد عند الإمام البخاري؛ في قوله: باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه وقوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ وقد يكون حظ أصحاب المواهب البيانية والإعلامية من هذا أكثر من غيرهم والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.



البناء والإعداد الإعلامي.. وتوجهات سورة الشعراء

« ٨ »

مما أشرت إليه فيما أسلفت من القول: أن قول الله تعالى في سورة الشعراء ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ يحمل — والله أعلم — توجيه المنهج القرآني إلى العناية باستخدام الشعر والكلمة عموماً — من منطلق العقيدة — سلاحاً في مواجهة الباطل وأهله. وعلى هذا فالمسلم المؤهل لهذا مدعو إلى هذا الأمر، وفي المقابل: مطلوب أن تيسر له السبل المعنوية والمادية.

والحق أنه ما دام الصراع بين الحق والباطل قائماً، وما دام أعداء هذه الأمة سادرين في غيهم، لا يدعون باباً من الشر والأذى إلا ولجوه في محاربتها والعمل على إضعافها والحيولة دونها ودون أن تستعيد وجودها الذاتي في الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع، فتكون هي — بإذن الله — صانعة القرار فيما تريد.. الحق أنه ما دام الأمر كذلك؛ فإن إعداد القوة بكل أنواعها، والاستعداد لبناء الكفايات في كل الميادين — ومنها ميدان الكلمة خصوصاً على ساحة الإعلام — كل أولئك بعض مما يهدي إليه المنهج الرباني في تلكم الآيات من سورة الشعراء. لأن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ عام في دلالاته، حيث ارتبطت القضية بالإيمان والعمل الصالح وذكر الله كثيراً وانتصار أولئك الشعراء بعد ما ظلموا.. وهذا العموم لا يمنعه سبب مخصوص يتعلق ببعض الشعراء المسلمين يومذاك.

وفي سيرة النبي ﷺ وهي التطبيق العملي لمنهج الكتاب العزيز، ما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام نظر إلى الشعر بموضوعية بالغة، فذم منه ما يستحق الذم، وامتنح ما يستحق المديح، وعمل على استخدامه سلاحاً في معركة الصراع مع الشرك وأهله حين وجه الشمراء المسلمين إلى ذلك وقاموا بواجبهم خير قيام، وهذا يشمر بأنه لا يكفي أن يوجد صاحب الكلمة التي يراد لها أن تقاتل في سبيل الله وتسهم في وضع الأمور في نصابها خدمة للحق ودرءاً لتحديات الباطل، بل لا بد من أن يفسح لهذه الكلمة كي تقال، ليعطى صاحبها في ضوء العقيدة وما يمليه المنهج الرباني حرية أن يقول.

والآيات الكريمات جلّت هذه النقطة أعظم تجلية: فالشمراء المستثنون توافر لهم الإيمان والعمل الصالح وذكر الله كثيراً، وهم في وقفاتهم ينتصرون لمقيدتهم التي ظلموا وأوذوا من أجلها، وفي سبيل الله، وفي الوقت نفسه لم يعمل حائل دونهم ودون أن يقولوا في الكفر وأهله، وفي الذبّ عن العقيدة وأهلها ما يجب أن يقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أما أولئك الذين مرّغوا شرف الكلمة في التراب، ونزلوا بمكانة الشعر إلى الحضيض هوضموه في خدمة الكفر والظلمة. فإنهم ظالمون ينتظروهم المصير الملائم لعظمتهم. ولقد كان الوعيد بالغاً عندما ترك المنقلب بلا تحديد كي يذهب الذهن فيه كل مذهب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وفي نقلة إلى الواقع ليست عملية التفسير التي ينشدها المخلصون بأمر الحاجة إلى الأخذ بالهداية التي يطرحها هذا المعلم القرآني والتي تبدو غضة طرية كان آياتها تتحرك اليوم؟.



الإعلام والتحدي..

البناء في آيات سورة الشعراء.. والهدي النبوي

« ٩ »

آيات سورة الشعراء التي استقرنا بهداها في كلمات قريبات وهي قوله تعالى بدءاً من الآية الرابعة والمشرين بمد المائتين ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾.

هذه الآيات البينات كانت محور الهدي النبوي في إعطاء كل جزئية من جزئيات هذه القضية على الصعيد العملي ما تستحق، فكان تصرف النبي ﷺ الصورة التطبيقية لما رسمه القرآن الكريم.

وقد ألمحت من قريب، إلى أن رسولنا الكريم نظر إلى الشعر بموضوعية بالغة، فامتدح منه ما يستحق المديح، وذم ما كان على المكس من ذلك، ووجه شعراء الإسلام إلى وضع شعرهم في خدمة المعركة التي تدور رحاها بين الإيمان والكفر، ويسر لهم السبيل إلى ذلك؛ فقد روى البخاري وأبو داود عن أبي بن كعب قال: إن النبي ﷺ قال: «إن من الشعر حكمة، وهي رواية للترمذي «إن من الشعر حكمة» وأخرج أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلم بكلام، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكمة». وقد ثبت أنه كان يستشد الشعر الحسن ممن كانوا يحفظونه، ويحب أن يسمعه.

وقد أخرج مسلم عن عمرو بن الشريد الثقفي عن أبيه قال: رِدت رسول الله ﷺ يوماً فقال: «هل معك من شعراًمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم قال: «هيه»، ثم أنشدته بيتاً فقال: «هيه»، حتى أنشدته مائة بيت.. وفي رواية قال: استشدني رسول الله ﷺ أي طلب أن أنشده - وذكر مثله.

وهيه، - وفي رواية إيه - هي كلمة للاستزادة من الحديث المهود، فالرسول يستزيد رديفه الشريد الثقفي من شعر أمية بن أبي الصلت حتى أنشده مائة بيت.

وامتداداً لذلك: كان لا يمنع أصحابه من أن يتناشدوا الشعر من هذا المنطلق فمن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «جالست النبي ﷺ أكثر من مئة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، فربما تبسم معهم، أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

والى أن نلتقي على مزيد من السنة بياناً للآيات الكريمة أود أن أشير إلى أن هذه الوقائع في الهدي النبوي: جديرة بأن تحفز أصحاب المواهب البيانية إلى تتميتها واستخدامها في ميادين الصلاح والإصلاح، وتدفع صنّاع القرار إلى المعاونة بمنهجية في ذلك وما من ريب في أن تكامل البناء في شخصية المسلم: يقتضي أن لا تهمل موهبة البيان - بل تنمي في ضوء العقيدة والخلق كي تكون سلاحاً ومصدر عطاء في مواجهة التحدي. وما أكثر التحديات.. وسيملم المفترون الظالمون أي منقلب ينقلبون.



المواجهة والبناء..

والوجهة العملية في الهدي النبوي

« ١٠ »

أشرت - فيما سبق - إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أخذ الوجهة العملية في استخدام الشعر سلاحاً على طريق مواجهة الكفار وتحدياتهم، وذلك في بيان فعلي لما جاء في الآيات الكريمات من سورة الشعراء وهي قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۚ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۚ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۚ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ۚ﴾.

وقبل الإتيان على بعض الوقائع في هذا الجانب الإعلامي من حياة الدعوة: أود أن أشير إلى أن الأمر في العهد المدني، كان أكثر وضوحاً حيث كان هنالك شعراء للإسلام ينافرون الأعداء ويصدعون بكلمة الحق. أما في العهد المكي: فكانت البداية حيث تحول نفر من شعراء المشركين إلى، الإيمان، وامتدحوا الإسلام ورسول الله ﷺ بعد الذي كان منهم من التكذيب والهجاء، وقد رأينا من أمثلة ذلك صنيع عبد الله بن الزبير، وأبي سفيان الحارث بن عبد المطلب، بعد أن أكرمهما الله بالدين الحنيف فاستبدلوا الكلمة الصادقة بكلمة الكفر والهجاء والافتراء. وفي عود على بدء: ها هي ذي وقائع عملية تأخذ دورها على ساحة الصراع في العهد المدني، ويمارس رسول الله بنفسه ترغيب الشعراء المسلمين وتشجيعهم على الوقفة الصادقة المجاهدة في وجه الكفر والطغيان، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحيان منبراً في المسجد، يقوم عليه قائماً، يفاخر عن رسول الله ﷺ، أو ينافح، ويقول ﷺ: «إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافع أو فاجر عن رسول الله».

وهي رواية لأبي داود يضع لحسان منبراً في المسجد: فيقوم عليه يهجو من قال في رسول الله ﷺ وقال رسول الله: «روح القدس مع حسان ما نافع عن رسول الله، وأخرجه الترمذي بنحو الرواية الأولى.

وهذه واقعة شاعرها عبد الله بن رواحة. فقد أخرج الترمذي والنسائي عن أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله وينهل الخليل عن خليله
فقال له عمر: يا بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشمر؟
فقال ﷺ: «دخلُ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نفح النبل، ونفح النبل بالنبل: وهي السهام العربية.

وإن لدرس يحمل البيان العملي التطبيقي لما وجهت إليه سورة الشعراء، وحسبك أن الرسول ﷺ، لم يشغله ما هو فيه من شؤون الدعوة ومتعلقاتها عن أن ينتهج هذا النهج الذي اعتبره من أسلحة المواجهة، ويهدي إلى تنمية هذه الموهبة البيانية – موهبة الشعر – وحسن استخدامها في ميدان من أعز ميادين الأمة وأغلاها، وهو صراعها مع الكفر والباطل، وهي تحمل راية الحق والخير لبني الإنسان، وترفع قواعد الحضارة المثلى في ظرف، كانت تبدو دعوة الحق فيها وهي أشبه بالجزيرة المضيئة في أبحر من الظلمات.



خواتم سورة الشعراء.. ونظرة أخرى في البناء

« ١١ »

وقفنا المعلم القرآني - ونحن ننظر في خواتم سورة الشعراء - على ضرورة التنبه لما يستخدم العدو من سلاح إعلامي في معركة الصراع بين الكفر والإيمان، والحق والباطل كما وقفنا على أن الآيات الكريمة تهدي المسلمين إلى استخدام الشعر والكلمة البيانية عموماً في تلك المعركة، وذلك ما وجه إليه رسول الله ﷺ شعراء المسلمين.

فالآيات المشار إليها وهي قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢١) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعِلُّمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُقَلِّبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧). تطرح قضية كبرى ذات علاقة بالصراع الدائر بين أهل الإيمان وأهل الشرك، وتأخذ بيد المسلمين إلى المنهجية واستفاد الأسباب التي تؤدي - بإذن الله - إلى النصر، وما يمكن أن يستخدم لذلك من أسلحة ومنها سلاح البيان والإعلام، هذا بجانب التقويم الصحيح لأولئك الذين وضعوا الكلمة في غير موضعها، واتخذوا منها سلاحاً وجهوه إلى الحق وأهله..

من هنا تبدو تلك الآيات، وهي وثيقة الاتصال بالواقع وإن كانت قد تنزلت على سبب مخصوص في العهد المكي وقبل أربعة عشر قرناً من الزمان، لأنها في حقيقة الأمر تقعد قواعد عامة في إطار المنهج الذي على المسلمين أن يطبقوه في مواجهة التحديات.

والصور العملية التي رأيناها في سيرة النبي ﷺ تؤكد وتوضح هذا الذي نقول؛ فشعراء الصحابة في مواجهة الأعداء والمحاولة الجادة في قل سلاحهم الإعلامي؛ كانوا على الاستقامة التي دل عليها قول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿١٠٠﴾ ورائع حقاً ما يرى من ثقة الرسول ﷺ بما يصنع في وضع الكلمة المؤمنة يطلقها الشاعر المسلم: سلاحاً في وجه الشرك والظلمة فهو يقول ﷺ: «دخل عنه يا صمرفلهمي أسرع فيهم من نضح النبل».

وتراه عليه الصلاة والسلام يقيم ارتباطاً متيناً بين موقف الشاعر ينود عن الحق، وبين العقيدة. وذلك ما يجب مراعاته عند تكوين شخصية المسلم، كي ينمو عنده هذا الارتباط الذي ينشئ الحوافز ويدفع إلى الإقدام فقد روى البخاري ومسلم عن البراء ابن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم قريظة لحسان: «اهج المشركين، فإن جبريل مملكه وفي رواية: «اهجهم أوهاجهم وجبريل مملك».

أرأيت إلى هذا التأيد الإلهي لشاعر مسلم ينقض على المشركين؟! وهذا التأيد كائن ما توافر الإيمان، وصدقت النية.

والهدي النبوي في بيان الكتاب العزيز لا يفصل ما يجب أن يكون من الوعي واليقظة عند من يقف لمواجهة بالبيان والإعلام، كما تدل الواقعة التالية: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن حسان بن ثابت رسول الله ﷺ في هجاء المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «هكيف سبي؟» فقال حسان: لأملنك منهم كما تسلم الشعرة من المعجين.

وسبعان من يوفق من يشاء لما يشاء.



البناء.. ونفي الشعر عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم
« ١٢ »

ما رأياء في خواتم سورة الشعراء، يقودنا إلى قضية أخرى قد يحسب البعض أنها تتنافى مع رضا الرسول الكريم عن الشعر الحسن، واستثناء من حفظه، ليسمع هو عليه الصلاة والسلام، ثم استخدام الشعر سلاحاً إعلامياً في المعركة التي أوقد المشركون وأعداء الله عموماً نارها في مواجهة الفئة المؤمنة التي تزاوَل عملية البناء الكبرى بأمانة ووعي للمسؤولية.

تلك القضية هي نفي القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ أن يكون شاعراً، كما كان يحلو لبعض المشركين أن يقولوا ذلك فيه، تحويلاً للأنظار عن القرآن الكريم وإعجازه، وأنه موحى به من عند الله عز وجل. وأين كلام الشاعر مهما أوتي من قوة المعارضة وجمال التعبير من كلام الله المعجز الذي تحدى العرب – وهم أهل الفصاحة والبلاغة – من أول يوم، ففجزوا عن أن يأتوا بشيء من مثله؟!

وإذن: فلا تعارض بين القضيتين: أن يستخدم الشعر سلاحاً ماضياً على ساحة الصراع بين الشرك والتوحيد: شيء، وأن يتكرر تأكيد أن ما جاء به رسول الله ﷺ هو وحي أوحاه الله إليه بواسطة جبريل عليه السلام: شيء آخر.

ولقد أتى القرآن على زعم المشركين بأن رسول الله ﷺ شاعر في أكثر من موطن. ففي سورة الأنبياء نقرا بدءاً من الآية الخامسة قول الله تعالى بشأن هذه الفرية: ﴿بَلْ قَالُوا أَضَلُّوا أَعْلَامَ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٥﴾

ويستثير القرآن عقولهم ليتعلموا ولا يخطئوا خبط عشواء فيقول تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمُ يُؤْمِنُونَ ٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٧﴾ وهي سورة الصافات نقرأ بدءاً من الآية السادسة والثلاثين: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا نَأْتِيكُم بِآيَاتٍ لِّشَاعِرٍ مُّجْتَوٍ ٣٦﴾ ويجيء الرد الحاسم بقوله جل شأنه: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ٣٨﴾ ونجد في سورة الطور ما يزيد الأمر وضوحاً ذلكم قول الله جلّت حكمته بدءاً من الآية التاسعة والعشرين: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِعُهُ بِهِ رَبِّبُ الْمُتُونِ ٣٠﴾ قُلْ تَرَبُّعُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّعِينَ ٣١﴾.

إنها فرية كانوا يعلمون أنها فرية وزعم باطل، لأن سمو بلاغة القرآن لم يكن يخفى عليهم ولكنه العناد الجاهلي! ثم أين سلوك الشاعر – بوصفه شاعراً – يومذاك من أخلاق الرسول ﷺ الموحى إليه بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولذلك جاء القول في هذه القضية الجذرية كما نجد في الآية التاسعة والستين من سورة يس: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ٦٦﴾ هكذا على الحصر: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ فما جاء به الرسول ﷺ ليس شعراً، ولكن ذكر وقرآن مبين. ولننظر في آيات من سورة الحاقة تبدأ من الآية الثامنة والثلاثين ذلكم قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْهَرُونَ ٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْهَرُونَ ٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٣﴾.

إن عطاء الكلمة القرآنية في إيضاح هذه الحقيقة، وأن ما جاء به رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام وحي من عند الله عز وجل، وليس شعراً أو كلاماً من عنده: قد يبدو أمراً بسيطاً للمؤمن – بوصفه مؤمناً – ولكنه في الواقع حجر الزاوية في بناء الجيل – ذكوراً وإناثاً – وتثقيفهم الثقافة الأصيلة التي تزيد المؤمن إيماناً،

وتشعره أنه يقف على اليابسة بوجود ذاتي أصيل وهو يسهم في إدارة حركة الحياة. الأمر الذي يعول دونه ودون اختلاط الأمور والتباس المفاهيم والمصطلحات، وبذلك يظل قويُّ النُسخ بهذا المعطاء الإيماني المعرفي، صحيح الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، قادراً - بعمون الله - على الإسهام في تحقيق عبودية الله في الأرض على مختلف الأصعدة، وبناء الصرح المأمول لحضارة يرتضيها دين الحق والعدالة والوعي الشامل، وهو الإسلام، والحمد لله الذي هدانا لهذا الخير الصحيح وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



٥	توطئة
١٢	يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام (١)
١٩	القاعدة الإيمانية.. والبناء.. يا أيها الذين آمنوا (٢)
٢٥	البناء.. وشرعة الصيام (٣)
٢٩	شرعة الصوم.. والبناء (٤)
٣١	شرعة الصوم.. والبناء (٥)
٣٥	شرعة الصوم.. والبناء الأمناء (٦)
٣٧	آيات الصيام.. منهجية البناء.. والتقوى (٧)
٤١	القرآن.... وحراسة البناء. (١)
٤٥	القرآن.. وحراسة البناء (٢)
٤٧	صورة أخرى من العهد المكي.. الترغيب الأخروي.
٤٩	وإشارة لا بد منها.. إلى العهد المدني.
٥٣	البناء.. والتنبية المبكر.. وسورة الماعون (١)
٥٧	البناء.. والتنبية المبكر.. وسورتا الماعون والفجر (٢)
٦١	البناء.. والتنبية المبكر.. سورتا الماعون.. والفجر (٣)
٦٥	البناء.. والتنبية المبكر.. سورة الماعون (٤)
٦٩	البناء.. والتنبية المبكر.. سورة الماعون وأختها (٥)
٧٣	ولم نك نطعم المسكين. البناء.. والبداية المبكرة.. وسورة المدثر (١)
٧٧	خطوة أخرى.. مع البداية المبكرة.. وسورة الإسمراء والروم (٢)
٨٣	هدم وبناء.. صورة أخرى.. سورة الفجر... والنساء.
٨٧	نظام الإرث.. الإنسان.. والبناء.. وسورة النساء (١)
٩١	نظام الإرث.. الإنسان والبناء.. وسورة النساء (٢)

- نظام الإرث.. والبناء.. وسورة النساء (٢) ————— ٩٧
- من رواقد البناء.. هي سورة الفيل. ————— ١٠١
- سورة الذاريات.. والبناء. ————— ١٠٥
- من لمحات الإعجاز.. على ساحة البناء.. وسورة التحل. ————— ١٠٩
- بواقد البقطة.. وسورة العصر. التنبه.. واخذ الحذر. ————— ١١٣
- البناء.. وصراع الوجود في عودة إلى سورة الأحزاب.. وصورة كل من
المؤمنين والمنافقين (١) ————— ١١٧
- البُناة.. والمؤمنون.. سورة الأحزاب.. ودلالات آخر (٢) ————— ١٢١
- البنية الثقافية.. ودرس من سورة المائدة (١) ————— ١٢٥
- أجيال البناء.. ومؤشرات في سورة السجدة (٢) ————— ١٢٩
- البناء في إطار التكامل.. وجزاء العمل في سورة السجدة (٣) ————— ١٣٣
- عمارة الأرض.. والأفاق الحضارية.. البناة والتأسي.. وسورة السجدة (٤) ————— ١٣٧
- سورة السجدة... والبناء.. وشاهد من السنة. ————— ١٤١
- سورة إبراهيم... ومؤشرات البناء في التوجيه المبكر (١) ————— ١٤٥
- سورتا إبراهيم والبقرة... ومؤشرات البناء في التوجيه المبكر (٢) ————— ١٤٩
- دعوات إبراهيم.. ومؤشرات البناء السليم (٣) ————— ١٥٥
- دعوات النبيين الكريمين ومؤشرات البناء القويم (٤) ————— ١٥٧
- جيل البناء... والسنة الإلهية فيه.. ونور الدعاء والطاعة عند إبراهيم وإسماعيل (٥) — ١٥٩
- السنة الإلهية.. وكافؤ الفرص على طريق البناء، الدعاء.. والعطاء (٦) — ١٦٣
- البناء.. وثروة البشرية من سيرة الأنبياء عليهم السلام ————— ١٦٧
- التربية والبناء.. والأنموذج الصالح.. التساوق مع السنة الإلهية.. وقصة
نوح عليه السلام وابنه (١) ————— ١٦٩
- البناء التربوي.. والمنهج في قصة نوح عليه السلام (٢) ————— ١٧٣
- البناء التربوي.. والمنهج في قصة نوح عليه السلام (٣) ————— ١٧٧

- ١٨١ ————— البناء التريوي.. والحقيقة العلمية في قصة نوح عليه السلام (٤) —————
الوحي.. والحقيقة العلمية. فاعلية هذه الحقيقة.. في بناء المسلم. الفاعلية
والتربية البناءة.. والبناء.. ————— ١٨٥
- ١٨٩ ————— السلوك وتكامل البناء في سورة الحجرات (١) —————
خطوة أخرى مع السلوك والبناء في سورة الحجرات (٢) ————— ١٩٣
- ١٩٧ ————— سورة الحجرات.. وانعكاسات السلوك على البناء الاجتماعي (٣) —————
سورة الحجرات.. وبناء المجتمع المتناسك بوجوده الذاتي (٤) ————— ٢٠١
- ٢٠٥ ————— سورة الحجرات... وإلى قراءة جديدة في البناء (٥) —————
البناء.. وما يمتيه ختام الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات (٦) ————— ٢٠٧
- ٢١١ ————— البناء الاجتماعي.. وآية من سورة الحجرات (٧) —————
البناء.. ومؤشرات في سورة الحجرات (٨) ————— ٢١٥
- ٢١٩ ————— المنهج والملاص على صعيد البناء. البناء وسورة الحجرات (٩) —————
سورة الحجرات - وكلمات أخرى في البناء والمنهج (١٠) ————— ٢٢٣
- ٢٢٧ ————— مرة أخرى.. مع المنهج والبناء في سورة الحجرات (١١) —————
وفقات مع آيات البناء الذاتية.. وعدم الوقوع في التقليد الأعمى.. وسورة النساء. ٢٣١
- ٢٣٥ ————— الواقع والبناء.. وزيادة اليقين بأن القرآن من عند الله.. وسورتا البقرة والنساء (١) -
سورتا البقرة والنساء.. ووفقات مع آيات (٢) ————— ٢٣٧
- التغيير.. وإحكام بني المجتمع.. والتواءم بين المهدين المبكي والمدني في ذلك..
سورتا آل عمران والحجر (١) ————— ٢٣٩
- التغيير والتكامل.. في منح الأخلاق والسلوك وحقيقة أخرى على طريق
البناء.. آل عمران والحجر (٢) ————— ٢٤١
- ٢٤٣ ————— التغيير والبناء.. وعودة إلى آيات سورة الحجر (٣) —————
التغيير والتكامل في منهج البناء.. وقبسات آخر من آيات الحج (٤) ————— ٢٤٥
- ٢٤٧ ————— التغيير والوعي في منهج البناء... والآية التاسعة والثلاثون من سورة الحج (٥) -

- البناء.. والنقلة من الماضي إلى الحاضر (١) ————— ٢٤٩
- وقفات مع آيات النقلة والبناء.. ومدلولات الوقائع (٢) ————— ٢٥٣
- وقفات مع آيات البناء.. وصورة أخرى من صور المواجهة والتبعية إلى دقة المعايير (٣) — ٢٥٧
- مع آيات من سورة الزخرف، البناء... ومعرفة الواقع ودقة المواجهة (٤) — ٢٦١
- إحكام البناء.. وسورة الزخرف.. المواجهة بإيمان.. معرفة الواقع ودرء
المعيار الجاهلي. ————— ٢٦٥
- خاتمة سورة المجادلة.. وبناء الفرد والجماعة (١) ————— ٢٦٩
- سورة المجادلة... وحقيقتان على طريق البناء (٢) ————— ٢٧٣
- خواتم المجادلة.. وحقيقة ثالثة في البناء (٣) ————— ٢٧٧
- البناء والآية الأخيرة من سورة المجادلة.. العقيدة والموالات (٤) ————— ٢٨١
- خواتم سورة المجادلة وأولويات في بناء الإنسان المسلم (٥) ————— ٢٨٥
- أولويات في البناء.. ووضوح الرؤية.. سورة المجادلة والجيل القدوة (٦) — ٢٨٩
- مع سورة الأنعام.. التحضير المبكر للبناء والأولويات (١) ————— ٢٩٣
- البنية الثقافية والسلوك.. وسورة الأنعام (٢) ————— ٢٩٧
- سورة الأنعام وإحكام البناء.. بين يدي المجتمع الأمثل صاحب الرسالة (٣) — ٣٠١
- سورة الأنعام.. أوضاع الجاهلية.. والتغيير (٤) ————— ٣٠٥
- سورة الأنعام.. وعقائيل الجاهلية.. البناء على طريق التغيير إلى الأقوم (٥) — ٣٠٩
- مع سورة النحل.. الدلالة القرآنية على مواطن الضعف من أجل
التحول إلى الأفضل. ————— ٣١٣
- البناء.. وعوامل الهدم في المجتمع الجاهلي من سورتي الأنعام والصافات
مؤشرات التغيير.. والدروس (١) ————— ٣١٧
- مؤشرات التغيير على طريق البناء ووقفه أخرى مع سورة الصافات (٢) — ٣٢١
- البناء.. ومؤشرات التغيير.. وعودة إلى سورة الأنعام (٣) ————— ٣٢٥
- البناء.. ووقفه مع الآية السابعة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام (٤) — ٣٢٩

- البناء في مواجهة إذابة الإنسان والمجتمع.. ووقفة أخرى مع سورة الأنعام (٥) — ٣٣٣
- البناء... ومعالجة الهدم وسورة يونس (٦) — ٣٣٧
- البناء.. وإثارة بؤابر التغيير.. وسورة المائدة (٧) — ٣٣٩
- الشعبة الثانية من شعب الهرم وإثارة بؤابر التغيير في وقفات مع آيات (٨) - ٣٤١
- البناء.. وشعبة الهدم الثالثة كما دلت عليها سورة الأنعام (٩) — ٣٤٣
- التصور الصحيح.. في البناء والآثار الطيبة لتقضى مسالك الجاهلية (١٠) - ٣٤٥
- البناء.. وثمرات المحاصرة للتصرفات الجاهلية.. وسورة الأنعام (١١) — ٣٤٩
- سورة الأنعام... وصورة من النظر الجاهلي إلى المرأة في مرحلة التحضير للبناء (١٢) — ٣٥١
- مرة أخرى.. وقفة مع سورة الأنعام والظلم الجاهلي للمرأة (١٣) — ٣٥٣
- البناء.. والمؤيدات القرآنية في مواجهة الظلم الاجتماعي (١٤) — ٣٥٥
- بناء المجتمع.. وواحد من عوامل الهدم كما تصوره سورة الأنعام (١٥) — ٣٥٩
- العناية بالفرد والمجتمع.. والوعيد على عوامل الهدم في سورة الأنعام (١٦) - ٣٦٣
- مرة أخرى.. مع بناء المجتمع.. والتدبير بالهدم الجاهلي (١٧) — ٣٦٥
- بناء المجتمع.. وأثر التدبير بعوامل الهدم الجاهلي (١٨) — ٣٦٧
- حراسة بُنى المجتمع ومحاربة السفه.. في العدوان على الولد والمال.. سورتا الأنعام والتوبة.. — ٣٦٩
- سورة النحل والتوجيه إلى البناء وحراسته.. من خلال التدبير بأمور الجاهلية (١) — ٣٧١
- النهج البناء... وحراسة بنى المجتمع.. وسورة النحل (٢) — ٣٧٣
- مرة أخرى مع النهج البناء وسورة النحل (٣) — ٣٧٧
- حراسة بُنى المجتمع على محور الهداية.. في سورتي الأنعام والنحل (٤) — ٣٧٩
- عودة إلى سورة الأنعام.. وسدُّ الذريعة في حراسة بُنى المجتمع (٥) — ٣٨١
- سورة الأنعام.. ونهج التعامل البناء مع الفهم (٦) — ٣٨٥
- البناء.. وحراسة بنى المجتمع.. وآيات من سورة الأنعام (٧) — ٣٨٩
- البناء.. والمنهج العملي في التعامل مع التمتع بدءاً من العهد المكي (٨) — ٣٩٣

- البناء.. وأهمية التوجه إلى الاعتبار، وإعمال العقل في المنهج المستقيم (٩) - ٣٩٥
- سلامة بناء الفرد والمجتمع.. والتكامل بين الدنيا والآخرة في المنهج الرباني. — ٣٩٩
- تكامل البناء الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.. وقوله تعالى:
- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ (١) — ٤٠١
- مرة أخرى مع التكامل في البناء الثقافي... وغيره.. وآية الأعراف (٢) — ١٠٣
- التكامل في البناء.. التسخير وعلاقة الإنسان. الكون والحياة (٣) — ١٠٥
- مع آيتي الأعراف... وتكامل البناء والبُنى (٤) — ١٠٧
- وجوب التنبه.. للإعلام المعادي (١) — ١٠٩
- وجوب التنبه للإعلام المعادي (٢) — ٤١٣
- اليقظة والتنبه للإعلام المعادي (٣) — ٤١٧
- البناء.. والتجربة والإعلام المعادي (٤) — ٤٢١
- البناء.. والفتنة عن الدين وتعمية الإعلام المناوئ (٥) — ٤٢٥
- أثر الوعي.. في البناء ومواجهة الإعلام المعادي (٦) — ٤٣١
- بعد المواجهة الإعلامية.. سرية بطن نخلة.. والفرج بعد الشدة (٧) — ٤٣٧
- سلاح الكلمة والشعر.. سورة الشعراء.. والبناء الإعلامي وصورة التكامل
- في مواجهة التحدي (١) — ٤٤١
- الشعر والكلمة المؤمنة... والبناء المتكامل في الإعلام والمواجهة (٢) — ٤٤٣
- أبعاد الكلمة.. والبناء الإعلامي وسورة الشعراء (٣) — ٤٤٥
- أبعاد الكلمة البناء.. سورة الشعراء.. وأسلحة المواجهة الإعلامية (٤) — ٤٤٧
- البناء الإعلامي ومواجهة التحديات في سورة الشعراء (٥) — ٤٤٩
- البناء والوعي.. والكلمة المسؤولة في الإعلام (٦) — ٤٥١
- قضايا الأمة في البناء.. وقبس من الهدى النبوي في الإعلام (٧) — ٤٥٣
- البناء والإعداد الإعلامي.. وتوجهات سورة الشعراء (٨) — ٤٥٥
- الإعلام والتحدي.. البناء في آيات سورة الشعراء.. والهدى النبوي (٩) — ٤٥٧

- المواجهة والبناء.. والوجهة العملية في الهدي النبوي (١٠) ————— ٤٥٩
 خواتم سورة الشعراء.. ونظرة أخرى في البناء (١١) ————— ٤٦١
 البناء.. ونفي الشعر عن رسول الله ﷺ (١٢) ————— ٤٦٣

